

مجلة ثقافية شهرية - العدد ٣١١ - جمادى الأولى ١٤٢٣ هـ - يوليو / أغسطس ٢٠٠٢م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 311 -JUL. / AUG. 2002



# تاريخ المنسوجات الإسلامية

تطوير التعليم الجامعي:
الأحلام وتأويلها

العلاقة بين الضغط
النفسي والدعم
الاجتماعي

رسائل فقهية
حول البحر والملاحة

علوم التعمية
في التراث العربي

مدينة غرينوبل الفرنسية

محمد المنوني:
شيخ الباحثين المغاربة

الكيمياء والإرهاب:
الرابطة النكدة!


أوتوستار
سيارات مستعملة مضمونة .. صيانة .. قطع غيار





الناشر: دار الفيصل الثقافية

## المحتويات


**رسائلكم** ٤

**فنون**

تاريخ المنسوجات الإسلامية — محمد عبدالله العلياني ٦

العلاقة بين الفن والواقع — محمد مصطفى المصري ١٧

**تعليم**

تطوير التعليم الجامعي: الأحلام وتأويلها — مصطفى رجب ٢٥

**اجتماع**

جدلية العلاقة بين الضغط النفسي والدعم الاجتماعي — دعد الشيخ ٢٩

**فقه**

رسائل فقهية حول البحر والملاحة — لطف الله قاري ٣٤

**تراث**

علوم التعمية (الشفرة وكسرها) في التراث العربي — محمد مرايأتي ٤٤

**لغة**

تحفيظ القرآن ومستقبل الفصحى — ظهور أحمد أظهر ٥٢

**مدن**

مدينة غرينوبل الفرنسية — محمد عبدالقادر مرشحة ٦٤

**علوم**

الكيمياء والإرهاب: الرابطة النكدة!! — أحمد بن حامد الغامدي ٧٢

نيكولاي آبر وأعماله الإنسانية — عبدالإله بوبكر السويلمي ٨١

**المسابقة** ٨٧

**قصائد**

صراع السفينة — زينة آل علي المالكي ٨٩

أجزاء من قصيدة الأفراد — فيصل أكرم ٩٠

تضاريس الهوى — محمد أحمد الشامي ٩٢

داء وشفاء — المرّار بن المنقذ العدوي ٩٣

**قصص قصيرة**

المنزل: آندريه مورو — ترجمة: محمد رجب ٩٤

**نص**

الأشياء — فوزية العلوي ٩٦

**ردود وتعقيبات**

الغذاء النباتي قد يكون الحل — مسعد مسعد شتيوي ٩٨

**رحلة في كتاب**

التعاون الاقتصادي العربي بين القطرية والعولمة — مراجعة: وليد نذير عتمة ١٠١

**أعلام**

محمد المنوني: شيخ الباحثين المغاربة في العصر الحديث — عبداللطيف بن محمد الجيلاني ١١١

**الملف الثقافي** ١٢١

## ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدراً من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- تأمل من الإخوة الكتاب الذين يراسلون المجلة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- لا تمنح مكافآت على ما ينشر في بابي «رسائلكم» و«ردود وتعقيبات».
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
  - يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
  - يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
  - التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
  - تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصاً القديم منه.
  - ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

**الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.**

## السعر الإفرادي

السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ٧٠ ديناراً ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ٨٠ ديناراً ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

## الموزعون

السعودية ـ الشركة السعودية للتوزيع ـ هاتف ٦٥٣٠٩٠٩(٠٢)، فاكس ٦٥٣٣١٩١(٠٢). مصر ـ مؤسسة توزيع الأهرام ـ شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ ـ فاكس ٣٣٩١٠٩٦ ـ ٢٠٢٠٠، سورية ـ المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٢٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨، فاكس ٢١٢٢٥٣٢ ـ ١١. ٩٦٣٠٠، تونس ـ الشركة التونسية للصحافة ـ ٣نهج المغرب ـ فاكس ٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ ـ ١ ـ ٢١٦٠٠، قطر ـ دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ـ ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٤٦٦١٢٨٢ ـ فاكس ٤٦٦١٨٦٥ ـ ٩٧٤٠٠، الأردن ـ شركة وكالة التوزيع الأردنية ـ ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ ـ فاكس ٤٦٣٥١٥٢ ـ ٦. ٩٦٢٠٠، البحرين ـ مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ ـ فاكس ٥٣١٢٨١ ـ ٩٧٣٠٠، الإمارات العربية المتحدة ـ مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٢٦٦٥٣٩٤ ـ فاكس ٢٦٦٩٨٢٧ ـ ٤. ٩٧١٠٠، الجزائر ـ مؤسسة E.B.D. PRESSE لتوزيع الصحافة، ت ٤٨٦١٥٥٥ فاكس ٤٨٦٢٤١٥ ـ ٢١٣٠٠، الكويت ـ شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ ـ فاكس ٢٤١٧٨٠٩ ـ ٩٦٥٠٠، السودان شركة النحوي للتجارة والتوزيع ص.ب ١٠٣٧١ ت: ٧٧١٥٤٧/٢٧ فاكس ٧٧٤٣٣٦، المغرب MOROCCO ـ SOCHPRESS - CASABLANCA - TEL:2400223, Fax:00212-2404041/32، باكستان PAKISTAN
PARADIS BOOKS & DISTRIBUTORS- KARACHI 75400, TEL:4314981/2 FAX: 0092-21-4554410.
الجمهورية اليمنية ـ القائد للنشر والتوزيع ت: ٢١٨٦١٥ ـ ٣ ـ ٩٦٧ فاكس ٢٢٢٣٢٨






مطابع هـلا
٤٨٢١٣١٣



### تاريخ المنسوجات الإسلامية

**ازدهرت صناعة النسيج في العالم الإسلامي، وخصوصاً في بعض الأقاليم مثل مصر وإيران، وتأثرت بالإسلام، فبدأت بالاستغناء شيئاً فشيئاً عن الرسوم الآدمية، وأخذت الكتابة والزخرفة النباتية والهندسية ورسوم الطيور والحيوانات في الانتشار. وكان تشجيع الخلفاء والأمراء لرجال الدولة بمكافأتهم بالخلع الثمينة والملابس الفاخرة من أسباب تطور هذه الصناعة؛ فكيف كانت البداية وما تاريخ المنسوجات الإسلامية؟**

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد
مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

المراسلات للتحرير والإدارة:
ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:
١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات،
أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات:
هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢
ردمد ٠٢٥٨ ـ ١١٤٠

### قصص للأطفال

أوجه التحية لكم وللعاملين كافة على إصدار مجلة الفيصل على جهودكم المبذولة لتطويرها نحو الأفضل دائماً إن شاء الله. مع اهتمام كل المجلات والصحف العربية والأجنبية بأدب الأطفال، ولكنكم نشرتم بعض المقالات بهذا الخصوص، فهل بالإمكان مساعدتي على الحصول على هذه المقالات المتوافرة لديكم؛ لأنني أعد دراسة في هذا الأمر.. فأرجو منكم المساعدة.

ومجلة الفيصل تهتم بأدب الأطفال، ولكن لا تنشر قصصاً للأطفال، نرجو منكم التكرم بنشر قصص بين حين وآخر.. وإنني على استعداد لإرسال بعض القصص ليتم نشرها في المجلة، وجزاكم الله كل خير على جهودكم وتعاونكم سلفاً.

لن أطيل عليكم أنتظر منكم المساعدة على الحصول على المقالات والمواد المنشورة في مجلة الفيصل والخاصة (بأدب الأطفال).

في نهاية المطاف أكرر تحياتي وشكري لكم، وأرجو لكم مزيداً من النجاح والتوفيق في عملكم.

**نجوى صالح هنداوي**
**حلب - سورية - ص.ب ١١٦٥٥.**

**التحرير:**

**نشكر لك الإطراء، وسوف نحاول الأخذ باقتراحك بنشر قصص للأطفال بعد دراسته ووضع طرائق تنفيذه بما يحقق الغرض منه.**

**بخصوص طلبك للمواد المنشورة في مجلة «الفيصل» نأمل أن تتصلي بقسم خدمات الباحثين في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، وعنوانه: (الرياض ١١٥٤٣ - ص.ب ٥١٠٤٩ المملكة العربية السعودية) حتى يمكنك الحصول على كل المواد المتعلقة بموضوع رسالتك سواء أكانت منشورة في «الفيصل» أم في غيرها من المجلات والكتب وأوعية المعلومات.**

### جامعة العلماء

لقد سنت المملكة سنة حسنة منذ سنوات بعيدة، وهي فتح أبوابها للعلماء والباحثين في الجامعات ومراكز البحث العلمي، ووفرت لهم سبل الأرزاق فاستحقت من الجميع الثناء. واستطاع هؤلاء أن يساهموا بمجهوداتهم الخلاقة في بناء المجتمع السعودي الإسلامي المعاصر الذي يسير بمنظومة إسلامية رشيدة، يحق لنا أن نفرح ونفتخر به.

وقدمت المملكة للإنسانية مبادئ وقيماً ساهمت في نشر الخير والفضيلة، فالمراكز الإسلامية التي أقيمت بأوربا وآسيا وإفريقية والأمريكيتين محطات إشعاع ونور تنير ظلمات الكفر، وتحمي المهاجرين، وتحفظ الجيل الجديد من الذوبان في بحور الفجور، والمطبوعات التي تشرق وتغرب أيضاً تنشر الحق والعدل والجمال والذوق الرفيع، وتشمل هذه المطبوعات القيم الباهرة والحضارة الطاهرة والعدالة الباسمة مثل «المجلة العربية، والفيصل، والمعرفة، والمنهل، والرابطة، والإعجاز العلمي، والدارة، ومجلة الدراسات الإسلامية، ومجلة مكتبة الملك فهد».

ويطيب لي أن أذكر بكل فخر وإعزاز جائزة الملك فيصل العالمية التي تمثل نموذجاً للجائزة الراقية التي تمنح دون تحيّز أو نظرة ضيقة وبلا محاباة ولا مجاملة. كما نقرأ ونسمع كيف تعطى بعض الجوائز العالمية التي تسيطر على مجالس هيئاتها من لديهم ميل عنصري أو علماني، ومن يتشدقون بالديمقراطية، وهم أبعد عن القيم والحياد العلمي الهادئ. كما أننا نذكر بكل فخر مؤتمر الجنادرية الذي يمثل مهرجاناً للكلمة الهادفة والمناقشات الراقية والحوار البناء الذي يسهم في مد جسور التعاون مع الآخرين مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى: *وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً*. **البقرة:١٤٣**.

نحن نطمح أن تظل المملكة في مسيرتها تسير بخطاً واثقة نحو التقدم والازدهار والرقي الحضاري، وتتبنى إنشاء (جامعة العلماء) تتخصص في مجال التقانة (التكنولوجيا) المتطورة، ثم تخاطب جميع دول العالم الإسلامي لكي تختار كل دولة عشرة طلاب ممتازين خلقياً، ومتفوقين علمياً، ليكونوا نواة لهذه الجامعة، وتبذل المملكة قصارى جهدها لعودة علمائنا الأفذاذ الذين هاجروا أوطانهم، وساهموا في دنيا العلم بأوربا وأمريكا، (أفاد تقرير لأكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا في مصر أن أكثر من ٤٥٠ ألف مواطن مصري من حملة المؤهلات العلمية العليا هاجروا إلى الغرب خلال الـ ٥٠ عاماً الماضية، برز منهم ٦٠٠ عالم من ذوي التخصصات النادرة جداً، ومن بين هؤلاء العلماء ٩٤ عالماً في الهندسة الوراثية، و٢٦ في الفيزياء النووية، و ٤٨ في الكيمياء، و ٢٥ في علوم الليزر، و٩٣ في الإلكترونيات الدقيقة، وآخرون في مجال الطب والهندسة الوراثية

وتكنولوجيا النسيج والجسور والسدود والجيولوجيا وطبيعة الزلازل والأشعة السيزمية) عن مجلة الأهرام العربي. نحن في حاجة إلى هؤلاء لإيجاد أرضية علمية تضيف الجديد إلى الإنسانية، من هنا تنطلق من أرض الحرمين، وبتمويل من دول منظمة المؤتمر الإسلامي، لتسهم في تعزيز دور الإسلام حضارياً، وعلمياً وسياسياً، ولتتسلح الأمة الإسلامية بالعلم والإيمان وهي تسير في قافلة الحضارة العالمية ليتحقق فينا الخيرية التي خاطبنا بها الله عز وجل: كنتم *خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله*. **آل عمران: ١١٠.**

**درغام عبدالله حسين**

**الفيوم - مصر.**

**التحرير:**

**نشكر لك غيرتك وحرصك على تقدم الأمة للحاق بركب الحضارة المعاصرة، ونشير إلى أن مؤسسة الملك فيصل الخيرية إلى جانب تبنيها جائزة الملك فيصل العالمية في فروع خمسة هي: خدمة الإسلام والدراسات الإسلامية، والأدب العربي، والطب، والعلوم، فإنها تقدم منحاً دراسية سنوياً لعدد من طلاب الدراسات العليا في العالم الإسلامي في العلوم التطبيقية، ويتم إلحاق هؤلاء الطلاب بأكبر جامعات الغرب، ولا شك أن هناك مؤسسات أكاديمية كثيرة تضطلع بهذا الدور إلى جانب جامعاتنا العربية، وتبقى المسألة في كيفية الاستفادة من الخبرات العربية وإتاحة المجال لها للإبداع في شتى الميادين من أجل استشراف المستقبل بخطا أكثر رسوخاً.**

## حرة أم جرة

يسرني أن أراسل القائمين على هذا الصرح الثقافي الرائع والمتميز. وتسعدني متابعة مسابقة «الفيصل» لعلي أنال إحدى جوائزها القيمة.

وهنا أشير إلى أنه لفت انتباهي في مسابقة العدد (٣٠٦) التي ورد فيها بيت الشعر:

**ولكنَّ نفساً مُرةً لا تقيم بي      على الذل إلا ريثما أتحول**

وقد بحثت عنه في لامية العرب للشنفري الأزدي وتحديداً في باب شكوى الزمان والحال، فوجدت حسب كتاب جواهر الأدب للسيد أحمد الهاشمي أن الشاعر يصف النفس بالحرة لا بالمرة، كما جاء في المجلة، وفي الشطر الثاني نجد كلمة الضيم بدلاً من الذل. فأيهما أصح، علماً بأن الوزن في الحالتين لا يتغير.

**يحيى زيوش**

**شارع عوشناف - بوسعادة - الجزائر.**

**التحرير:**

**البيت حسب ما هو موجود في المسابقة مأخوذ من كتاب «تاريخ الأدب العربي» للدكتور عمر فروخ، وهذا الاختلاف في إيراد البيت في المرجعين شيء لا يدعو إلى العجب، لأن رواية الأبيات الجاهلية فيها كثير من الخلاف في المصادر.**

## ردود سريعة

**الأخت منوبة قابوش - عنابة - الجزائر:**

نرحب بمشاركاتك، وسوف تجد منا كل اهتمام، وثقي بأنها سوف تأخذ طريقها إلى النشر إذا كانت مستوفية لشروط النشر، ولا شك أن الحوار بين المفكرين والمثقفين من خلال الصحف والدوريات من وسائل تعميق العلاقة وتقويتها بين الأشقاء.

**الأخ محمد العجمي الإمام - ولاية سوسة - تونس:**

يتعذر علينا نشر عناوين المراكز العربية والإسلامية لكثرتها، وانتشارها الواسع على مستوى الوطن العربي، بل على مستوى العالم كله، ومن هذه المؤسسات الثقافية مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية وهو يهتم بالتراث العربي الإسلامي، وعنوانه تجده في هذا الباب في الرد على إحدى رسائل الإخوة القراء.

**الأخت أمل حامد سالم - عمان - الأردن:**

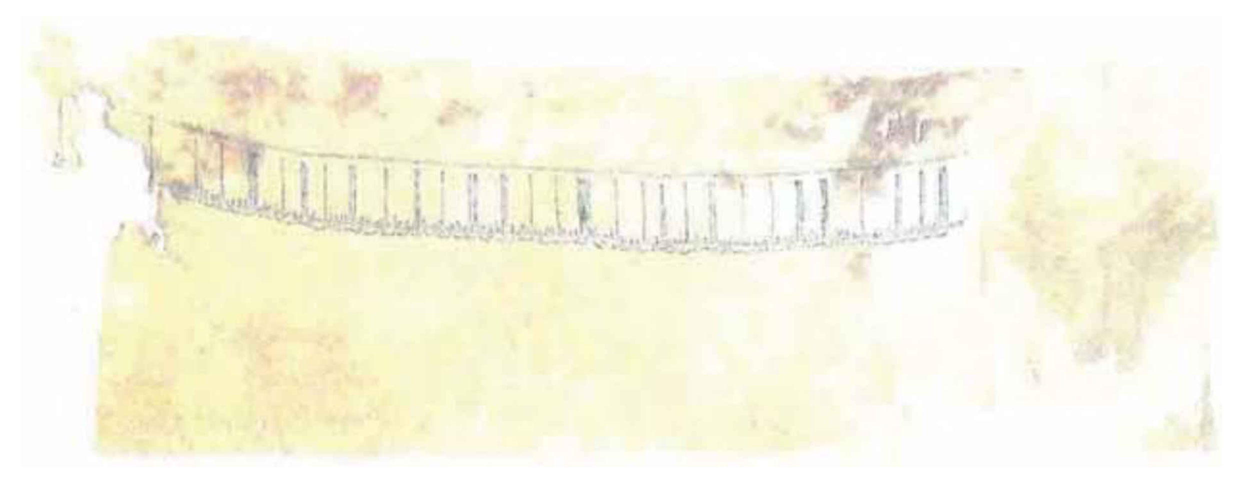
كان بودنا لو نستطيع خدمتك وتلبية طلبك، ولكن يتعذر علينا ذلك، لأنه خارج اهتمامات المجلة، ونشكر لك حسن الظن، ونتمنى لك التوفيق.

**الأخ محمد جلال محمد عبدالله - تبوك - السعودية:**

تهتم المجلة بإبداعات الأدباء والشباب، وتحرص على نشر الأعمال الإبداعية التي تصل إليها متى ما كانت مستوفية لشروط النظر من دون النظر إلى أسماء كتابها، لذا نجد في كل عدد من أعدادها كتّاباً جدداً يكتبون أول مرة في المجلة، ولا شك أن هناك كثيراً من الشباب الذي يأمل في طرح أفكاره من خلال البحث والمقالة أو الإبداع القصصي والشعري.

# تاريخ المنسوجات الإسلامية

**محمد عبدالله العلياني**
الرياض - السعودية



طراز من الكتان عليه تطريز بالحرير - مصر مؤرخ سنة ٣٠٢هـ (مجموعة الصباح - الكويت)

لا غرابة في أن إنتاج الأقمشة الجميلة كان من أهم مميزات الفنون الإسلامية، فإن مصر وإيران، وهما الإقليمان اللذان قام على أكتافهما الفن في العالم الإسلامي، كانت لهما منذ قديم الزمان شهرة واسعة في إنتاج المنسوجات فضلاً عن أن الأقاليم البيزنطية في الشام وآسيا الصغرى كانت تضم قبل الإسلام مراكز مهمة لنسج الأقمشة الحريرية الممتازة وزخرفتها بالرسوم الجميلة. أما مصر فقد كانت صناعة النسيج زاهرة فيها منذ عصر الفراعنة، ثم سارت في سبيل التقدم حتى جاء العصر القبطي، فتأثرت في زخارف المنسوجات بتيارين من الأساليب الفنية البيزنطية والساسانية. ثم فتح العرب مصر، واعتمدوا في أول الأمر على الصناع والفنانين الوطنيين، وظهر في صناعة النسيج الإسلامية في مصر تطور منتظم، بدأ بالاستغناء شيئاً فشيئاً عن الرسوم الآدمية التي كانت منتشرة جداً في زخارف المنسوجات في مصر القبطية.

وأخذت الكتابة والزخرفة النباتية والهندسية ورسوم الطيور والحيوانات تسود في زخرفة الأقمشة الإسلامية في مصر. وكذلك ذاعت شهرة المنسوجات الإيرانية منذ عصر هيرودوت وكان أهل روما يدفعون الأثمان الباهظة للحصول عليها، وعلى المنسوجات المصرية. ثم أقبل أهل بيزنطة على تقليدها وبلغت صناعة النسيج أوج عزها في العصر الساساني.

## ازدهار صناعة النسيج في العالم الإسلامي

ولما انتشر الإسلام، وانقضى دور الزهد والتقشف الذي ساد العالم الإسلامي في بداية تاريخه بسبب كراهية الترف والملابس الحريرية، لقيت صناعة النسيج تشجيعًا خاصًا في الأقاليم الإسلامية المختلفة، وخصوصاً بعد أن انتشرت عادة الخلفاء والأمراء في مكافأة رجال الدولة بالخلع الثمينة والملابس الفاخرة.

سجادة صلاة منسوجة من الصوف والقطن والحرير - تركيا، بورصة القرن ١٦م (مجموعة الصباح - الكويت)

والواقع أن المسلمين أنشؤوا عدداً كبيراً من المصانع الجديدة للنسج في الأقاليم التي ضموها إلى إمبراطوريتهم، حتى أصبحوا زعماء تجارة الحرير في العالم خلال العصور الوسطى، كما تدل على ذلك أسماء بعض أنواع الأقمشة التي لا تزال باقية إلى الآن، والتي كان بعضها يستعمل في العصور الوسطى؛ فالمنسوجات التي كانت تسمى باللغات الأوربية Damasks قد اشتق من «دمشق» التي كانت مركز التجارة الإسلامية، والتي كان الغربيون ينسبون إليها كثيراً من البضائع التي كانت فيها أو تستورد منها، وكانت في الحقيقة تصنع في أقاليم العالم الإسلامي.

وقد عرف العالم الإسلامي في العصور الوسطى نظاماً خاصًا في مصانع النسيج، فقد كانت هذه المصانع

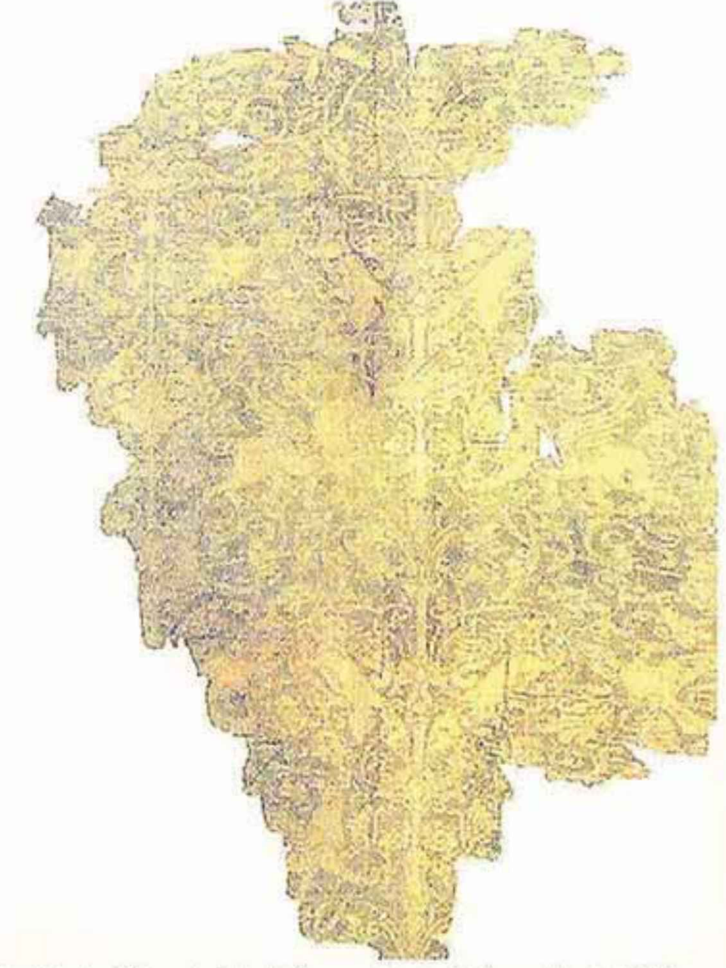
حكومية بحتة، أو تحت رقابة حكومية شديدة. وقد وصلتنا قطع من المنسوجات المصنوعة في المناسج الحكومية أو «الطراز» كما كانوا يسمونها. وكان هناك نوعان من مصانع النسيج أو الطراز: الأول «طراز الخالص»، وكان لا يشغل إلا للخليفة ورجال بلاطه وحاشيته، والثاني «طراز العامة»، وكان أيضا تحت رقابة الحكومة؛ ولكنه كان يشغل لأفراد الشعب فضلاً عن بلاط الخليفة إذا دعت الحال. ولفظ «طراز» مشتق من الكلمة الفارسية «ترازيدن» بمعنى التطريز والنسج. ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير أو السلطان أو الحاشية، ولا سيما إذا كان فيها شيء من التطريز، وعليها أشرطة من الكتابة فيها اسم الخليفة الذي نسجت في عهده فضلاً عن التاريخ وبعض العبارات الدعائية، وغير ذلك مما سيأتي الحديث عنه. ثم اتسع معنى «الطراز» في اللغتين العربية والفارسية حتى صار يطلق على المكان والمصنع الذي تنسج فيه مثل تلك الأقمشة. فضلاً عن أن لفظ «طراز» يستعمل في اللغة العربية بمعنى «نمط»، للدلالة على الأسلوب الفني فيقال مثلاً «الطراز الإغريقي» و«الطراز المملوكي»، ونحو ذلك. والراجح أن احتكار الحكومات لصناعة النسيج لم يبدأ في الإسلام فقد كان معروفًا إلى حد ما في مصر الفرعونية، وفي إيران، وفي بابل، وآشور، وبيزنطة. وعلى كل حال فإنه انتشر في معظم الأقطار الإسلامية.

وقد قمت بتقسيم تاريخ المنسوجات الإسلامية منذ بداياته حتى القرن التاسع عشر الميلادي مروراً بجميع مراحله وأطواره وأماكن ازدهار صناعته في العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه.

وكلي أمل في أن أكون وفقت في تغطية تلك الحقبة الزاهرة من تاريخنا المجيد في صناعة المنسوجات التي ذاعت شهرتها وبلغت الخافقين.

## النسيج المصري زمن العباسيين والطولونيين (القرن الثامن إلى العاشر الميلادي - القرن ٢ - ٤ الهجري)

كانت المنسوجات في أوائل العصر الإسلامي تصنع وفق الأساليب التي اتبعها الأقباط والساسانيون في تلك الصناعة، غير أن أسلوباً إسلامياً صحيحاً أخذ ينمو تدريجياً ويتطور ويسود جميع البلاد التي خضعت لحكم العرب. كان الأقباط في مصر صنّاعًا مهرة، استخدمهم العرب بكثرة في بناء المساجد والقصور وفي العمل بمصانع النسيج الجديدة التي أنشأها العرب وهي المسماة بدور الطراز. وأطلقت لفظة «طراز» على ذلك الشريط المشتمل على كتابة منسوجة أو مطرزة، كما أطلقت



قطعة قماش من الحرير ذات نسيج مركب - سورية - القرن ١٣م (مجموعة الصباح - الكويت)



نسيج عثماني (صرما) من الحرير المزين بخيوط الذهب بتوريقات نباتية نافرة - تركيا ١٨٤٠م

على الأقمشة المزخرفة بهذه الطريقة، وكذلك على المصانع التي تنتج هذه الأقمشة.

وكان لإنشاء دور الطراز في جميع الولايات الإسلامية أهمية كبرى عند حكام العصرين الأموي والعباسي. ونسجت بتلك المصانع التي كان بعضها مقاماً في قصور الخلفاء أنفسهم ثياب فاخرة محلاة بأشرطة «الطراز» وجرت عادة الخلفاء على خلع هذه الثياب على كبار أصحاب الوظائف مرة على الأقل كل سنة وعُدّت هذه الخلع بمنزلة الأوسمة والنياشين في العصور الحديثة. وكان ينقش اسم الخليفة في شريط «الطراز» تسجيلاً لحكمه وسلطانه. جرى العمل في دور الطراز على تزيين الأقمشة المنسوجة من الكتان بزخارف من الحرير. ومن أقدم المنسوجات التي وصلت إلينا من إنتاج دور الطراز، قطعة بمتحف الدولة ببرلين، سجل عليها


قطعة نسيج برسومات مطبوعة ـ الهند منتصف القرن ١٩

حيوانات وطيور محورة، كما تزينها تعبيرات زهرية نسجت باللون الأبيض والأصفر والأخضر والأحمر على أرضية حمراء. وتوجد قطعة أخرى من المنسوجات الحريرية محفوظة بمتحف فكتوريا وألبرت بلندن، عليها كتابات كوفية وأشكال حيوانات بطريقة زخرفية. ومن بين أقدم المنسوجات المؤرخة، قطعة كبيرة من نسيج الكتان عليها اسم الخليفة الفاطمي «الظاهر»، ويزينها شريطان على كل منها صف من الجامات الحمراء المتبادلة مع جامات أخرى سوداء، وبداخل الجامات رسم طيور وعقبان ويحيط أحد الشريطين السابقين شريطان من الكتابة الحمراء والتفريعات النباتية الزرقاء.

## المنسوجات العباسية والفاطمية ذات الزخارف المرسومة والمطبوعة

من الأساليب الصناعية الطريفة، نوع من نسيج الكتان مزين بالكتابات والزخارف المرسومة أو المطبوعة. ونرى في عدد من القطع التي ترجع إلى العصر العباسي إطاراً مربعاً يضم كتابات وزخارف نباتية تذكرنا بكتابات السور وعناوينها في مصاحف القرن التاسع الميلادي/الثالث الهجري. ويرجح أن تكون مثل تلك الكتابات المرسومة باللون المذهب أحياناً، من العلامات التي تميز إنتاج مصانع النسيج المصري، وهناك قطع أخرى مهمة من نسيج القطن مصبوغة بالطريقة الصينية، وهناك قطعة نادرة من نوع رفيع غير عادي من نسيج الكتان في القرن العاشر الميلادي /الرابع الهجري. تغطيها رسوم أسود مطبوعة باللونين البني والذهبي داخل مربعات محددة، وفي المساحات المختلفة بين تلك المربعات. واستخدم الفنان في طبع هذه القطعة ستة أختام مختلفة: أربعة منها لطبع اللون الأسود، وواحد لطبع أرضية المربعات ذات اللون

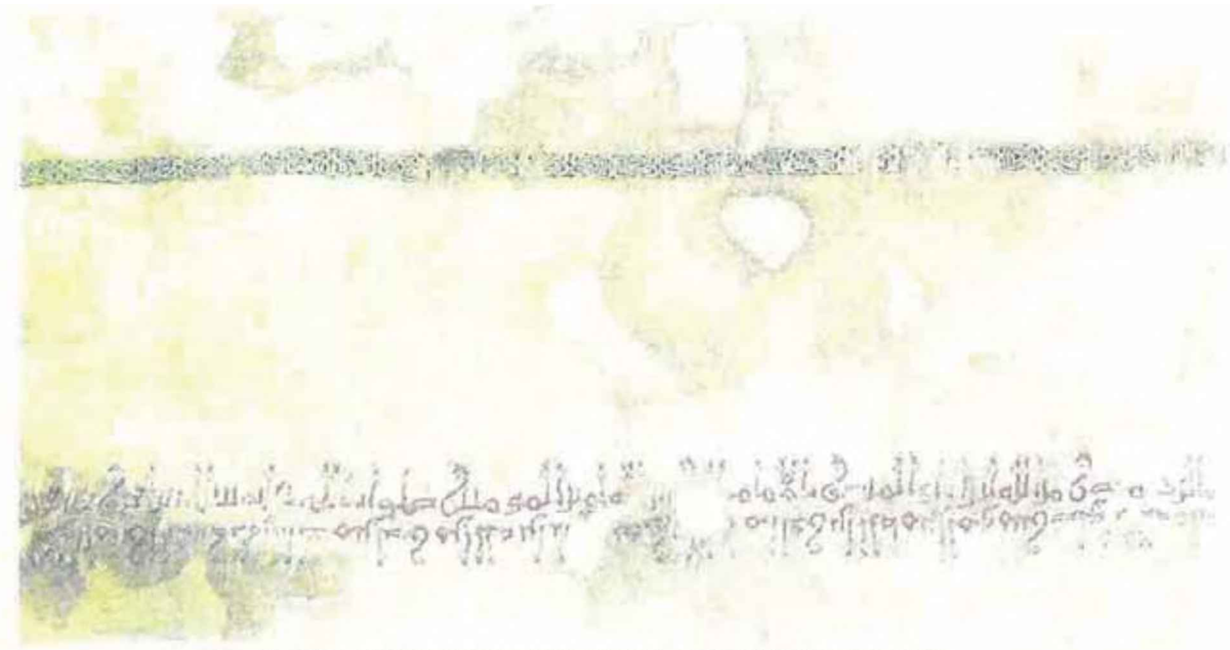
اسم الخليفة هارون الرشيد، واسم النسّاج مروان بن مرعي، ونسج ما عليها من الكتابات الكوفية والأشكال الهندسية بخيوط من الحرير المتعدد الألوان، وفي متحف الفن الإسلامي بالقاهرة قطعة تشبه السابقة عليها اسم الخليفة الأمين بن هارون الرشيد وهي من صناعة مصر. ومع أن معظم الأقمشة ذات الرسوم الآدمية والحيوانية ـ القبطية الأسلوب ـ مصنوع من الصوف، إلا أنه توجد قطع كثيرة منسوجة من الحرير.

وبمتحف المترو بوليتان قطعة تزينها جامات بها

البني، وواحد لعمل الحبيبات أو الوريدات التي تتكون منها المربعات، واستخدمت هذه الأقمشة الجميلة المطبوعة عوضاً عن أنواع الأقمشة الأخرى الغالية ذات الزخارف المنسوجة أو المطرزة بخيوط الذهب.

## المنسوجات الأيوبية والمملوكية (أواخر القرن الثاني عشر - الرابع عشر الميلادي / السادس - الثامن الهجري)

ورث العصر الأيوبي والمملوكي عن العصر الفاطمي أساليب صناعة الأقمشة ذات الزخارف المنسوجة، ولكنها أقل شيوعاً فيهما من العصر السابق. وأقمشة شجيرات صغيرة. وتمتاز الزخارف المطرزة من العصر المملوكي بخطوطها المتكسرة المتعرجة بسبب الأسلوب الصناعي المتبع في صناعتها وهو أشبه بغرز متتابعة متدرجة كالسلم يطلق عليها أحيانًا اسم غرزة هلباين، وغالباً ما تتبع الغرزة اتجاه خيط اللحمة فتبدو الزخرفة كالمنسوجة، وظلت الأقمشة المطبوعة تستخدم في العصر المملوكي، وكانت رسومها السائدة في القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين، هي الأشكال المسننة والوريدات والتفريعات المزهرة ذات اللون الأزرق أو الأحمر أو البني.



طراز من الكتان عليه تطريز بالحرير - مصر القرن العاشر الميلادي (مزاد تاجان - باريس)

العصر الأيوبي والمملوكي المطرزة، أكثر بساطة إذا ما وزنت بأقمشة العصر الفاطمي المطرزة بخيوط الذهب والحرير المختلفة الألوان، وهناك مجموعة مطرزة بألوان متعددة ومصنوعة بغرزة متتابعة أو «غرزة السلسلة» وعليها كتابات نسخية وكوفية، ويمكن إرجاع هذه المجموعة إلى القرن الثاني عشر الميلادي. وهناك مجموعة أخرى ترجع إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين مطرزة بالحرير المتعدد الألوان وعليها رسوم أزواج من الحيوانات والطيور تفصل بينها

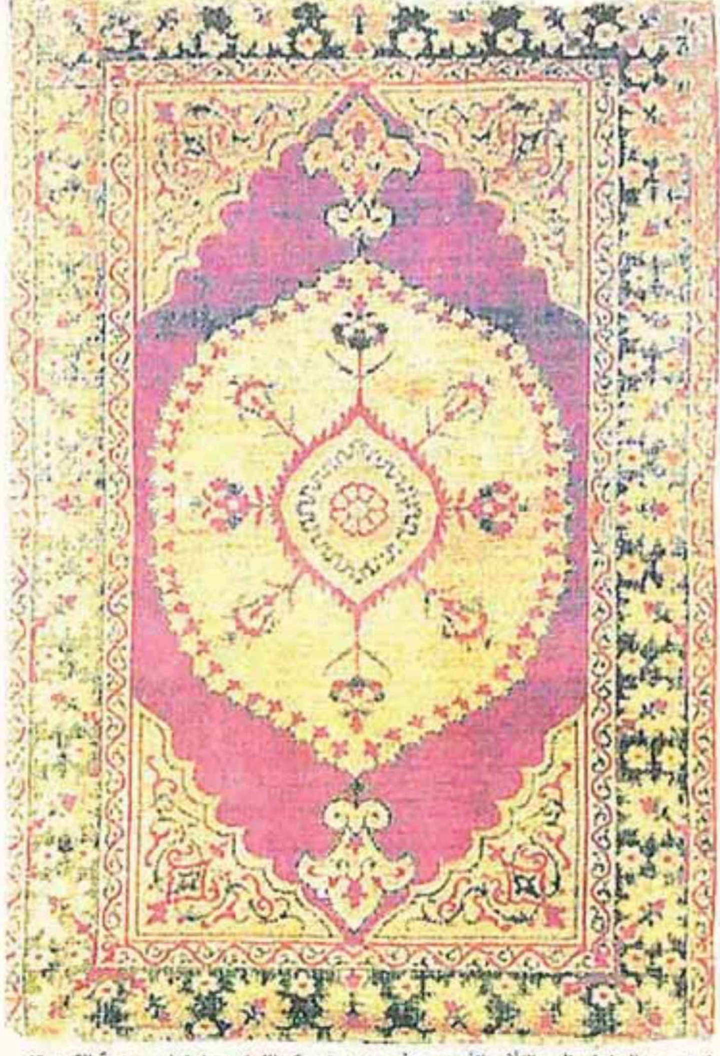
## المنسوجات الحريرية في مصر والشام

نذكر هنا أن زخارف المنسوجات الحريرية كانت تصنع بواسطة المكوك على نول السحب، ويختلف ذلك عن الأقمشة ذات الزخارف المطرزة التي كانت تضاف خيوط اللحمة فيها مع النسيج بواسطة البكرة أو الإبرة. وذكرنا أن الأقمشة في العصر الإسلامي الأول، سواء أكانت من الحرير أم من الصوف استمرت تتبع أسلوب المنسوجات الساسانية، وقد وصلنا الكثير من هذه الأقمشة، ويملك متحف بروكسل قطعة من نسيج الحرير

يرجح أن تكون من العصر الفاطمي، وتزينها صفوف من الطيور المتقابلة، تفصل بينها أشكال من المراوح النخلية، وعلى أجنحتها كتابات عربية تتضمن عبارات دعائية. وعثر على كثير من قطع الحرير الموشى يحمل أسماء حكام مصر وسورية من سلاطين المماليك وألقابهم. وسارت صناعة نسيج الحرير في إيران في بداية العصر الإسلامي وفق الأساليب الساسانية القديمة. ويمكننا أن ننسبها إلى المدة التي تقع بين القرنين السابع والتاسع الميلاديين. ومن مجموعات المنسوجات الحريرية بإيران في أوائل العصر الإسلامي مجموعة تمتاز بتكسر الخطوط التي رسمت بها طيورها وحيواناتها. وتدلنا المراجع على قيام صناعة النسج بسمرقند.

### منسوجات العصر السلجوقي في إيران والعراق وآسيا الصغرى (القرن الحادي عشر - الثالث عشر الميلادي / القرن الخامس - السابع الهجري)

تأثر صناعة النسيج تأثيراً كبيراً في إيران حين غزا الأتراك السلاجقة تلك البلاد عام ١٠٣٧م، ويدلنا كثير من القطع الحريرية المعروفة منذ زمن ضمن المجموعات الفنية المختلفة، كما يدلنا بعض ما كشف عنه حديثاً في إيران، وخاصة في مدينة الري، أحد مراكز صناعة النسيج المهمة هناك، على مقدار الانتعاش الذي أصاب الفنون والصناعات زمن سلاطين آل سلجوق وخلفائهم الذين حكموا إيران والعراق وسورية وآسيا الصغرى. وعلى الرغم من أن تأثير الأسلوب الساساني في رسوم المنسوجات ظل واضح المعالم في أوائل العصر السلجوقي إلا أن هذا التأثير أخذ يتضاءل تدريجياً ويحل محله أسلوب امتزجت فيه التعبيرات النباتية الإسلامية الأصل، مع تفريعات السيقان والمراوح النخلية. ويمكن تقسيم المنسوجات السلجوقية عدة مجموعات: فمنها ما يرجع إلى بداية القرن الحادي عشر الميلادي، وهذه وثيقة الصلة بأسلوب المنسوجات الإيرانية في المدة بين القرنين الثامن والعاشر



نسيج من المخمل يظهر التأثير الأوروبي في وجود زهرة «اللوتس» تركيا - بورصة القرن ١٦م (مجموعة خاص - الرياض).

الميلاديين. ومع أن رسوم الأشكال حتى في عصر الازدهار السلجوقي كانت ذات خطوط متعرجة أو متكسرة، إلا أنها تطورت وأصبحت ذات أسلوب سلجوقي خالص، وهو الأسلوب الذي امتاز بجمال الأشكال ورشاقتها وانسياب خطوطها. تذكر لنا المراجع التاريخية أن صناعة نسج الحرير قامت في بغداد في وقت مبكر، وأن الخلفاء العباسيين نقلوا إليها عدداً من صناع النسيج من مدينة «تستر» ويعرف المختصون ما يقرب من عشر قطع ترجع إلى النصف الأول من القرن العاشر الميلادي، مما كان يصنع ببغداد والموصل من نسيج الحرير الموشى بالذهب.

### المنسوجات الإيرانية زمن المغول والتيموريين (القرن الرابع عشر - الخامس عشر الميلادي / القرن الثامن - التاسع الهجري)

لا يوجد سوى القليل من قطع النسيج الإيراني التي يمكن نسبتها، في شيء من التأكد والجزم، إلى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر الميلادي. والذي يقال هو أن زخارف منسوجات تلك المدة ذات صفات صينية ظاهرة، إذ اشتدت الحاجة إلى المنسوجات الصينية بإيران زمن حكم المغول لها، مما دفع النساجين الوطنيين إلى محاكاة التعبيرات الصينية. ونرى في تصوير العصرين المغولي والتيموري أنواعًا من الأقمشة الصينية الأسلوب، عليها رسوم التنين والعنقاء.

### منسوجات إيران في العصر الصفوي (القرن السادس عشر - الثامن عشر الميلادي / العاشر - الثاني عشر الهجري)

كان العصر الصفوي، العصر الذهبي لصناعة النسيج الإيراني، ويمكن تقسيم المنسوجات الحريرية الصفوية ثلاث مجموعات: منسوجات حريرية سادة، ومنسوجات حريرية موشاة، ومنسوجات حريرية مخملية. واستخدمت هذه الأنواع في ملابس الأمراء والنبلاء، أو في عمل الستائر والأغطية، أو إهداء من السلاطين لمن يريدون تكريمه، واشتملت زخارفها على الموضوعات الآدمية ورسوم الحيوانات والطيور والأزهار المختلفة، وأخذت أكثر المناظر والموضوعات من الملاحم الإيرانية، مثل الشاهنامة، ومن الأشعار العاطفية، كأشعار نظامي، كما زين بعضها الآخر بمناظر تمثل الأمراء الإيرانيين وهم يصيدون أو يمرحون في الحدائق. ومن أقمشة العصر الصفوي في القرن السادس عشر ما تزينه أشكال الأزهار فحسب، سواء أكانت طبيعية أم



قطعة نسيج من الحرير - الهند - نهاية القرن ١٩

محورة عن الطبيعة. وإذا نظرنا إلى رسوم الأشخاص في المخطوطات المعاصرة رأينا أن ملابسهم من ذلك النوع من الحرير الموشى المحلى بزخارف من الأزهار. وفي بداية القرن السابع عشر مال الفنانون إلى استخدام تعبيرات جديدة من أشكال الأزهار بأسلوب طبيعي.

### الأقمشة الإيرانية المطرزة والمنسوجات القطنية المطبوعة (القرن السابع عشر - التاسع عشر الميلادي)

يضم متحف المتروبوليتان مجموعة كبيرة من

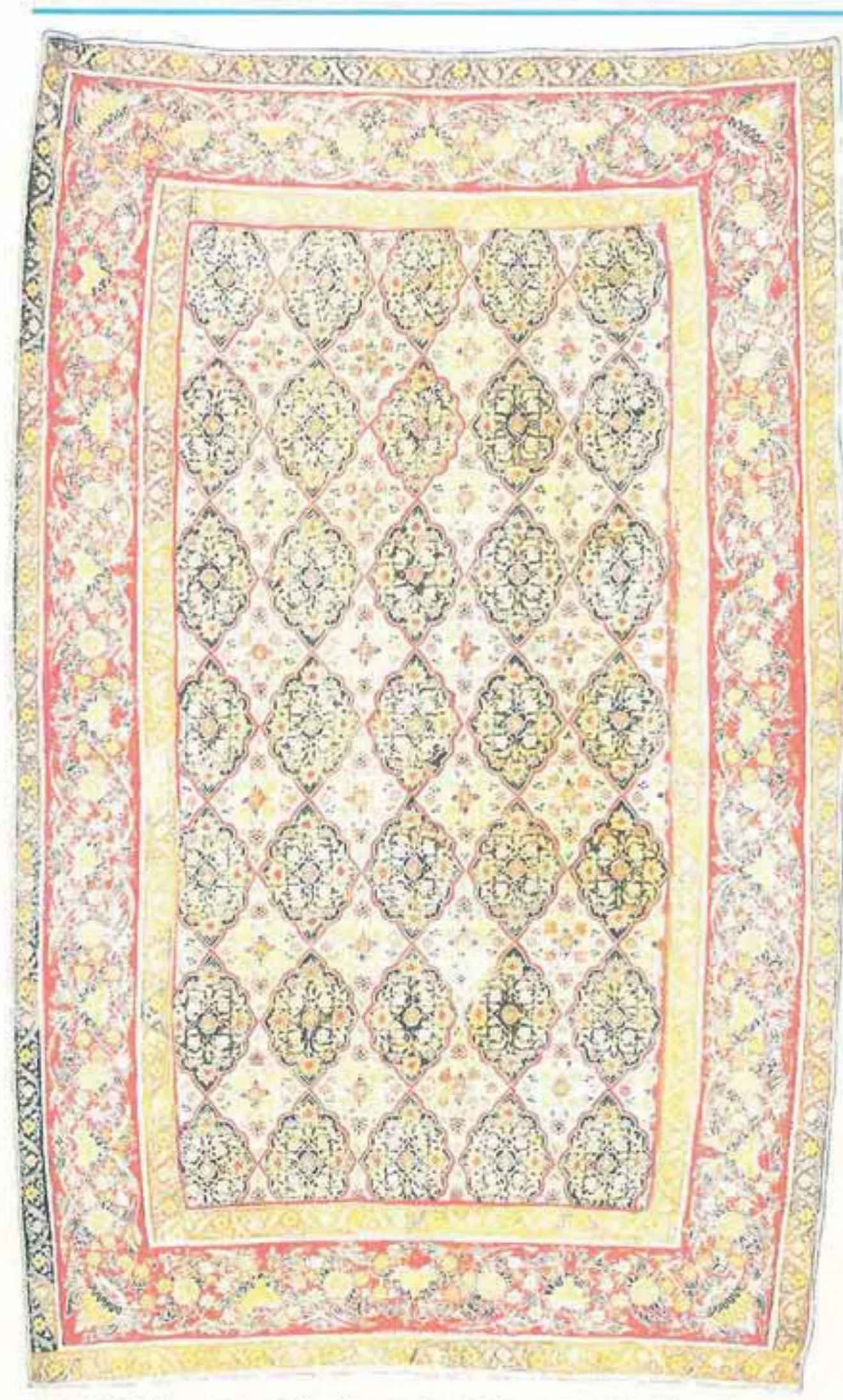
المنسوجات الإيرانية المطرزة من القرون: السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر، ونرى فيها تنوعاً كبيراً في أشكال الغرز.

ومما يرجع إلى القرن السابع عشر قطعة مطرزة بمواصفات آدمية وحيوانية وأشكال مختلفة من الزهور بألوان بهيجة متعددة على أرضية سوداء، وهي تشبه في تطريزها المزدحم بأشكال الأزهار، النوع المستخدم في صنع ملابس السيدات والمسمى بالنقش. وتشمل مجموعة المتحف أمثلة متعددة من السطور القطنية المطبوعة المسماة «قلم كار» وهذه صنعت في أصفهان وهمدان ويزد، ويرجع أكثرها إلى القرن التاسع عشر الميلادي.

### المنسوجات والمطرزات التركية
### (القرن السادس عشر - التاسع عشر الميلادي)

أكثر ما وصل إلينا من المنسوجات التركية العثمانية هو من الوشي والمخمل، ويرجع بعضه إلى أواخر القرن الخامس عشر ويبدو ذلك واضحاً إذا ما وازنا هذه القطع برسوم أزياء الأشخاص في المصورات الإيطالية المعاصرة. وكانت «بروسة»، هي العاصمة الأولى للأتراك لصناعة النسيج في تركيا، على أن هذا لم يمنع قيام تلك الصناعة بجهات أخرى من آسيا الصغرى مثل إسكدار وهركة اللتين اشتهرتا بمنسوجاتهما الرفيعة. ولا تختلف رسوم الوشي والمخمل التركي عن مثيلاتها من المنسوجات الإيرانية، إلا في اقتصار الزخرفة على المنسوجات التركية على أشكال الأزهار. وتجنب النساجون رسوم الكائنات الحية استجابة إلى الأحاديث النبوية الشريفة الخاصة بتحريمها. وعلى الرغم من تأثر الفن التركي بالفنين الإيراني والإيطالي، إلا أنه أوجد لنفسه أسلوباً خاصاً به يتجلى بوضوح فيما وصل إلينا من الأواني الخزفية التي صنعت بمدينة إزنيق. واستعار الفنانون الأتراك من الإيرانيين التفريعات المزهرة وأشكال المراوح النخلية، كما استعاروا من الإيطاليين ثمر الرمان والتعبيرات الزخرفية الأخرى التي نراها في الأقمشة المخملية مما صنع بالبندقية في القرن الخامس عشر، وإن الإنسان ليكاد يحكم من أول وهلة على المخمل المصنوع في بروسة أنه إيطالي غير أنه من السهل التفريق بينهما من وضوح أشكال العناصر الزخرفية التركية، ومن كونها أقلّ إتقاناً من حيث أسلوب صناعتها عن الإيطالية. صنعت تركيا الأقمشة المطرزة في قسميها الآسيوي والأوربي. وتذكرنا مطرزات آسيا الصغرى بما أنتجته بروسة من الأقمشة المخملية والموشاة، من حيث كثرة استخدام أشكال الأزهار في موضوعاتها الزخرفية، سواء رسمت محاكية للطبيعة أم محورة عنها. وتشمل المطرزات التركية المعروفة في مناديل وعصائب، مما يقتصر في استخدامه على الحفلات، وأكثرها مؤرخ من القرن التاسع عشر، إلا أن منها ما يرجع إلى القرن الثامن عشر، واستخدمت في تطريز هذا النوع غرزة الرفى المزدوجة بخيوط الحرير وخيوط الفضة، وشاع استخدام الأزهار في زخرفتها، ولا سيما الورد، كما استخدمت أحياناً رسوم المساجد وأشجار السرو.

مدخل بوابة مسجد عثماني من الحرير المزين بخيوط الذهب والفضة. تركيا القرن ١٩م (مجموعة خاصة. الرياض)



نسيج جداري من طراز «رشتي دوزي» زمن السلطان «فتح علي شاه» إيران القرن ١٨م(مجموعة خاصة - الرياض)

## منسوجات إسبانية وصقلية في العصر الإسلامي

نتج من فتح العرب لإسبانيا عام ٧١١م دخول فنون وصناعات الشرق الأدنى إلى البلاد الأوربية، وقد ورد ذكر المنسوجات الإسبانية ضمن مقتنيات البابوات منذ القرن التاسع الميلادي. وذكر المؤرخ العربي الإدريسي أنه كان بالمرية بالأندلس ثمانمئة مصنع لنسج الأقمشة الحريرية الفاخرة، كذلك قامت تلك الصناعة في مرسية وإشبيلية وغرناطة ومالقة ويوجد في الأكاديمية التاريخية الملكية بمدريد، قطعة يزينها شريط من الزخرفة باللون الأزرق الفاتح الأدكن والأحمر ومثمنات تضم داخلها طيوراً وحيوانات، وأشكالاً آدمية مرسومة بطريقة هندسية محورة، وعلى الفضة كتابة باللغة العربية تتضمن اسم خليفة قرطبة هشام الثاني وتشبه زخارفها - التي لا مجال للشك في أنها من أصل مصري إسلامي - بعض العناصر الزخرفية التي تزين العلب العاجية في الأسلوب الإسباني المغربي. ومن مجموعة النسيج الأندلسي المهمة مجموعة ترجع إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وتمتاز بجمود رسوم الأشخاص والطيور والحيوانات.

من المعروف أن صقلية أنتجت المنسوجات الحريرية إبان حكم العرب لها في القرنين العاشر والحادي عشر، غير أنه لا توجد لدينا أمثلة يمكن نسبتها إلى مصانع تلك الجزيرة وقتئذ. لما آلت صقلية إلى النورمان لم يحدث هنالك أي تغيير، إذ استمر الصناع يتبعون أساليب العرب أنفسهم حتى تطورت صناعة النسيج على أيديهم تطوراً عظيماً. وقد قلد ملوك النورمان المسلمين فأنشؤوا في القرن الثاني عشر في «بلرمو» مصانع للنسيج تشبه دور الطراز، وأنتجت هذه المصانع الأقمشة الحريرية الفاخرة، المنسوجة والمطرزة.

## المنسوجات الهندية

نستطيع أن نتبع بداية فنون النسيج في الهند في الأصول القديمة لتلك الصناعة، إذ كانت المنسوجات القطنية الدقيقة من بين الصناعات التي مارسها الهنود القدماء، وما زالت تلك الصناعة منتعشة ببلادهم حتى اليوم. وكانت صناعة النسيج في عصر الأسرة المغولية الهندية تحت إشراف البلاط التام، ونرى فيها مزيجًا من التعبيرات الزخرفية الإيرانية والهندية. فقد أخذت الهند عن إيران الكثير من أساليب صناعة النسيج، ولكن الهنود فاقوا أساتذتهم في هذا المضمار مثلما بزّوهم في صناعة عقد الأبسطة والأقمشة المخملية التي ترجع إلى الأسرة المغولية النادرة جدًا، وتتكون زخارفها من أشكال طبيعية من الأزهار أو النباتات، وهذه تشبه مثيلاتها في الأبسطة المعاصرة وتطورت صناعة الأقمشة الحريرية الموشاة في الهند تطورًا عظيمًا في عصر المغول، واشتهرت بلاد كثيرة بإنتاجها مثل لاهور، وأورد انجباد في الدكن، وبنارس، وأحمد آباد، ويمتاز الوشي الهندي بغزارة الزخرفة وتنوع ألوانها وكثرتها والإسراف في استخدام الذهب سواء في ملابس الرجال أو النساء، وليس لنا سوى أن نضع أحزمتهم وأوشحتهم (الساري والشاش) بين أرقى المنسوجات العالمية. أما التطريز فكان فنًا شائعًا في الهند، وقد زاوله الهنود على المنسوجات القطنية المستخدمة في العمائم والأردية والحشيات.

ومن المنسوجات الهندية الجيدة المشهورة، الشيلان الكشميرية، وهذه يرجع تاريخها عادة إلى القرن الثامن عشر، وبعض الشيلان ذو زخارف منسوجة، وبعضها الآخر مطرز، وتمتاز زخارفها المزدحمة بأشكال الأزهار وكيزان الصنوبر المأخوذة عن الفن الإيراني، وزينت المنسوجات الهندية بطريقتين قديمتين جدًا: إحداهما الطبع بالأختام الكبيرة، والثانية الصباغة الثابتة، وبلغت هاتان الطريقتان زمن حكم المغول درجة عالية من حيث الإتقان وجمال الزخرفة، واستخدمت الطباعة والصباغة كما استخدمت الزخارف المرسومة. واستخدم الهنود الطبع والرسم في زخرفة ملابسهم القطنية.



ثوب عروس عثماني من القطيفة مطرز بخيوط من الذهب - تركيا نهاية القرن ١٩م (مجموعة خاصة - الرياض)

وهناك قطعة نفيسة من نسيج القطن بمتحف المتروبوليتان هي عباءة رسمية تزينها وحدات زخرفية متكررة من براعم الأزهار باللونين الوردي والذهبي.

ومن هذه التغطية التاريخية الموجزة التي امتدت من القرن الرابع - حتى القرن الثالث عشر الهجري مرورًا بأماكن ازدهار فن المنسوجات وتاريخها في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه مرورًا بتلك البلاد التي خضعت لحكم المسلمين وأخذت طابعًا مميزًا في إنتاجها، فإنه مما يؤسف له أن نفائس المنسوجات الإسلامية موجودة بالمتاحف العالمية بأوربا وأمريكا وأستراليا وغيرها من المتاحف غير العربية ما عدا موجودات بعض دور الآثار العربية والتي تشكل جزءًا يسيرًا من نفائس هذه المنسوجات.

ولا يسعنا في الختام إلا أن نكبر هذه الحضارة التي أغنت خزائن الدنيا بإنتاجها الغزير في شتى المجالات.

# العلاقة بين الفن والواقع

**محمد مصطفى المصري**
**كفر الشيخ - مصر**

**إن فهمنا لطبيعة الفن وحقيقته وغايته، لا يتيسر إلا بعد اتّخاذ موقف فلسفي جمالي واضح من الحياة. فالعمل الأدبي: (النص المسرحي - القصيدة - الرواية - القصة القصيرة)، والعمل الفني: (العرض المسرحي - الموسيقى - الفنون التشكيلية) يمثلان وجهة نظر الفنان الذي صهرته التجربة، وأنضجه التحصيل الثقافي والمعرفي، ليؤكد وجهة نظره في تفسيره للحياة(١)، والتاريخ الطويل للفن يبرز لنا في مجمله ألوانًا مختلفة من ألوان الصراع التي قدر للإنسان أن يخوضها، ويحاول التغلب عليها؛ فهو تارة في صراع مع الأرواح الشريرة، أو القوى الطبيعية، وأخرى مع الآلهة، وثالثة مع المجتمع، ورابعة مع نفسه.**

### وليد عصره

دائمًا تتردد هذه المقولة: «الفن وليد عصره»، وذلك لأن الفن في عمومه يمثل الإنسانية، ويتلاءم مع الأفكار السائدة في كل وضع تاريخي محدد، ومع طموحاته في هذا الوضع، وحاجاته وآماله. ولكن الحقيقة أن الفن يمضي إلى أبعد من هذا المدى، فهو يجعل من اللحظة التاريخية المحددة لحظة من لحظات الإنسانية، لحظة تفتح الأمل نحو



هوميروس

تطور متصل. ومهما كان الفن (وليد عصره) فهو يضم قسمات ثابتة من قسمات الإنسانية، فبقدر ما صور هوميروس (القرن ٩ ق.م)، وإسخيلوس (٥٢٥ - ٤٦٥ ق.م)، وسوفوكليس (٤٩٥ - ٤٠٦ ق.م) الحياة البسيطة لمجتمعهم اليوناني القديم، كشفوا لنا عن عظمة الإنسان، وسجلوا في شكل فني صراعه وأشواقه، وألمحوا إلى إمكاناته غير المحدودة فإن كتاباتهم تبقى حية، بل

معاصرة(٢). كذلك ما كتبه شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦م)من أعمال خالدة، وما رسمه دافنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩م)، وما تركه لنا: ت. س. إليوت (١٨٨٨ - ١٩٦٥م) من أشعار. فمادام هناك أناس وبشر يعمّرون وجه الأرض، فإنهم سيتأثرون دائماً بكل ما هو إنساني، سواء أكان في قصيدة شعر، أم في رواية، أم في مسرحية، أم في لوحة تشكيلية. فما الإنسانية إلا إنتاج لإضافة تفصيل صغير آخر(٣). ولقد قدمت الأبحاث في مجال سيسيولوجية الفن ما يؤكد إمكانية دراسة الارتباطات المتبادلة بين الأشكال الاجتماعية والأشكال الجمالية.

## ظاهرة اجتماعية

إن وجود الفن يرتبط دائماً بالظروف الاجتماعية، ويتطور وفقاً لقوانينها. ويؤكد التاريخ الاجتماعي للفن أن الناتج الفني لا ينشأ عن وعي فردي فقط، وإنما هو أيضاً تعبير عن نظرة يحددها المجتمع تجاه العالم، وقد تناول ابوليت تين Hippolyte Taine في مؤلفه «فلسفة الفن» العبقرية الفنية - ودعا في نظريته إلى مبدأ يمكننا الحكم على الفن، ويقوم على عملية الملاحظة والتفسير تماماً، كالذي يستخدم في مناهج العلم(٤).

وقد توصل تين إلى عوامل أساسية تحددها خصائص الأعمال الفنية وهي:

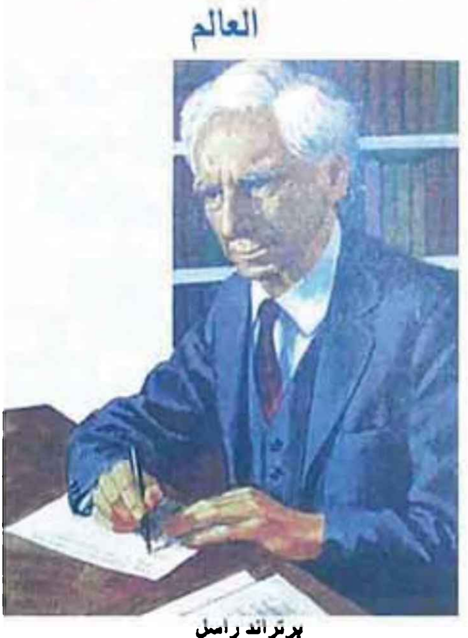
**السلالة**: وهي تمثل الاستعدادات الطبيعية الموروثة التي تؤثر في العادات وفي الفنون.

**البيئة**: وهي الحقيقة الجغرافية والاقتصادية والثقافية.

**العصر**: وهو الرابطة التاريخية والسياسية، ويعني أن ماضي الفن يؤثر في حاضره. وكان تين قد تناول العمل الفني من خلال الظروف التي ظهر فيها، ومن خلال تأثره وتأثيره في المجتمع، بنظمه وقيمه، ومالها من تأثير في تفكير الفن وكيانه، بل من خلال الانتماءات السياسية والاقتصادية والأخلاقية. فالفن - بشكل عام - يتأثر بكل ما في المجتمع من أفكار، وأخلاق، وبمستوى الثقافة، والذوق العام، والمعتقدات الدينية السائدة في عصره؛ مما يترك أثره في الفنان، ومن ثم في أعماله، هذا بالإضافة إلى العوامل التي تنتمي إلى الفن ذاته، مثل: الأساليب والأنماط الفنية بدلالاتها الخاصة من وجهة نظر الفنان(٥). ففي الفن شيء يعبر عن حقيقة ثابتة؛ وهذا ما يجعلنا نحن أبناء الألفية الثالثة نستجيب للرسوم المنقوشة على جدران الكهوف وقدماء المصريين في عصور ما قبل التاريخ، أو للمآسي التي انقضت عليها عشرات السنين ومئاتها.

**أهمية التجربة للفنان**: ولكي يكون الفنان فناناً بحق، يجب أن يملك التجربة ويتحكم فيها، ويحولها إلى ذكرى، ثم يحول هذه الذكرى إلى تعبير، وبمعنى آخر يكون قادراً على تحويل المادة إلى شكل. وليس الانفعال كل شيء بالنسبة إلى الفنان، بل لا بد له أن يعرف حرفته، ويجد متعة فيها، وكذلك ينبغي أن يفهم: القواعد والأشكال والخدع والأساليب التي يمكن بها ترويض الطبيعة المتمردة وإخضاعها لسلطان الفن. فالفنان الحق لا يقع فريسة للوحش، بل ينجح في ترويضه، وكما يقول أرنست فيشر: «إن الإنسان يتحكم في الأشياء، ويجعلها ملك يده، عن طريق تحويله إياها. والعمل هو عملية تحويل الأشياء الطبيعية. لكن الإنسان لا يعمل فحسب بل يحلم أيضاً. يحلم بالسيطرة على الطبيعة بوسائل خارقة، يحلم بأن يتمكن من تغيير الأشياء وتشكيلها في صور جديدة، وبوسائل سحرية، فالسحر

> الناتج الفني لا ينشأ عن وعي فردي فقط، وإنما هو أيضًا تعبير عن نظرة يحددها المجتمع تجاه العالم



برتراند راسل

في الخيال يقابل العمل في الواقع، والإنسان من أول عهده، ساحر»(٦).

**بدايات الحياة وبدايات الفن:** في سالف أيام طفولة الإنسان الأول خيّل إليه أن ما به، وما بقومه من طاقة حيوية للتحرك والعمل، إنما هي أرواح تتقمص كلاً منهم، كما تتقمص كل الأشياء التي تحيط بهم من جمادات ونباتات وظواهر طبيعية، فكان حدوث الرعد ببريقه الأحمر، والجلجلة الهادرة، وهطول الأمطار سيلاً جارفًا يكتسح كل شيء في طريقه، بعربدة الرياح، وزمجرة العواصف هو هجوم لهذه الأرواح من أعلى عليين. ولذلك تعاملوا معها على أنها مخلوقات عضوية تغضب وتثور عليهم؛ ولذلك كانت ظروف بيئتهم وحياتهم تدفعهم دفعًا قويًا إلى مهاجمة كل تلك القوى المعادية إن دفاعًا أو هجومًا، وبأسلحتها الفعالة نفسها، فكانوا يواجهون كل هذه المواقف الطبيعية التي تحرمهم الأمان والاستقرار بحركات أيديهم وعضلاتهم، ولكنهم أدركوا عجزهم عن المقاومة المادية حتى اهتدوا إلى أن هذه الأرواح لها هي الأخرى مزاج متقلب، وأنها لا تكف حينًا إلاّ لكي تنقض عليهم بكل ضراوة. ولذلك عملوا على ترضيتها بالرشاوى، وعلى تطويع سلوكها بهدايا القرابين، وبتراتيل المداهنة، ومدائح الزلفى من أجل دفع الأذى، وكذلك طمعًا في وفرة المحصول والصيد وطول العمر وإنجاب الذكور(٧).

فكان من الضروري أن يعبر عن أعمق مشاعره التي استمدها من كل ما يحيط به من: حركة أمواج الماء الرتيبة، وتموجات الأشجار التي تداعبها أنامل الريح، وكذلك من ثبات نظام الكون من حوله: فالقمر والشمس يشرقان ويغربان في نظام ثابت، وكذلك الليل والنهار، وكذلك دقات قلبه المنتظمة، وخطوته الثابتة، فكانت الحركة الإيقاعية التي يعبر بها عن كل ما يخامره من فرح وبهجة، فكان الرقص وسيلة التعبير الأولى، فالإنسان يتحدث إلى آلهته بلغة الرقص، وأيضًا يصلي لهم بحركاته الراقصة بعد أن يقوم بالأعمال التي تضمن له ولقبيلته حاجاتهم الضرورية من طعام ومسكن(٨).

**الفن يجعل من اللحظة التاريخية المحددة لحظة من لحظات الإنسانية، لحظة تفتح الأمل نحو تطور متصل**



ليوناردو دافينشي

ولاحظ الإنسان الأول أنه كلما أشرق الصباح وتبدد الظلام، ذهب الخوف منه بما كان يسمعه من أصوات صيحات الديكة وزقزقة العصافير، فأخذ يقلد هذه الأصوات حتى يشعر بالأمان، حتى فوجئ ذات مرة بسماع صدى صوته فاكتشف نجاح محاولته، ولم تسعه الدنيا يومها من الفرحة بصوته ذاك الذي أكسبه الشعور بالأمن(٩). ومن خلال الحركة الإيقاعية (الرقص) تكونت الأصوات التي صنعها الإنسان في أثناء حركته، واتخذت هذه الأصوات وحدة نغمية من الجسم المترنح والمتأرجح، وكذلك من دبيب القدمين حتى أصبحت بالتدريج، وبمزيد من التجارب، نشيدًا حربيًا أو وردًا من أوردة الصلاة حتى تطور هذا الصوت إلى أنشودة قبلية تقليدية وصلت في النهاية إلى الشعر الذي ينظمه الإنسان عن شعور ووعي(١٠). وليس من المصادفات أن يطلق الناس على الوحدة الشعرية ـ وهي التفعيلة العربية ـ كلمة Foot أي قدم، أو قيام التشابه بين كلمتي Ballad أي أغنية قصصية وBallet أي رقص الباليه(١١). أما الموسيقى فهي تمت بصلة ونسب إلى الأصوات التي كانت تصنع لتفخيم إيقاع الرقص البدائي، وتشديد الركز الذي يحدثه وقع أقدام الراقصين، وتشديد ضربات شربات الأكف، وهزات الجلاجل، ونقر الطبول، وخبط العصي. وفي كثير من الأحيان كانت هذه العناصر: (الحركة الإيقاعية ـ

الغناء - القصص) يختلط بعضها ببعض، ولم يكن الدافع الذوقي مما يمكن فصله أو تخليصه من الدافع الديني، وكذلك الغرض العملي في تلك الطرز كلها، ومن هنا ظهرت النواة الأولى المسرحية وبذرة فن المسرح الذي نجد فيه الفعل Action مادة محورية أصيلة، ولذلك فهو لم ينشأ من الرقص البدائي، بل نجده حينما تم التزاوج بين الحركة الراقصة والشعر، فكان شعر القصص الإنشادي نتاجًا ثانيًا للرقص. فكل تكوين بيولوجي في حالة تفاعل عضوي مع العالم المحيط به، وهناك دائمًا ما يعطيه لهذا العالم، وما يأخذه منه.

ولكن هذا الأخذ وهذا العطاء يتمان بصورة مباشرة ومن دون وسيط.

وبعد أن اكتشف الإنسان (الأداة) التي يسيطر بها على عالمه، اكتشف أنه يمكن استبدال أداة أخرى بهذه الأداة. وتم ذلك بزيادة تجارب الإنسان، ومحاولات النجاح والإخفاق، وكذلك اكتشف أن هذه الأداة يمكن تحسينها، وأنه ليس من المحتم أن تؤخذ هذه الأداة من الطبيعة كما هي، وإنما يمكن صنعها(١٢). وبعد أن تمكن من سيطرته على هذه الأدوات، لم يعد هناك شيء مستحيل عليه. المهم أن يعثر على هذه الأداة المناسبة حتى يحقق أو ينفذ ما لم يكن إليه من سبيل. وبهذا اكتسب الإنسان قوة جديدة إزاء الطبيعة، وهي قوة تمتد إلى آفاق غير محدودة(١٣).

**الفن يتأثر بكل ما في المجتمع من أفكار، وأخلاق، وبمستوى الثقافة، والذوق العام، والمعتقدات الدينية السائدة في عصره؛ مما يترك أثره في الفنان، ومن ثم في أعماله**


توفيق الحكيم

## الفن هو الأداة السحرية للسيطرة على دنيا الواقع

تتزايد الأدلة التي تثبت أن أصول الفن إنما ترجع إلى السحر. فالفن هو الأداة السحرية للسيطرة على دنيا الواقع التي لا تزال مجهولة. فقد كان الفن والعلم والدين كلها كامنة في السحر، ثم تطور عقل الإنسان وإدراكه، وأخذ الدور السحري للفن يتراجع شيئًا فشيئًا أمام دوره في كشف العلاقات الاجتماعية، وفي تنوير الناس في مجتمعات كان يسيطر عليها الظلام، وفي معاونة الناس على إدراك الواقع ومحاولة تغييره(١٤). فكان الفن في المجتمعات البدائية وسيلة ينقل الإنسان عبرها أفكاره، ويوضح من خلالها دوافعه. إضافة إلى كونه يتضمن قيمًا اجتماعية وعقائدية يقدسها أفراد المجتمع. وبذلك تتأكد الوظيفة الاجتماعية للفن الذي في مقدرته أن يعكس الخبرات الإنسانية التي تراكمت عبر التاريخ الإنساني ونستطيع أن نؤكد أن وسائل التعبير اللغوية الأولى لم تكن أكثر من تقليد ومحاكاة، فكان ينظر إلى الكلمة في أول الأمر على أنها الشيء ذاته، أو هي الوسيلة لحيازته وفهمه والتحكم فيه.

وتطورت اللغة مع تطور خبرات الإنسان وتجاربه، وأصبح لها طبيعة مزدوجة لكونها صورة للواقع ورمز له في الوقت نفسه، وبصفتها إدراكًا (حسيًا) للشيء، و(تجريدًا) له في الوقت نفسه، ولذلك كانت اللغة دائمًا موضع اهتمام خاص من جانب (الشعر)، لا من جانب (النثر) الذي نستخدمه في حياتنا اليومية. فاللغة تعبر عن جميع الأشياء بمعايير العقل، أما الشعر فهو يعبر عن الأشياء جميعًا بمعايير الخيال(١٥).

## الحقيقة والفن

كثيرًا ما ننظر إلى الفن على أنه مصدر للمتعة والتسلية بمقدار ما هو كشف للحقيقة التي يكشف عنها العمل الفني ذاته. فأي حقيقة يتضمنها الفن؟ وهل الفن يعدّ مصدرًا موثوقًا به للمعرفة والحقيقة؟، فكثيرًا ما نتحدث عن المعرفة التي اكتسبناها من قراءة أدب شكسبير وجوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢م) وجون ملتون

(١٦٠٨ ـ ١٦٧٤م) وأبي العلاء المعري (٣٦٣هـ/ ٩٧٤م ـ ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م) وأمثالهم، ولكننا لو دققنا النظر لبدا لنا غريبًا أن يكون الفن مصدرًا يوثق به للمعرفة!!

فإذا كنا نأخذ بأن الفن تعبير عن وجهة نظر خاصة للفنان، ووجهة النظر هذه إن لم تكن كلها ذاتية، ففيها قدر كبير من الذاتية، وعندئذ يفرض السؤال الآتي نفسه: كيف يتسنى لوجهة نظر الفنان التي بها قدر من الذاتية أن تكون وسيلة إلى المعرفة؟.

ولما كان الأدب قد مرّ في تاريخه الطويل بعدة مذاهب، فقد وجد المذهب الطبيعي الواقعي، وحاول «أميل زولا» (١٨٤٠ ـ ١٩٠٢م) أن يجعل من العمل الأدبي وثيقة علمية تقوم على الملاحظة الموضوعية المباشرة، فإذا هو تناول حياة أسرة في قصة من قصصه، كان همه الأكبر هو أن يقدم صورة موضوعية لحياة أفرادها، وقد يستغل بعض نتائج الأبحاث العلمية في الوراثة مثلاً فينشئ قصة يحقق بها إحدى النظريات.

ولكن هذا النوع من الأعمال الأدبية أقرب إلى التقريرات منه إلى الأعمال الفنية؛ لأنه يتبع منهجًا غير أدبي، تمامًا كالمحاولات التي راجت بعد الحرب العالمية الثانية لكتابة نوع من القصة ـ القصيرة ـ الطويلة ـ يعطي فيه الكاتب نموذجًا من الحالات التي رصدها علماء النفس، أو يجسم فيه نظرية من النظريات التي تقدم بها علم النفس التحليلي، فإذا صح أن هذا اللون من الأعمال الأدبية يتضمن حقيقة، فإنها حقيقة عرفها الإنسان من قبل في غير المجال الأدبي، فلا يمكن أن ندعي أنها «حقيقة فنية»، وإنما هي بمنزلة «تقرير» للأفكار التي شاعت في وقت من الأوقات عند طبقة معينة من الناس(١٦). فما الحقيقة الفنية؟.

## الحقيقة الفنية

إذا ما تأملنا المسرحيات الخالدة أو اللوحات الفنية الرائعة، أو الروايات الإنسانية العظيمة، أو قصائد الشعر التي مازالت تبث روح الفن والجمال، نرى أن هذه الأعمال ـ الأدبية والفنية ـ تستقطب (الحقيقة) وتتخذ منها موضوعًا يشكل صراع الإنسان، فهي في هدفها البعيد تريد أن تبصرنا بصور شتى لإدراك الإنسان للحقيقة.

ويجب أن نفرق بين نوعين من الحقيقة: الحقيقة المجردة Truth والحقيقة الواقعة Reality، وتعريف الحقيقة عند (برادلي) هي: بالنسبة إلى أي إنسان تلك التي تفي بحاجته النظرية(١٧).

ومن ذلك التعريف نعلم أن الحقيقة المجردة ارتبطت بنوع معين من النشاط الإنساني، وهو الجانب النظري من تفكيره، وأصبح الشيء الحقيقي Truc هو ذلك الذي يتفق من الناحية النظرية




إميل زولا

ورغباتنا الخاصة، وهذه الحقيقة ليست فكرة مجردة، ولكنها فكرة ترتبط بمطلب حيوي للإنسان، لأنها تعطي للإنسان أكبر قدر من الرضا والانسجام النفسي. وهذه الحقيقة Truth لا ترتبط بالأشياء الخارجية. ولا تتمثل فيها إلا حين يسلك الإنسان تجربة ذهنية خاصة. أما الحقيقة الواقعة Reality فهي حقيقة الأشياء، وحقيقة ما نشعر به دون اللجوء إلى افتراض عالم آخر مطلق. ويرى الأستاذ جيمس أنه: ليست هناك حقيقة سوى التجربة، وأن ما يقع خارج التجربة ليس حقيقيًا، ويعبر عن المعنى نفسه قائلاً: «إن الحقيقي Real في الأصل هو ما نشعر

به، وليست هناك حقيقة خارج الشعور، والحقيقة آخر الأمر هي: «التجربة» وبذلك يتضح أن التجربة الإنسانية هي: علاقة بين الشيء والإنسان، أو بتعبير اصطلاحي هي علاقة بين الموضوع والذات.

وعلاقتنا بالأشياء ينتج منها تجربة ما تحمل القيمة، وتحمل المعرفة لأنه قد تم استغراق الذات في الموضوع، ونشأت علاقة جوهرية، ومن هنا تبرز المعرفة التأملية المرتكزة على تجربة نموذجية تترك أثرها مدى الأزمان، كما ذكرنا من قبل - عن الأعمال الأدبية والفنية الخالدة التي مازالت تعيش بيننا وكأنها وليدة عصرنا، وبذلك نرى أن الإنسان يحتاج إلى وقت طويل حتى يسمو فوق الطبيعة، ويواجهها بقدراته الخلاقة وإبداعاته المتوالية، فقد اتضحت له ملامح الغاية التي يريدها من الفن، لأن فكرة الغاية لا تنشأ من التطلع إلى الأمام بل من النظر إلى الوراء، وبذلك استطاع الإنسان أن يبدع أشياء لم تكن موجودة في الطبيعة(١٨).

### العملية الإبداعية والفن

ويؤكد د. شاكر عبدالحميد أن نتائج الدراسات التي تمت تؤكد أن عملية الإبداع في جوهرها عملية تنظيمية أساسًا، وهي تهدف إلى تقديم نسق جديد لمحتوى من المعلومات أو المنبهات التي تتفاوت في درجة وضوحها واكتمالها، ويتم هذا على المستوى الفردي، وعلى المستوى الاجتماعي(١٩)، وقد تبين أهمية عمليات التنظيم هذه في مختلف أنواع العمليات المتضمنة في العملية الإبداعية الكلية: فالإطار تنظيم، والتصور تنظيم، والخيال محاولة للوصول إلى تنظيمات جديدة، وكذلك التركيز. أما الغلق أو التعطل الذهني فهو إخفاق في الوصول إلى تنظيمات إدراكية مناسبة. والتكوين هو تنظيم، والتقويم والتعديل هما عمليتان تنظيميتان أيضًا، والتنفيذ هو تحقيق للتنظيم، والسيطرة هي شعور يصاحب التحقيق المقنع للتنظيم المطلوب، والاتصال الاجتماعي هو محاولة للتحقق من مدى فاعلية التنظيم وتأثيره الذي توصل إليه المبدع في الآخرين(٢٠).

**الإبداع عملية تفاعلية، قوامها الاحتكاك النشيط والإيجابي بين المبدع والجماعة؛ فما يقوم به المبدع هو محاولة لبناء الـ (نحن)**



ت.س. إليوت

### الإبداع في سياق اجتماعي

يكون العمل الفني فرديًا واجتماعيًا في آن واحد؛ وذلك لأنه تنظيم لتجارب لم تقع إلا لهذا الفنان (المبدع)، ولأنه تنظيم في سياق الإطار ذي الأصول الاجتماعية الذي يحمله الفنان، ويتخذ منه عاملاً من أهم عوامل التنظيم.

فعملية الكتابة نفسها ليست سوى وسيلة نحو هذا التنظيم، يستعين بها المبدع لتثبيت جوانب التجربة، حتى يستطيع أن يجمعها في (كل) دون أن تفلت منه بعض أجزائها، وهذا تمامًا ما أثبتته الدراسات الخاصة نفسها بالأسس النفسية للإبداع الفني في الرواية، وفي المسرحية أيضًا، وكذلك في القصة القصيرة. وفي دراسات سيكولوجية أخرى ظهرت أهمية هذه العملية، فقد أشار «فرانك بارون» إلى: «أن المبدع عادة ما تسيطر عليه حاجة غلابة لاكتشاف النظام الكامن، وتحقيقه من أجل التغلب على الفوضى والعشوائية السائدة في الأشياء والمواقف»(٢١).

### الـ (نحن) الجديدة

ان البعد الاجتماعي له فاعليته في المراحل المختلفة للعملية الإبداعية، فالإبداع هو عملية تفاعلية، قوامها: الاحتكاك النشيط والإيجابي بين المبدع والجماعة. فما يقوم به المبدع هو محاولة لبناء الـ (نحن)، أو محاولة لرأب الصدع الناشئ عن الصراع الناجم عن تصدع الـ (نحن)، فتبرز لدى المبدع

الرغبة الشديدة التي تدفعه إلى السلوك المؤدي إلى الإبداع، حتى يستطيع بناء الـ (نحن) التي بها خلل ما، وذلك بتحقيق الاتزان المفقود. وحينما يقبل الآخرون ما يلقيه عليهم هذا المبدع من تجربته الجديدة، تتحقق بذلك (نحن) جديدة لهم، فالمبدع والمتذوق يكونان (نحن) الجديدة التي كان يسعى إلى تكوينها، فحركة الإبداع لا تتم إلاّ بهذه الحركة نحو الآخر، وكما يقول د. عبدالسلام عبدالغفار: «إن الفنان إنسان أولاً، وقبل كل شيء، ولا يوجد من الناس من لا يسره استحسان الآخرين، فالغاية القصوى للعمل الفني هي أن يصل إلى الآخرين»(٢٢).

### الواقع الحسي وفوق الحسي

وبذلك التطور الإنساني انفصل الإنسان تدريجيًا عن الطبيعة، هذه الطبيعة التي لا يزال الإنسان من مخلوقاتها، مع أنه يواجهها كمبدع ومبتكر بشكل يتزايد باستمرار.

**الأعمال الأدبية والفنية تستقطب وتتخذ منها موضوعًا يشكل صراع الإنسان، فهي تريد أن تبصرنا بصور شتى لإدراك الإنسان للحقيقة**



جوته

القيمة عليه، تمامًا كما هو شأن الفلسفة، وكما يقول: (برتراند راسل): «الفلسفة والعلم شيء واحد من حيث الجوهر» فإذا كان العمل يعتمد في تقدمه على الحواس والأمور المشاهدة من خلال التجربة والمشاهدة والاستنتاج، فالفلسفة تعتمد في تقدمها على المدركات العقلية، فهذه المدركات العقلية ضرورية للعلم، على قدر ضرورة الملاحظات ـ المعطيات الواقعية ـ للفلسفة. فطريقتا البحث عن الحقيقة لم تكونا في يوم من الأيام مستقلتين تمام الاستقلال إحداهما عن الأخرى. فإذا قلنا: إننا اليوم في عصر «التقدم العلمي» فإن معنى ذلك أننا في «عصر الفلسفة» أيضًا ـ فكل مجتمع له فلسفته، وهذه الفلسفة متأثرة بالمستوى العلمي السائد، كما استجابت أيضًا للتأثيرات: الاجتماعية، والسياسية، والدينية في ذلك المجتمع(٢٤).

**كل هذا أدى إلى نشوء قضية من أعمق قضايا الوجود الإنساني، فهناك أساس حقيقي للحديث عن: (الطبيعة المزدوجة) للإنسان، إذ إنه مع استمرار انتماء الإنسان إلى الطبيعة، أوجد ما يسمى «طبيعة مضادة» أو «طبيعة عليا». فقد استطاع أن ينشئ من خلال العمل نوعًا جديدًا من الواقع وهو: «الواقع الحسي وفوق الحسي» في الوقت ذاته(٢٣)، وهذا ما يؤكد اختلاف المذاهب أو المدارس الفنية.**

### مرآة الثقافة

**لقد تيقنت معي عزيزي القارئ أن الطبيعة الإنسانية هي مركز كل حقيقة واقعة، وكلما انعقدت الصلة بين الموضوع والذات نكون أمام عمل فلسفي أو عمل أدبي يتناول الإنسان، والعمل الأدبي أو العمل الفني هو محاولة لتفسير هذا الواقع، وإضفاء**

**وهكذا يخضع الفن لأيديولوجيات خاصة تقوم على أسس اجتماعية، وتكشف عن نظرة خاصة تجاه العالم.**

### التأثير الثقافي والفكري للفن

**يتضح لنا ذلك في إمكانية تجسيد الفن لأفكار محددة أخلاقية أو فلسفية، مرتبطة بالحياة الواقعية، وبالحاجات العملية لفئات اجتماعية معينة، وفي شكل صور فنية من شأنها التأثير في الانفعالات والأحاسيس والنفسية، فالأعمال الفنية ذات المضامين الأيديولوجية كانت دائمًا تعبر عن قناعات ومواقف معينة(٢٥)، وقد ظهر ذلك بوضوح؛ وذلك للتغيرات الفكرية والعلمية والفلسفية والحروب التي دمرت الإنسانية، فقد سار في لوحات الفنانين مثل (براك) و(بيكاسو) تلاقي اللا مألوف مع غير المتوقع، والإحساس بالغربة الدائمة، وسعي الفنان**

إلى تحطيم الأشكال الظاهرية للموضوعات من أجل أن يكشف عن الجوهر، ومن أجل ذلك اعتمد الفن الحديث على أشكال فنية مختلفة أخذت عن تراث الشعوب الأخرى، كالفن الزنجي، وظهر عدد من الحركات الفنية التجريبية في كل أنواع الإبداع الفني والتي تتوحد جميعها على الرغم من اختلاف أسلوب وشكل كل منها في رفض الأساليب الفنية الموروثة وابحث عن أسلوب جديد للتعبير عن التجربة الإنسانية التي تميز عصرنا الحديث بكل تناقضاته.

**وأخيراً مع أهل الكهف:** كما نعرف أن المسرح لا يمثّل إلاّ ما يوهم بحضور الحقيقة، واتحاد الدراما بالحقيقة معناه اتحاد الفنان بالحياة ـ كما عرفنا من قبل ـ والمسرحية (أهل الكهف) للكاتب توفيق الحكيم تتجسد فيها كل ما سبق عرضه، إذ إنها تمثل مزيجاً عجيباً من الإيمان الذي ترسب في نفس المؤلف عن طريق القصة، كما يرويها القرآن، وكذلك وجهة نظره بواقع بلاده في ذلك الوقت (١٩٣٣م) ـ حين نشرت فيه المسرحية ـ فقد كانت مصر ـ كغيرها من البلدان العربية الإسلامية ـ تقف في مفترق ذلك الصراع، تتنازعها: الأبدية والزمان، أو لنقل: الفكرة والواقع، ويراد لها أن تختار والمبدع يعيش في صميم المشكلة التي يكابدها الشرق الحديث، والمسرح لديه يدور حول مصير الفكر الذي يريد أن يكون إنسانياً، فتجذبه على الدوام إرادة الانطلاق على أجنحة الأحلام، وتغريه فتنة التحرر من كل قيد، كل هذه العناصر المختلفة من أسطورة وتاريخ وواقع هي التي امتزجت في نفس المؤلف المبدع لكي تشكل فكرة (أهل الكهف)(٢٦).

عزيزي القارئ يجب أن تتأكد من الآتي: «سواء أمهدئاً كان الفن أم موقظاً، مُلقياً بالظلال أم غامراً بالضوء، فهو لا يمكن أن يكون وصفاً تقريرياً للواقع؛ إن وظيفته دائماً أن يحرك الإنسان في مجموعه، أن يمكن (الأنا) من الاتحاد بحياة الآخرين لصنع الـ(نحن) الجديدة، ويضع في متناول يدها ما لم تكنه، ويمكن أن تكونه»(٢٧).

## المراجع


١. «قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر» تأليف د. عز الدين إسماعيل ـ الألف كتاب (٤١٢) ـ الناشر: دار الفكر العربي.
٢. «الأعمال الكاملة ـ المأساة اليونانية في القرن الخامس ق.م» تأليف د. محمد صقر خفاجة، د. عبدالمعطي شعراوي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م.
٣. «ضرورة الفن» تأليف أرنست فيشر، ترجمة: أسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م، الطبعة الثانية.
٤. «الفن والحياة الاجتماعية» تأليف: د. محسن محمد عطية، دار المعارف، ١٩٩٤م.
٥. المرجع السابق نفسه.
٦. «ضرورة الفن» مرجع سابق.
٧. «تاريخ المسرح في ثلاثة آلاف سنة» تأليف: شيلدون تشيني ـ الجزء الأول ـ ترجمة: دريني خشبة، مراجعة: علي فهمي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، دون تاريخ.
٨. المرجع السابق نفسه.
٩. «الموسيقى والإنسان» تأليف: فرج العنتري، وزارة الثقافة، الثقافة الجماهيرية، مكتبة الشباب، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.
١٠. «تاريخ المسرح في ثلاثة آلاف سنة» مرجع سابق.
١١. المرجع السابق نفسه.
١٢. «ضرورة الفن» تأليف: أرنست فيشر، مرجع سابق.
١٣ و ١٤ و ١٥. المرجع السابق نفسه.
١٦. «قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر» تأليف: د. عز الدين إسماعيل.
١٧ و ١٨. المرجع السابق نفسه.
١٩. «العملية الإبداعية في فن التصوير» تأليف: د. شاكر عبدالحميد، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية، شهرية، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت (١٠٩) جمادى الأولى ١٤٠٧هـ ـ يناير/كانون الثاني ١٩٨٧م.
٢٠ و ٢١. المرجع السابق نفسه.
٢٢. «قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر» تأليف: د. عز الدين إسماعيل، مرجع سابق.
٢٣. «الفن والحياة الاجتماعية» تأليف: د. محسن محمد عطية، مرجع سابق.
٢٤. «قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر» تأليف: د. عز الدين إسماعيل، مرجع سابق.
٢٥. «الفن والحياة الاجتماعية» تأليف: د. محسن محمد عطية، مرجع سابق.
٢٦. «المدارس المسرحية المعاصرة» تأليف: د. نهاد صليحة، المكتبة الثقافية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.
٢٧. «ضرورة الفن» تأليف: أرنست فيشر، مرجع سابق.

# تطوير التعليم الجامعي الأحلام وتأويلها!!

مصطفى رجب
سوهاج - مصر

**منذ نشأ التعليم الجامعي والعالي في بلادنا العربية، ونحن نتحدث عن أهمية تطويره! فقد عقدنا عشرات أو مئات المؤتمرات والندوات واللقاءات والحلقات، وأصدرنا مئات المؤلفات والمجلدات التي تتحدث عن تطوير التعليم الجامعي والعالي، حتى بتنا نعجز حقيقة عن حصر هذا «التراث» الضخم المفعم بالأحلام الوردية التي لا تقبل التأويل، فالبقرات السمان ما زلن سماناً، والبقرات العجاف مازلن عجافاً، ومازلن يأكلن البقرات السمان دون رحمة ولا تأن.**

ومنذ سنوات انفتحت علينا جبهة أخرى هي (العولمة) وها هي ذي اللجان تنعقد، والمؤتمرات تتأجج، والدراسات تنهمر، والكتب تتوالى، والتساؤلات تتزايد: هل هذه العولمة قائمة أو قادمة؟ وسوف نظل نسبح في لجج هذه التساؤلات حتى تقذف بنا الأمواج خارج الزمن القادم ونحن نلهث وراء إجاباتنا تأييداً أو تفنيداً. إلى أن يظهر مصطلح آخر نأخذ بتلابيبه فنوسعه نقاشاً وبحثاً وتساؤلاً.

**جامعات معولمة.. أم جامعات معلمة؟!**

إن أدبياتنا السياسية

والاجتماعية دأبت على استعمال تعبيرات رائعة مثل (التعليم قاطرة التقدم العلمي) و(البحث العلمي هو وقود التنمية).. إلى آخر تلك الشعارات العربية العنترية التي لم تتحول يوماً إلى اقتناع حقيقي لدى أصحاب القرار التنفيذي.. بل ولم يحدث - إلا نادراً - أن سعى السياسيون إلى العلماء يطلبون منهم حل هذه المشكلة أو تلك، فالأبراج العاجية الحقيقية هي تلك التي يعيش فيها أصحاب القرار ويتهمون العلماء والباحثين ظلماً بأنهم هم سكانها الوحيدون.

إن الحديث عن تطوير التعليم الجامعي لابد أن يرتبط - الآن - ارتباطاً وثيقاً بظاهرة العولمة بكل ما تحمله من معاني السيطرة والهيمنة ومحاولة فرض ثقافة الأقوى، وتجاهل الآخر واستنزافه اقتصادياً بعد تنفيذ اتفاقية (الجات).

ومعنى ارتباط التطوير الجامعي بالعولمة، أن تتحول جامعاتنا فوراً من الدور التقليدي (التعليمي) إلى دور طليعي يتمثل بالمساهمة في إنتاج المعرفة التي تستطيع الصمود والمنافسة في العصر القادم الذي يتميز بالدرجة الأولى بأنه عصر الإنتاج الكثيف للمعرفة. أو بعبارة أخرى: أن تتحول جامعاتنا من معامل لتفريخ الموظفين، إلى معامل لتوظيف العلم.

## آليات التحول

ولن يتأتى هذا التحول إلا من خلال آليات محددة يمكننا أن نقترحها في صورة إجراءات إسعافية عاجلة هي:

**- إعادة النظر في أهداف التعليم الجامعي التي تصنف التربويين عادة بالتسلسل الآتي:**

- تخريج الكوادر البشرية.
- إجراء البحوث العلمية.
- خدمة المجتمع.

بحيث يصبح الهدف الثالث (خدمة المجتمع) هو الهدف الأول، ولا ينبغي أن يكون هذا التعديل في الأهداف مجرد إجراءات إدارية تتعلق بتغيير شكلي في اللوائح والوثائق الجامعية، بل يجب أن يتحول ذلك من مجرد (حلم) إلى (رسالة) ينهض بها كل من يعمل في السلك الجامعي من أساتذة وإداريين وطلاب من خلال وسائل مثل:

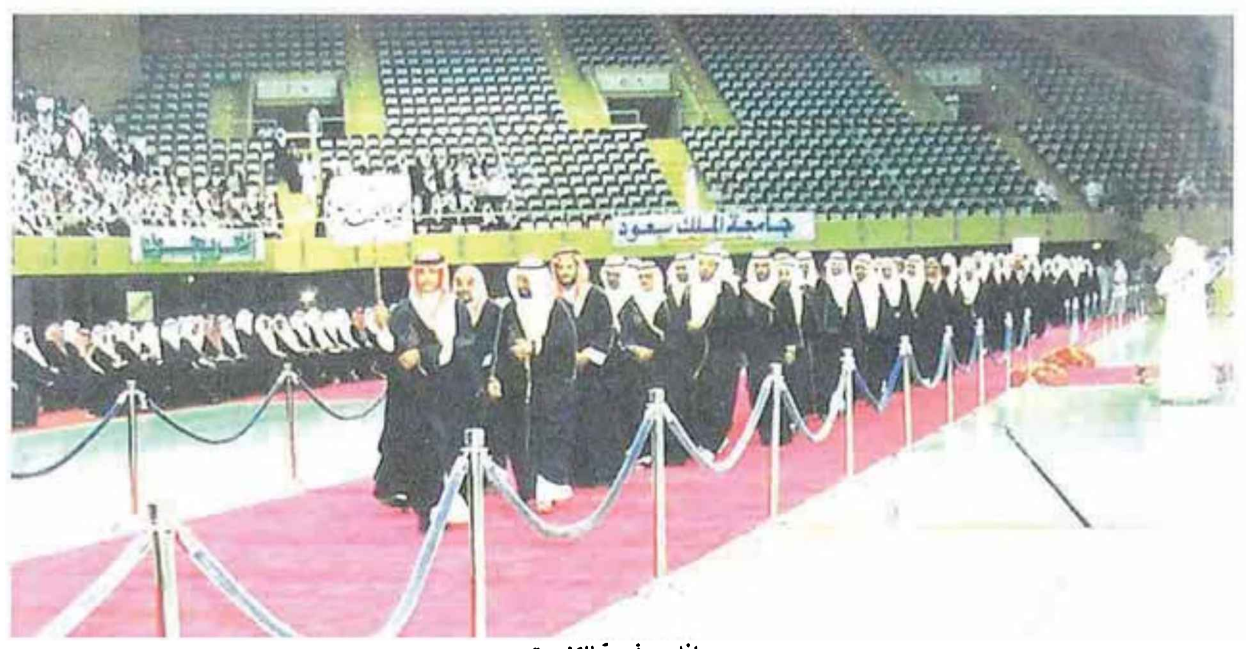
- خلق إعلام جامعي مستقل يتمتع بالجاذبية والتأثير يروج للخدمات الجامعية (البحثية) لدى المستثمرين ورجال الأعمال والمال والصناعة بهدف تجويد الإنتاج المحلي.
- خلق قنوات اتصال مباشر بين (زبائن) البحث العلمي المستفيدين أو المستهدفين بالاستفادة. والتحاور معهم بشأن مستقبل إنتاجهم في ظل خطر الجات القائم والقادم.

**- إعادة النظر في نظم إدارة الجامعات والمعاهد العليا:**

بما يتطلبه ذلك من أهمية وجود قدر كبير من الشفافية في التشريعات المنظمة للعمل الأكاديمي والإداري في الجامعات والمعاهد العليا. وهذه الشفافية في التشريعات تُعنى بمعايير اختيار القيادات ومراقبتها ومحاسبتها من جانب الدولة حتى لا تصبح شماعة (استقلال الجامعات) إطاراً ساتراً للفوضى والانحراف وعدم المبالاة. إن الاستقلال المقصود لا يُقصد به عدم سيطرة الدولة والسماح بالانحراف، بل يقصد به حماية الفكر وصيانة كرامة (الأستاذ) الحقيقي. فإذا أساء بعض العاملين بإدارة الجامعات والمعاهد العليا فهْم المعنى الحقيقي للاستقلال - كما حدث مراراً - تحول ذلك الاستقلال إلى وبال، واهتزت هيبة الحكومات وهي ترى ما ينشر ويذاع من أخطاء وجرائم يهوّنون منها أحياناً ويسمونها تجاوزات.

**- إعادة النظر في تمويل التعليم الجامعي والعالي:**

والحديث في هذه النقطة يضعنا أمام سؤال جوهري قائم: هل تنهض الدولة وحدها بعبء التعليم الجامعي الذي يتضاعف يوماً بعد يوم بفعل الزيادة السكانية وتزايد الطلب الاجتماعي على



ماذا بعد فرحة التخرج؟

الشهادة الجامعية؟ أم إن هناك احتمالاً لأن ينهض رجال المال والأعمال ببعض هذا العبء الثقيل؟

إن الآراء تختلف إزاء هذا التساؤل. فالداعون إلى استمرار تحمل الدولة عبء الإنفاق على الجامعات ومراكز البحوث، يستشهدون بأرقام دولية معلنة تؤكد أن ما يُنفق على التعليم العالي والبحث العلمي في الوطن العربي كله أقل بكثير مما ينفق على التعليم العالي والبحث العلمي في إسرائيل وحدها!!

ويرون لرأيهم هذا وجاهته - أن البحث العلمي من أعمال السيادة، وذو صلة قوية بالأمن القومي، خصوصاً في بعض المجالات ذات الصلة بالتسليح والدفاع، ومن ثم فلابد أن ينال من الرعاية والسرية والاهتمام ما ينبغي له أسوة بمتطلبات الأمن القومي كافة. وهذا ما عليه الحال في معظم الدول. وإذا كان البحث العلمي بهذه المكانة فلابد أن تكون له (إستراتيجية) من جهة، ولابد أن يكون بمنأى عن تأثير رأس المال الذي قد يكون أحياناً (غامضاً) في أيديولوجيته وتوجهاته وطموحاته.

أما الداعون إلى نوع من (المشاركة) في التمويل بين الدولة وأصحاب المال والأعمال، فإنهم ينظرون إلى بعض النماذج الغربية التي تتبنى فيها المؤسسات والشركات الكبرى طلاب الجامعات فتنفق عليهم وتقوم بتدريبهم تمهيداً لتعيينهم فيها مستقبلاً. ومن ثم فإن من المناسب - في حالات كهذه - أن يكون لأصحاب تلك المؤسسات (كلمة) أو (رأي) في سياسات القبول والامتحانات مما قد يستدعي تمثيلهم في المجالس الجامعية صاحبة القرار.

ويمكن الجمع بين الرؤيتين المتعارضتين بأن نقول: إن على الدولة أن تنهض بأعباء فروع معينة من العلم، وأن ينهض - أو يسهم - ذوو المصلحة الاقتصادية بتمويل ما يحقق مصلحتهم من فروع علمية.

### وضع سياسات جديدة للنشر العلمي:

إن تطوير سياسات النشر العلمي الجامعي أمر حتمي في وقتنا الحاضر، فلا جدال في أن المجلات والدوريات العلمية التي تصدرها الجامعات والكليات المختلفة هي إلى (المنشورات السرية) أقرب منها إلى الطبيعة الإعلامية لأيّ مطبوعة.

تلك الطبيعة التي تقوم على أساس أن النشر عملية (اتصال) وهذه الطبيعة تحتم أن يتحقق للمنشورات الجامعية قدر من (الذيوع) و(العمومية) في التداول.

ومع تسليمنا بأن بعض موضوعات الأبحاث العلمية المنشورة شديدة التخصص بحيث يعسر على القارئ العادي هضمها، فإننا نرى أن تتولى لجان علمية عمليات النشر على مستويين: مستوى متخصص يشبه الوضع الحالي للمنشورات الجامعية، ومستوى أكثر عمومية تتاح فيه المعرفة بلغة عربية هي إلى الإعلام أقرب منها إلى لغة العلم بحيث يمكن لكل متابع أو مهتم، أو رجل أعمال، أو مثقف عادي، أن يرى ويحس بمؤسساته القومية: أين هي من مثيلاتها التي يتابع أخبارها خلال وسائل الإعلام المفتوحة عالميًا الآن.

**- تغيير الهياكل الإدارية في الجامعات:**

إن الحديث عن تطوير إدارة الجامعات الذي أوردناه في الفقرة الأولى يتعلق بضرورة شفافية التشريعات المحددة لأساليب اختيار مديري المؤسسات الجامعية وتقويمهم بمستويات الإدارة المختلفة (العليا - الوسطى - الدنيا)، أما تطوير الإدارة بمعنى تغيير الهياكل الإدارية في الجامعات فيمكن أن يتسع ليشمل:

- تطوير هياكل الأقسام ومنح الأقسام مزيدًا من السلطات لتحقيق أهدافها العلمية.

- ابتكار أنماط جديدة في القيادة بعيدًا عن النماذج السابقة التجهيز الموجودة حاليًا، وبصدد هذا الموضوع يمكن اقتراح وجود (مجالس أمناء) تعمل في الجامعات الحكومية جنبًا إلى جنب مع (مجالس الجامعات) كما هو الحال في الجامعات الخاصة. وهذا النظام موجود في بعض الجامعات الغربية، ويضم عادة بعض خريجي تلك الجامعات أو الأثرياء أو الشخصيات العامة. ويكون لهذه المجالس رأي مؤثر فيما يتعلق بأجور الباحثين وأعضاء هيئات التدريس أو مكافآتهم.

- تحديث لوائح المجالس واللجان الطلابية لكفالة مزيد من حرية التعبير وحرية الحركة في النشاط الطلابي بعيدًا عن (ترسانات) القيود التي خلفتها (مطارق) القرن العشرين على رؤوس الأنظمة الجامعية البالية، التي حولت الأنشطة الطلابية من صورتها الإبداعية المثالية إلى (مسوخ) مشوهة لشباب أجوف غير قادر لا على تحمل المسؤولية فحسب بل غير قادر على مجرد فهم العصر.

- إنشاء - أو إعادة - نظام أساتذة الكراسي لتمييز الخبيث من الطيب، وإعادة هيبة الأستاذية إلى سيرتها الأولى.

**- إعادة النظر في سياسة الترقيات:**

إن قواعد الترقيات في معظم الدول العربية لم تعد بالية متخلفة فقط، وإنما أصبحت أيضًا مدعاة للسخرية. ففي الوقت الذي يتزايد فيه التماس بين العلوم المختلفة، نرى في الأساليب المعتادة في لجان الترقيات تمسكًا برؤية متخلفة تجاوزتها البشرية (حتى في أشد الدول تخلفًا) فيما يتعلق بالحدود الفاصلة (الوهمية) بين التخصصات المختلفة. وهذا الوضع يطرح تساؤلات كثيرة حول (أبدية) تلك اللجان، وأساليب تكوينها، ونظم العمل بها، ومشروعية الطعن في قراراتها...إلخ.

ولابد في هذا السياق من إعادة النظر في فلسفة (الأقدمية) في اختيار لجان الترقية، إذ إن هذا المعيار لم يعد يتناسب مع روح العصر الكثيف المعرفة الذي يرفض من حيث المبدأ عبادة (الطواطم) العلمية. إن خبرات كبار الأساتذة وقداماهم لا غنى عنها في مجال التدريس والإشراف العلمي على الرسائل والتأليف. ولكنّ للترقيات طرائق وقواعد أخرى لابد أن تتمشى مع النمو المعرفي للعلوم المختلفة.

ويرتبط بهذه النقطة أيضًا، ضرورة المناقشة المستمرة والمتجددة لمفاهيم (الإنتاج العلمي) بحيث يصبح للترجمة والبحث النظري مكانة أكثر احترامًا وتقديرًا من الوضع الحالي لهما.

# جدلية العلاقة بين الضغط النفسي والدعم الاجتماعي

دعد الشيخ
دمشق - سورية

**يعيش إنسان اليوم في بيئة تتسم بالتغير السريع والمستمر الذي يصعب ملاحقته في المجالات كافة، من انتشار الأقمار الصناعية، والهبوط على القمر، وثورة المعلومات، وتعاظم المعارف، والتطور الهائل في وسائل الاتصال والإعلام، مما ساهم في جعل الإنسان مثقلاً بأخبار الأحداث والمشكلات العالمية.**

إننا نعيش في عصر يُطلق عليه كثير من الأسماء، فهو عصر «عدم التأكد» عند الاقتصادي جون جلبرت، وعصر «صدمة المستقبل» عند الكاتب والفيلسوف الفن توفلر، وعصر «القرية العالمية» عند الباحث في وسائل الإعلام مارشال ماكلوهان، وعصر «الضغط النفسي» عند كارل ألبرخت(١).

لقد أصبح الإنسان المعاصر عرضة للإصابة بعدد من الاضطرابات والأمراض النفسية والجسمية نتيجة لعجزه عن التكيف مع معدلات هذا التغير الاجتماعي والتقني المستمر ومتطلباته، ولعدم قدرته على التعامل مع أزمات هذا العصر وضغوطه وتقلباته ومواجهتها بنجاح(٢).

وأصبحت العزلة الاجتماعية والنفسية ثمناً تدفعه البشرية لقاء تقدمها وتمدنها. وفي مثل هذه الظروف برزت الحاجة إلى إعادة بناء علاقات اجتماعية، والانتماء إلى جماعة تشبع حاجات الفرد وطموحاته وتوفر له مصدراً للدعم والمساعدة. وقد أكد الكثير من الدراسات أهمية العلاقات الاجتماعية في دعم صحة الفرد النفسية والجسمية، وحمايته من الآثار السلبية للضغوط الحياتية، واقتران سعادته بوجود هذه العلاقات، وإحساسه بالاندماج فيها(٣).

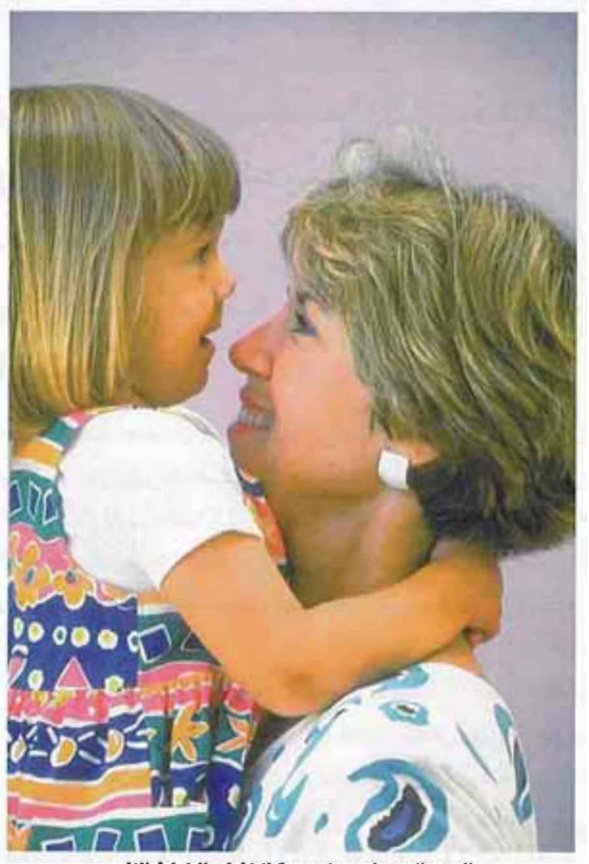
وقد قام عدد من العلماء بمحاولة الاستفادة من شبكة العلاقات الاجتماعية Social Network للفرد في تحسين علاقاته، وتحسين شروط الصحة النفسية لديه، والتخفيف من التوتر والقلق والاكتئاب والمخاوف وغيرها من الاضطرابات النفسية التي يمكن أن تنتابه(٤)؛ فنوعية البيئة الاجتماعية للفرد، تؤثر بشكل كبير في قدرة الفرد على التعامل مع المشكلات

التي يواجهها، ومن هنا تعمقت النظرة إلى هذه البيئة على أنها مصدر لعلاج الكثير من المشكلات والاضطرابات، وأصبح موضوع دراسة أثر المحيط الاجتماعي في نمو الإنسان وسلوكه منظوراً مركزياً للكثير من النظريات المهتمة بتكيّف الإنسان وتوافقه، وأحد أسباب التحول الجذري في توجه النظريات المهتمة بالصحة النفسية(٥).

## مفهوم الضغط النفسي

لقد جاءت كلمة الضغط Stress من الاستخدام الإنجليزي خلال العصور الوسطى لكلمة Distress، وهي اصطلاح قديم يشير إلى حالات الأفراد العقلية والنفسية. ثم استخدمت الكلمة في القرن السابع عشر بصورة شعبية لتعني الضيق أو الأذى Hardship والشدة Straits، والمحنة Adversity، والحزن والألم Affication، وقد رافق استخدام تلك الكلمة في ذلك الحين ما يدل على قوة الإكراه أو الإجبار، أو الضغط الخارجي الواقع على شيء ما أو شخص ما(٦).

كما استخدم مفهوم الضغط في العلوم الطبيعية ليشير إلى القوى الداخلية الناتجة في منطقة ما أثرت فيها قوى معينة مقابل مفهوم الحمل أو الثقل Load الذي يشير إلى القوى الخارجية الواقعة على مادة ما(٧).



الدعم الاجتماعي ضرورة لتخفيف الضغط النفسي

أما هانز سيلي فيعرف الضغط من وجهة النظر الطبية بأنه «استجابة الجسم غير المحددة لأي مطلب يفرض عليه»(٨).

وهناك من يرى: أن الضغط هو أي مؤثر يفسد التوازن الطبيعي للجسم، ويتضمن الأذى الجسمي، والتعرض للأخطار، والحرمان، والإصابة بالأمراض والاضطرابات الانفعالية.

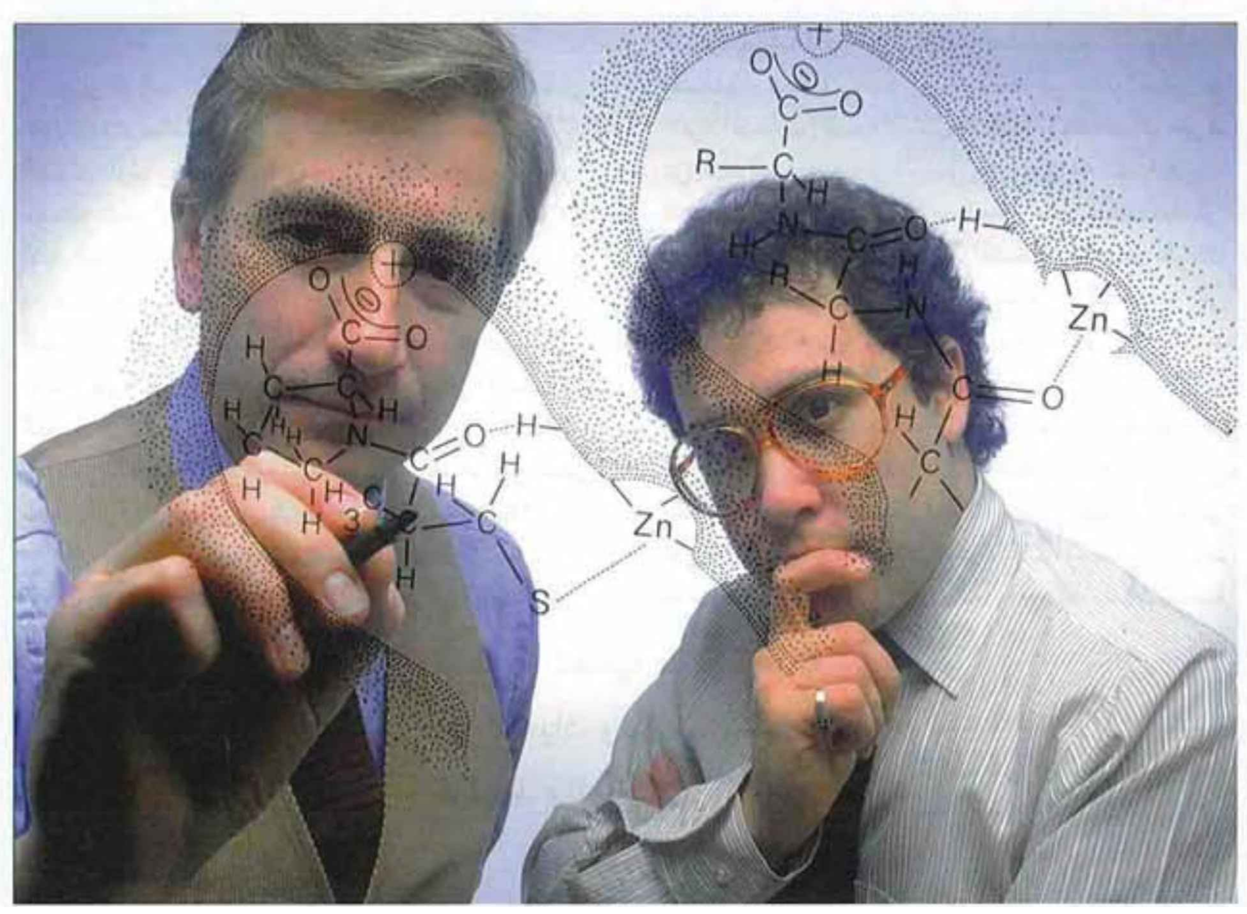
ويرى علماء الاجتماع أن الضغوط تنجم عن العلاقات غير السعيدة التي تنشأ من تفسير الفرد للعلاقات والتفاعلات الاجتماعية، والتي تأتي من الصراعات الناجمة عن التقاليد الثقافية.

أما الباحثون الذين ينظرون إلى مفهوم الضغط من منظور تربوي فيرون أن الضغط هو أي خاصية في بيئة العمل، تتظاهر بتهديد الفرد، أو هو أعباء لا يستطيع مواجهتها، وهي الخبرة التي يتعرض لها الأفراد من الانفعالات غير السارة، وتظهر حينما تواجههم مشكلات تهدد استقرارهم وتفوق قدراتهم في حلها.

ولعل والتر كانون Walter Cannon أول من استخدم مفهوم الضغط النفسي على أساس أنه ناتج من الخبرات الإنسانية(٩).

وقد استخدم مصطلح الضغوط في علم النفس ليدل على الموقف الذي يكون فيه الفرد واقعاً تحت إجهاد انفعالي، أو جسمي، فإذا طالت هذه الضغوط، ووجد فيها الفرد النفور وعدم التقبل، فإنها تؤدي إلى اضطرابات سيكوسوماتية (أي اضطرابات جسدية ناشئة عن اضطرابات عقلية أو عاطفية)، بالإضافة إلى القلق والاكتئاب، كما أن قابلية الأفراد في تحمل الضغوط قد تؤدي إلى تنبه المرض النفسي.

وقد لا يمكن فهم الضغط بشكل فعلي إلا عند إدراك طبيعة عدم التوازن في محيط التعامل بين الفرد والبيئة. ومن ثم التركيز في إدراك التهديد والتقويم المعرفي له. فإذا وصف الفرد موقفاً ما بأنه إيجابي فهذا يعني أن ذلك الموقف لا يرهق المصادر الشخصية للفرد، ولا يعرض حالته الصحية والنفسية للخطر، ومن ثم فهو غير ضاغط. وأما إذا وسم الموقف بأنه سلبي، فهذا يعني أن ذلك الموقف يتضمن تهديداً للفرد مما يؤدي إلى إثارة انفعالات سلبية كالخوف والاستياء والغضب...إلخ. أي إن الضغط الخارجي هو شيء نواجهه جميعاً في هذه الحياة، وليس بالضرورة أن يكون سبباً للمشكلات الصحية والنفسية. بل إنه قد يكون في أغلب الأحيان مصدراً للطاقة والواقعية والرضا. ولكن عندما يصبح مستوى الضغط الخارجي Pressure ضاراً وهداماً أو سلبياً، يمكن استخدام



العمل وضغوط متزايدة في هذا العصر

مصطلح الضغط الداخلي Stress. وهذا يعني أن الضغط الخارجي يمكن أن يكون حيادياً أو إيجابياً، بينما يكون الضغط الداخلي سلبياً دائماً.

فيمكن القول: إن الضغوط النفسية موجودة دائماً، فهي ظاهرة عامة في الحياة، ونحن باستمرار نفكر ونشعر ونتصرف بوجود درجة من الإثارة، ولذلك لا يمكن تجنب الضغوط، وإنما يمكن التعامل معها وتوجيهها.

ويقرر سيلي Selye أن كون المرء من دون ضغوط، فإن هذا يعني الموت. كما أن التعرض المتكرر للضغوط القوية وما يترتب عليها من تأثيرات سلبية، كالفوضى والارتباك في حياة الفرد، والعجز عن اتخاذ القرارات، وتناقص فعالية سلوكه، وعدم القدرة على التفاعل مع الآخرين، وظهور أعراض سيكوسوماتية، وغير ذلك من مظاهر الخلل الوظيفي في الشخصية، يكون معناه أن الضغوط ذات التأثيرات السالبة مرتبطة بامتلاك الصحة النفسية.

ويؤكد لازاروس Lazarus أن الموقف الضاغط يجب أن يتضمن عناصر الفقدان أو النقص أو التهديد أو المواجهة بحيث يصبح مهدداً لمصادر الفرد للتعامل بفعالية معه، وبناء على ذلك فإنه يمكن تحديد قائمة لبعض مصادر الضغط النفسي الشائعة مثل: الضغط النفسي نتيجة لمواقف الضغط والنقص، والضغط النفسي نتيجةً، فغالباً لمواقف التهديد، والضغط النفسي نتيجةً للمواجهة والتحدي.

وبما أن هذه الضغوط وما تحدثه من اضطرابات جسمية وانفعالية لا تحدث عادة بشكل منفصل عن العلاقات بين الأشخاص، فغالباً ما تعكس هذه الاضطرابات طبيعة علاقة الفرد بالآخرين المحيطين به. ومن هنا فإن مفهوم الدعم الاجتماعي يمكن أن يحد من آثار هذه الضغوط في شخصية الفرد إذ وجد أن العلاقات الاجتماعية الحميمة تقدم فوائد كثيرة، مثل المساندة والتشجيع، ودعم الثقة بالنفس، والتقويم الإيجابي، والتحقق من صحة الأفكار والآراء الشخصية، والمشاركة الوجدانية، وتصحيح المعتقدات، والنفع المادي، والتقبل، وخفض مشاعر الوحدة، ودعم المشاعر الإيجابية السارة(١٠).

### مفهوم الدعم الاجتماعي

مع ازدياد شدة الأحداث الحياتية ذات التأثيرات السلبية في الحياة، اهتم العاملون في حقول الصحة النفسية بدراسة الآثار النفسية المترتبة عليها، وإيجاد الحلول المناسبة للتخلص منها، فبرز مصطلح الدعم الاجتماعي كمنهج وقائي وعلاجي للتعامل مع هذه الآثار النفسية الناجمة عن الضغوط الحياتية، وضعف الروابط وأواصر العلاقات الشخصية، فقد أظهرت الدراسات أن أسوأ الضغوط وأكثرها ارتباطاً بالاضطرابات النفسية، هي تلك التي تحدث للفرد المنعزل الذي يفتقد الدعم الاجتماعي، فالحياة مع الجماعة، والانتماء إلى مجموعة من الأصدقاء، أو إلى شبكة من العلاقات الاجتماعية والأسرية المنظمة، من أهم المصادر التي تجعل للحياة معنى، وتجعلنا قادرين على مقاومة الضغوط وتحملها(١١).

وكان من أبرز المهتمين بالدعم الاجتماعي كابلان وكاسل وكوب Caplan, Cassel, Cobb الذين أثبتوا - من خلال بحوثهم - الأدوار الملطفة للدعم الاجتماعي، وأهمية الدعم الاجتماعي في المحافظة على صحة النواحي النفسية والجسمية للفرد وتحسينها.

لقد أكد جون كاسل John Cassel أهمية الدعم الاجتماعي ودوره في الحد من الاضطرابات الناتجة من الضغوط الحياتية، وتمزق العلاقات الاجتماعية التي تسببها ظروف المدنية وتطورات العصر، وتعدّ التغذية الراجعة الاجتماعية عنصراً أساسياً في فكرة كاسل عن الدعم الاجتماعي(١٢).

ويتلخص الفهم الحالي لآراء كاسل وكابلان فيما يتصل بالدعم الاجتماعي بالنقاط الآتية:

- كلما زاد مستوى الدعم الاجتماعي قلّت التأثيرات السلبية للضغوط الحياتية أو تلاشت.

- تعمل البيئة الاجتماعية الداعمة على زيادة الصحة العامة للأفراد من خلال زيادة قدرتهم على مقاومة التأثيرات السلبية للعوامل الاجتماعية والبيئية.

- يعمل الدعم الاجتماعي على مساعدة الأفراد من خلال عزلهم جزئياً، أو كلياً عن التأثيرات السلبية للضغوط من خلال:

أ- إمكانية قيام الدعم الاجتماعي بالتأثير في تقويم الفرد لشدة الأحداث الضاغطة، ومن ثم تخفيف درجة تأثره بها، وإلغاء ردة فعله أو تعديلها تجاهها، نتيجة لإحساسه بوجود من يساعده على مواجهتها.

ب- يمكن للدعم الاجتماعي أن يساعد الأفراد المضطربين على الشفاء بسرعة أكبر من التأثيرات السلبية للأحداث أو المواقف الضاغطة، عندما يتم إعداد برامج مستندة إلى الدعم للتعامل مع الأفراد المضطربين نتيجة لاختلال شبكاتهم الاجتماعية أو عجزها عن تقديم المساعدة. ويرى بيرسون Pearson أنه مهما تعددت التسميات للدعم الاجتماعي من مساعدة أو مساندة اجتماعية، فإن الاختلاف يبقى في المصطلح، أما المضمون فإنه يدل على تلك المساندة التي تقدم للفرد من محيطه الاجتماعي. ويشير بيرسون إلى أن الدعم الاجتماعي يتطلب وجود أشخاص متفهمين في محيط الفرد؛ يثقون ويقدمون له المساندة عند الحاجة.

ومن أشهر التعريفات المقدمة للدعم الاجتماعي تعريف هوب فل Hobfoll الذي يشير إلى التفاعلات أو العلاقات الاجتماعية التي توفر لأعضائها مساعدة فعلية، أو تدمجهم في النظام الاجتماعي الذي يعتقدون أنه يوفر لهم الحب والرعاية، أو الإحساس بالارتباط مع مجموعة اجتماعية ذات قيمة، وأنه موضع تقدير بالنسبة إليهم(١٣).

> **الضغوط النفسية ظاهرة عامة في الحياة، ولذلك لا يمكن تجنبها، وإنما يمكن التعامل معها وتوجيهها**

أما الشناوي فيعرّف الدعم الاجتماعي أنه تلك العلاقات القائمة بين الفرد وآخرين، والتي يدركها على أنها يمكن أن تعاضده عندما يحتاج إليها(١٤).

ويعرف هاوس House الدعم الاجتماعي: أنه مصدر رئيس يقوم بدور الملطف والمخفف للآثار النفسية الضارة التي تسببها الأنواع المختلفة من الضغوط، من خلال عمله على تقليل العوامل السلبية وإزالتها، وتحسين الصحة، وتوفير مصادر تقي الفرد وتعزله عن تلك التأثيرات السلبية.

أما ثويتز Thoits، فقد قسم الدعم الاجتماعي نوعين: هما: المساعدات العاطفية الاجتماعية والمساعدات الوسيلية، ورأى أن الدعم الاجتماعي يمثل الدرجة التي تُشبع فيها الحاجات الاجتماعية الأساسية للشخص من خلال تفاعله مع الآخرين. وحدد هذه الحاجات بالحب والتقدير والاستحسان والاندماج والهوية والأمن(١٥).

تؤكد معظم التعريفات السابقة أهمية العلاقات الاجتماعية في تلطيف الآثار النفسية الناتجة من الضغوط الحياتية المختلفة وتخفيفها.

### مصادر الدعم الاجتماعي

لقد أشار بيرسون إلى أن مصادر الدعم الاجتماعي يمكن أن تتعدد وتتنوع من أسرة وأصدقاء، وجيران ومرشدين متخصصين وأقارب، فيلجأ الفرد إلى أحد هذه المصادر وفقاً لنوع المشكلة التي



اضطرابات جسمية وانفعالية مختلفة للموقف الواحد

تواجهه، ومدى ملاءمة هذا المصدر لطبيعة مشكلته، أو مدى تفضيله لهذا المصدر على غيره من المصادر الداعمة.

وقد بين ليفي أن مصادر الدعم الاجتماعي يمكن أن تُعرَّف أنها إمكانية وجود أشخاص مقربين للفرد، يحبونه ويقفون بجانبه عند الحاجة وطلب المساعدة(١٦).

## الخاتمة

خلصت معظم الدراسات في مجال الدعم الاجتماعي إلى جعله مصدراً مهماً في تلطيف الاضطرابات والضغوط النفسية وتخفيفها من خلال تأثيره في التقييمات الذاتية للضغوط، أو على اختيار استراتيجيات التكيف معها، وعلى مشاعر تقدير الذات واحترامها، وأصبحت هذه النتيجة إحدى الحقائق المشتركة في أبحاث الضغوط وما يسمى بسيكولوجية العلاقات بين الأشخاص. وفي هذا الإطار يؤكد كل من كوب وكاسل وكابلان أن الدور الملطف للدعم الاجتماعي، ينبع من إشباعه حاجات الانتماء والاندماج والاحترام والاعتراف والتقدير والمحبة.

أما آرحايل فيصف الطرائق التي يعمل من خلالها الدعم الاجتماعي على مساعدة الأفراد كما يأتي: من خلال تأثيره الفوري في نظام الذات، وعمله على زيادة تقدير الذات والثقة بها، ومن خلال تأثيره المباشر في الانفعالات، وتوليده لمشاعر إيجابية تكفُّ الاكتئاب والقلق، ومن خلال تأثيره في إدراك الفرد للضغوط الخارجية فيدركها على أنها أقل مشقة عندما يشعر أن الدعم والمساعدة متوافران.

ومن هنا تدرس الضغوط في إطار صلتها بالعلاقات الإنسانية في ضوء ما تقدمه هذه العلاقات من فرص لإشباع حاجات الأفراد، أو إحباطها في حال عدم كفايتها واختلال علاقاتها، مما يسبب الشعور بالرفض والنبذ والتوتر.

## المراجع


١. محمد فائق رشيد الكحن: (١٩٩٧م) الضغوط المهنية التي تواجه معلمي مؤسسات التربية الخاصة في الضفة الغربية، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، كلية العلوم التربوية، نابلس، فلسطين.

٢. عبدالله محمود محمد المزيناوي: (١٩٩٩م)، العلاقة بين الدعم الاجتماعي والاكتئاب لدى طلبة جامعة اليرموك، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن.

3 - Jou, Y. H., & Fukada, J. (1995). E ffects of Social support and adjustment of chinese students in Japan. The Journal of Social Psychology, 135, (1), 39 - 47.

٤. علي محمد خليل (١٩٩٦م) الشعور بالوحدة النفسية والعلاقات الاجتماعية المتبادلة، رسالة الخليج العربي، عدد (٢٥) السنة الثامنة.

5 -Perarson, Richard. E. (1990). Counseling and social support: Perspectives and Practice. California: sage Publications, Inc.

6- Chakrapani, C. 1995. Unemployment Stress, a study of educated unemployed. Vikas Publishing House PVT LTD., New Delhi.

7- Schafer, Walt. 1992. Stress Management For Wellness, 2nd edition. Harcourt Brace Jovanovich college Publishers, New York.

8- Selye, H., (1976). The stress of Life. N.Y., Mc Crow. Hill.

٩. شهلا حسين الأطرش: (٢٠٠٠م)، مصادر الضغط النفسي وإستراتيجيات التوافق، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان.

١٠. أسامة سعد أبو سريع: (١٩٩٣م) الصداقة من منظور علم النفس، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.

١١. عمر أحمد أرشيدات: (١٩٩٩م) مصادر الدعم الاجتماعي لدى طلبة جامعة اليرموك، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن.

12 - Oakley, ANN. (1992). Social support and mother hood: the natural history of areasearch Project. oxford uk& Cambridge USA: Black Well Publishers.

13- Wang, L. (1997). Role of Gender - Related personality traits, Problem - Solving Appraisal, and Perceived Social Support in developing a mediational model of Psychological adjustment, Journal of counseling Psychology.

١٤. هشام إبراهيم عبدالله: (١٩٩٥م) المساندة الاجتماعية وعلاقتها بالاكتئاب واليأس لدى عينة من الطلاب والعاملين، مجلة الإرشاد النفسي، جامعة عين شمس، عدد (١٦).

15 - Vaux, Alan (1988). Social support: Theory, Research, and Intervention. New York: Praeger.

١٦. راوية محمود حسين دسوقي: (١٩٩٥م) النموذج السلبي للعلاقة بين المساندة الاجتماعية وضغوط الحياة والصحة النفسية لدى المطلقات، مجلة علم النفس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، السنة العاشرة، عدد (٣٩).

# رسائل فقهية حول البحر والملاحة

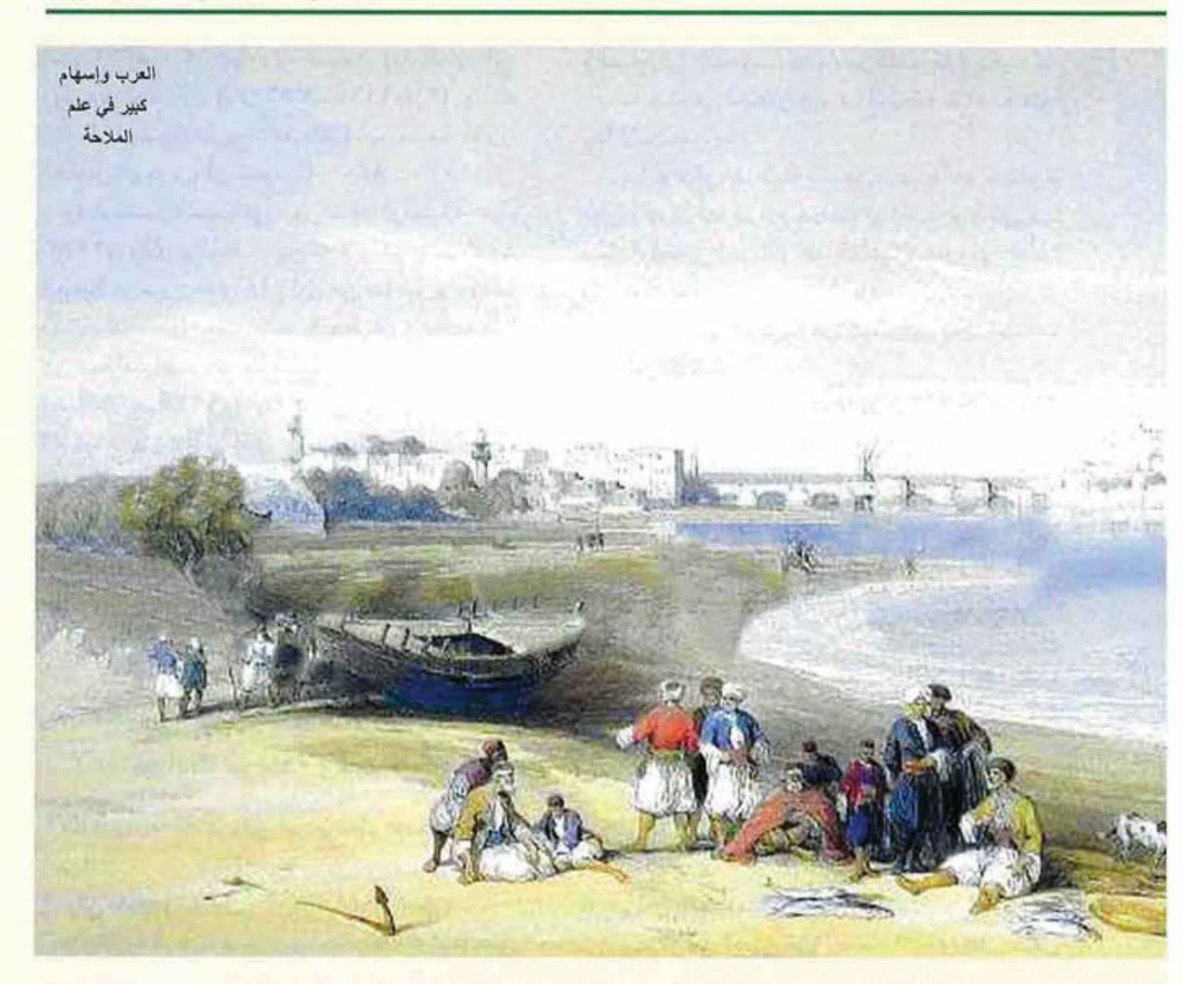
لطف الله قاري
ينبع الصناعية - السعودية

**اهتمت الشريعة الإسلامية بجوانب الحياة المختلفة من عبادات ومعاملات. وهذه العبادات والمعاملات لا تخلو من صلة بالظواهر الطبيعية المحيطة بالإنسان. فنتج من ذلك علاقة وطيدة بين علماء الفقه والعلوم الطبيعية والتقانية (التكنولوجية). فكثير من علماء الطبيعيات كانوا من المبرزين في علوم الشريعة. فمنهم أطباء فقهاء، كابن رشد الحفيد (ت: ٥٩٥هـ)، وابن حزم (ت: ٤٥٦هـ) الأندلسيين. ومنهم فلكيون فقهاء، مثل كمال الدين بن يونس الموصلي، ونظام الدين النيسابوري (ت: بعد ٨٥٠هـ)، وصدر الشريعة البخاري. وعلم الميقات استحدث بين علماء المسلمين من علم الفلك، لخدمة الشريعة بتحديد أوقات العبادات وإيجاد اتجاه القبلة. وعلم الفرائض اشتغل به علماء الرياضيات، وألفوا فيه لحساب المواريث حسب الشريعة الإسلامية.**

ومن نتيجة اهتمام الفقه بشؤون الحياة العملية نجد مؤلفات في فقه البناء، وأخرى تدور حول رؤية الهلال بين مؤيد ومعارض لتطبيق المعارف الفلكية لتوقع دخول الشهر القمري. ونجد مباحث حول سك العملة والغش في خلط السبائك المعدنية، كما نجد مباحث حول مضار الأشربة المسكرة والمخدرة من الناحية الطبية. وكتب الحسبة ألفت لتطبيق أحكام الشرع الإسلامي في ممارسات أصحاب الصناعات والحرف المختلفة. ومن ذلك المراقبة الفنية للأطباء والصيادلة والفلكيين وتخطيط المدن والشوارع.

وبخلاف بعض الغربيين الذين زعموا أن الحضارة الإسلامية لم تعرف الاهتمام بالبحر، وأن المسلمين خافوا الركوب في البحر فإن لهذه الحضارة تاريخا مشرقا لاهتمام العرب والمسلمين بالبحر، وإبداعهم في الملاحة فيه، وابتكارهم لمدرسة متكاملة أو علم مستقل، هو علم الملاحة البحرية العربية الذي نجده في مؤلفات أحمد بن ماجد (ت: بعد ٩٠٤هـ)، وسليمان المهري (ت: نحو ٩٦١هـ). أما في عصر الاكتشافات الأوربية فالمصادر الغربية نفسها تقر باعتماد المكتشفين الكبار مثل فاسكو داجاما وكولمبس على علوم وخبرة الملاحين العرب والمسلمين.

ولم يكن بالإمكان أن يظل الفقه الإسلامي بمنأى عن



العرب وإسهام كبير في علم الملاحة

الاهتمام بقضايا الملاحة البحرية، مادام السفر للحج والتجارة والجهاد كلها يتطلب من سكان الأقطار المطلة على البحر ركوب السفن واتخاذ الملاحة البحرية وسيلة مواصلات ومصدر رزق. فنجد الفتاوى والأحكام المتعلقة بهذا المجال مبثوثة في كتب الفقه، ولاسيما الكتب الموسوعية الكبيرة منها، كما نجدها في مجاميع الفتاوى لدى المذاهب المختلفة. ولكن التراث الفقهي الإسلامي يحتوي أيضاً على رسائل أو مقالات ألّفت خصيصى في أحكام البحر والملاحة البحرية. فنستعرض هنا عدداً من هذه الرسائل، لأنها لم تُذكر عند الباحثين الآخرين الذين كتبوا في هذا المجال، كما سنرى فيما يأتي.

## رسالة خلف بن أبي فراس وملحقاتها

لم يشتهر أبو القاسم خلف بن أبي فراس بترجمة مفصلة. ولكننا نعرف من ابن الرامي أنه من أهل القيروان، وأنه «الفقيه الصالح» حسب ما وصفه ابن الرامي المذكور، وأن له فتاوى في شؤون المباني(١). ونعلم من مصادر أخرى أنه درس على يد الفقيه علي ابن محمد بن مسرور الدبّاغ، الذي كان يدرّس خلال الفترة بين عامي ٣٣٠ و ٣٥٩هـ(٢). ويروي في رسالته التي نذكرها هنا فتاوى عن شيوخ قرويين (قيروانيين) عاصرهم من القرن الرابع الهجري، منهم أبو سعيد خلف بن عمر المعروف بابن أخي هشام،

(ت: ٣٧٣هـ / ٩٨٣م). وأبو محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن، (ت: ٣٨٦هـ /٩٩٦م)(٣). ولذلك قدّر الباحثون تاريخ تأليف الكتاب ببداية القرن الخامس الهجري، أي نحو سنة ٤٠١هـ - ١٠١٠م.

وقد نشر مصطفى أنور طاهر الرسالة عام ١٩٨٣م. ولكن يلاحظ عليه أنه لا يذكر بحث عبد الحفيظ منصور الذي كان أول من عرّف بها، وقدّم مقتبسات مطولة منها. كما يلاحظ عليه أنه ينسبها إلى مؤلف آخر هو محمد بن عمر الكناني (ت: ٣١٠هـ /٩٢٣م)؛ وذلك لأن في الرسالة اقتباسات من هذا الأخير. إلا أن هذا الأمر لا يجعل الرسالة من تأليفه، لأن فيها اقتباسات من آخرين عاشوا بعده بمدة طويلة، مثل ابن أخي هشام وأبي محمد بن أبي زيد السابق ذكرهما.

**كتب النوازل المغربية والأندلسية تعطينا معلومات ثرية حول التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والحضاري. وتحتوي - ضمن ما تحتويه - على حوادث مؤسفة وقعت لركاب البحر**

تحتوي رسالة ابن أبي فراس على تسعة أبواب، وهي:

- في أكرية [النوتيين] النواتية(٤) في السفن.
- وأكرية السفن: مضمونها ومعينها وكراؤها على شيء بعينه أو ليس بعينه، أو بجزء مما يكترى على حمله.
- ما يحدث بعد عقد كراء السفينة، فيمنعهم من نفوذها، أو يصدهم عن بلوغها إلى الموضع الذي اكتروها إليه، وذكر النقد في الكراء.
- ما جاء في السفينة تعطب في بعض مسافتها أو بعد بلوغها إلى آخر غايتها، والحكم فيما خرج من حمولتها مجهولاً أو معلوماً، سالماً أو مبلولاً، والدعوى في نقد الكراء.
- فيما جاء فيما طرح من السفن في البحر لخوف هوله، والحكم في قيمته، والتراعي فيه بين أهله، والصلح في ذلك، وما يحسب من ذلك وما لا يحسب.
- ما جاء في تضمين أرباب السفينة لما استحملوه وما لا يضمنونه.
- ما جاء في السفينة يشحن فيها ما هو طعام أو غيره، فيريد أحدهم بيع حصته أو أخذه، أو شحن فيها حملها، فيتبيّن لهم ذلك عند إقلاعها فيخففونها، فيأخذ ذلك بعضهم.
- ما جاء في السفينة من الشريكين يجد أحدهما بغير أمر الآخر.
- ما جاء في السفينة يدفعها ربها إلى من يعمل عليها، أو يدفعها ودنانير معها إلى من يعمل بذلك على جزء مما يربح فيه، أو دفع إليه رجل مالاً يشتري به مما يشحنه في سفينته على كراء، وله جزء من الربح.

وتلي الرسالة في المخطوطة نفسها ست مسائل:

- مسألة لأبي عمران الفاسي عن رجل اكترى على طعام.
- مسألة لأبي عمر بن المكوي عن قوم شحنوا في مركب، فأتى رجل بحمولة فشحنها معهم.
- مسألة من كتاب ابن يونس في قوم أوسقوا(٥) في مركب متاعاً، فلما أقلعوا أصابهم هول وخافوا الغرق. وبان لهم أنهم أوسقوه فوق حمله، فأرادوا أن ينزلوا بعض وسقه.
- مسألة من العتبية(٦) فيمن اكترى على حمل متاع من طرابلس إلى مصر، فأخطأ الحمّال فحمل غيره إلى مصر.
- مسألة لابن الجلاب إذا شدّ مركب بمركب، ثم هاجت ريح، فيجري أحدهما من الآخر خوفاً من الغرق، فغرق المحلول. وإذا اصطدم مركبان في حرفهما.
- مسألة لأبي الفضل محمد بن يحيى في المركب يهول عليه البحر، فيرمى منه بعض حمولته، ويرمي بعضهم من آلة المركب مثل الأحبل والمراسي، وقول محمد بن أبي زمنين في ذلك. وقد اهتم الباحثون بهذه الرسالة وملحقاتها، فنشرت عنها بالإنجليزية دراسة



فاسكو داجاما

مع تحليل محتوياتها سنة ١٩٩٣م(٧). وكانت مرجعاً أساسياً لبحث مطول عن القانون البحري الإسلامي، من تأليف حسن خليلية، سنتطرق إليه فيما يأتي. ونجد فيه أن الباحث ينقل اقتباسات من هذه الرسالة في معظم صفحات الكتاب.

## رسائل للسيوطي

جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي أشهر من أن يعرّف. مؤلفاته فاقت الألف، ما بين رسالة صغيرة ومجلدات كبيرة. ومن مؤلفاته في هذا المجال رسالة بعنوان «الدرر الثمينة في أحكام البحر والسفينة». وهي مفقودة الآن(٨). ومن رسائله الأخرى رسالة مطبوعة بعنوان «الجهر بمنع البروز على شاطئ النهر». قال فيها: «وقع في هذه الأيام أن رجلاً له بيت بالروضة (أي الجزيرة التي بداخل النيل في القاهرة، وتسمى الآن حي المنيل) على شاطئ النيل، أصله قديم على سمت بيوت الجيران الأصلية.

ثم أحدث فيه من بضع عشرة سنة بروزا، ذرعه إلى صوب البحر نحو عشرين ذراعاً، بحيث خرج عن سمت بيوت الجيران القديمة. ثم أراد في هذه الأيام أن يحدث فيه بروزاً ثانياً قدام ذلك البروز. فقلت له: [لا يحلّ لك ذلك، باتفاق المذاهب الأربعة]. فشنّع عليّ في البلد أني أفتيت بهدم بيوت الروضة. وهذا كذب محض، وإشاعة باطلة. فإن البيوت القديمة الباقية على أصولها لا يحل التعرض لها. وإنما الكلام في البروز الحادث، وما يراد إحداثه الآن. وكثير من الناس يظنون أن مذهب الشافعي جواز البروز مطلقاً، وليس كذلك. بل شرطه ألا يكون في شارع ولا حريم نهر ولا نحو ذلك، مما هو مبيّن في كتب الفقه. وهذه نبذة من نقول الأئمة في ذلك».

وبعد أن أشبع القول في تحرير هذه المسألة، وذكر ما جرى له بشأنها مع قاضي القضاة في عصره، قال: «وقد أرسلت بذلك وبهذا المؤلف (أي الرسالة التي نحن بصددها) إلى المقام الشريف مولانا السلطان، فأحاط بذلك علماً، وتوعّد أهل البروزات منعاً وهدماً».

ثم ختم الرسالة قائلا: «وقد ختمت هذا المؤلَّف بقصيدة نظمت فيها المسألة، لأن النظم أيسر للحفظ، وأسير على الألسنة. وسميتها [النهر لمن برز على شاطئ النهر]»(٩). فرسالة «النهر لمن برز على شاطئ النهر» قصيدة رائية من بحر الطويل، في ٦٩ بيتاً، نظمها في نفس موضوع الرسالة السابقة، أي إبراز البناء على الشواطئ؛ أو ما نسميه «التعديات» في هذا العصر(١٠). وقد ذكر بعض الباحثين رسالة «الجهر»، ثم ذكر رسالة «النهر»، وعقّب عليها قائلاً: «ولعله نفس الأول»(١١). ولكن كما رأينا فالرسالتان مختلفتان.

## رسالة ابن نجيم

من رسائل ابن نجيم الحنفي المصري (ت: ٩٧٠هـ/ ١٥٦٣م) رسالة «في السفينة إذا غرقت أو انكسرت، هل يضمن أم لا». وفيها يقول: «سئلت عن شخص استأجر سفينة لينتفع بها على الوجه

الشرعي في الحمل والسفر على العادة، من بندر السويس إلى بندر جدة المعمورة. ثم إنه سافر بها، فغرقت في أثناء الطريق، وتلفت هي والمتاع. فهل يلزمه أجرة المسافة التي سافرها ويسقط عنه باقي المسافة أم لا يلزمه». وبعد هذه المقدمة التي يوضح فيها السؤال يقدم المؤلف الإجابة في صفحتين، مستعيناً بأقوال العلماء(١٢). وللمؤلف رسالة بعنوان «في مسألة استئجار سفينة»، مخطوطة في بتنا بالهند. وقد تساءل بروكلمان الذي ذكر الرسالتين حول كون إحداهما نسخة عن الأخرى، حيث لم يتيسر له، ولا لكاتب هذه السطور الاطلاع على مخطوطة بتنا(١٣).

### رسالة الأزهري

عنوان هذه الرسالة المخطوطة المهمة النادرة هو «الدرة الثمينة في أحكام الملاح والسفينة». ولعل محتوياتها تعرض أول مرة على جمهور القراء والباحثين. وهي من تأليف حسن بن عبد الله الأزهري الذي لم نجد له ترجمة في المراجع التي بين أيدينا، إلا أن دراسة محتويات المخطوطة تبين أنه من مصر، ومن القرون المتأخرة، أي من أهل القرن الثاني عشر أو الثالث عشر الهجريين (١٨ - ١٩م). فهو ينقل عن مصادر متأخرة، مثل «الفتاوى الخيرية»، وهي فتاوى خير الدين بن أحمد العليمي الفاروقي الرملي المتوفى سنة ١٠٨١هـ/١٦٧١م، ابتدأ تأليفها ابنه، ولكنها لم تكتمل إلا على يد إبراهيم بن سليمان الجنيني المتوفى سنة ١١٠٨هـ (١٤، ١٥) تتكون المخطوطة من ١٦ورقة (٣١ صفحة + الغلاف). وقد اشتملت على الأبواب الآتية: الصلاة، والحج، والطلاق، والأيمان، وقسمة الغنائم، والشركة، والوقف، والبيوع، والكفالة، والشهادة، والدعاوى، والإقرار، والمضاربة، والوديعة، والهبة، الإجارة، وضمان الأجير، والغصب، والجنايات، وختم الرسالة بفوائد يكثر وقوعها. بعض هذه الأبواب مسألة لا يتعدى حجمها السطرين. وبعضها مثل باب الإجارة في ثماني صفحات. والمؤلف من فقهاء المذهب الحنفي، فينقل من المصادر المعتمدة في هذا المذهب. فنجد فتوى ابن نجيم السابقة ضمن عدة فتاوى ينقلها من مؤلفات مختلفة لابن نجيم وغيره، بحيث بلغت مصادره أكثر من ثلاثين.

ونجد في الرسالة عدداً من الفوائد، سواء في العبادات أو المعاملات مما نسميه اليوم القانون البحري التجاري، ما يجعلها مرجعاً لا غنى للباحث عنه. ففي موضوع ضمان حمولة السفينة ينقل المؤلف هذه المسألة من فتاوى ابن نجيم، وهي غير رسائل ابن نجيم السابق ذكرها: «سئل عن جماعة من التجار سافروا بمركب، ومعهم أحمال من قماش وغيره، فهال البحر، وقوي الريح، وتحقق الغرق إن لم يلقوا بضائعهم أو بعضها في البحر. فألقوا بعضها في البحر. فما الحكم في ذلك؟ هل يكون ما ألقي على صاحبه أو على الجماعة؟» (ورقة٦و).

**الفتاوي والأحكام الخاصة بالبحر والملاحة، مبثوثة في كتب الفقه، ولكن التراث الفقهي الإسلامي يشتمل على رسائل ألفت في أحكام البحر والملاحة البحرية**

وفي موضوع عقد استئجار السفينة نقرأ هذا السؤال: «رجل استأجر سفينة من آخر لحمل غلال معلومة إلى محل معلوم بأجرة معلومة، ووضع الغلال فيها، وسافرت إلى أن وصلت إلى أثناء الطريق. [فصادفها] ريح شديد، فغرقت وغرق ما فيها من الغلال. هل على صاحب السفينة ضمان فيما غرق من الغلال؟ أم لا ضمان عليه، وله المطالبة بالأجرة بقدرها؟» (ورقة ٩و).

وفي مجال أجرة الملاحين نقرأ هذا السؤال: «رب السفينة استأجر ملاّحاً بأجرة معلومة ذهاباً وإياباً، وسافر معه، فانكسرت السفينة أو غرقت في بعض الطريق. هل يستحق شيئاً من الأجرة أو لا؟» (ورقة ٩و).

وفي مجال مسؤوليات الملاحين في حالة تقصيرهم نقرأ هذه الأسئلة:

ـ «استأجر سفينة معينة ليحمل فيها أمتعته .. فأدخل الملاح فيها أمتعة أخرى بغير رضا المستأجر. وهي تطيق ذلك. وغرقت، والمستأجر معها، لا يضمن الملاح؟».

ـ «ملأ سفينة من أمتعة الناس، وشدّها في الشط ليلاً. فظهر فيها ثقب، وامتلأت ماء وغرقت، وهلكت الأمتعة. لا يضمن إن كان بترك هذه عادة؟».

ـ «ولو قال مالك الأمتعة للملاّح: شُدّ السفينة هاهنا، فلم يشدّ. وأجراها حتى غرقت من الموج، يضمن إن كانت تشدّ في هذه الحالة؟». وغيرها من المسائل ذات الصلة بالموضوع (ورقة ١٢ظ).

وفي مجال المسؤوليات عند تصادم السفن نقرأ هذه المسألة: «أرباب السفن إذا أوقفوا السفن على الشط، فجات (أي جاءت) سفينة، وأصابت السفينة الواقفة، فانكسرت الواقفة، كان ضمان الواقفة على الجايية (أي القادمة). فإذا انكسرت الجايية لا يضمن صاحب الواقفة، لأن الإمام (أي الحاكم) أذن لأرباب السفن بإيقاف السفن على الشط. فلا يكون فعلهم تعدياً». (ورقة ١٣ظ).

من هذه المخطوطة نسخة بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض. وكان منها نسخة بالمكتبة الخاصة للشيخ أبي اليسر عابدين مفتي سورية رحمه الله(١٦) وهي تستحق التحقيق بعناية جيدة من قبل محقق خبير بكتب الفقه الحنفي، لأنها ـ كما قلنا ـ تنقل من أكثر من ثلاثين مصدراً منها.

## رسالة عبد السلام السلاوي والنوازل المشابهة

عبد السلام بن عبد الله حركات السلاوي (من مدينة سلا المجاورة للرباط عاصمة المغرب، توفي بعد سنة ١٢٣٢هـ ـ ١٨١٦م) كان فقيهاً نوازلياً(١٧) مشاركاً في التفسير والحديث، وكان يستفتى من مختلف أنحاء المغرب. من مؤلفاته الكثيرة مجموع



كريستوف كولمبس

يحمل سبع رسائل، رقمه ٤٨٢ في الخزانة الصبيحية بمدينة سلا. ومن ضمن هذه الرسائل نازلة تقع في ١٥ صفحة حول أناس ركبوا سفينة في البحر، ففقدوا هم والمركب، واختلفت آراء الفقهاء في الأحكام المتعلقة بهم(١٨). وكتب النوازل المغربية والأندلسية تعطينا معلومات ثرية حول التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والحضاري. وتحتوي ـ ضمن ما تحتويه ـ على حوادث مؤسفة وقعت لركاب البحر. فمن ذلك نازلة لابن سهل الأسدي (ت: ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م) حول سلامة الركاب والبضائع. فقد حصل في عهده أن جار نواتية السفن على الركاب. وصاروا يوقفون تشغيل مراكبهم، ما عدا مركباً واحداً يحمّلونه فوق طاقته، فيحشى حتى يكاد ينكفي. فأفتى ابن سهل بعدم جواز ذلك. ورفع إلى

الحاكم يطلب منه أن يأمر بتشغيل عدة مراكب في آن واحد، ليخفّ الضغط والازدحام، ويمنع تحميل المركب فوق مقدرته(١٩).

ونجد في فتاوى ابن رشد الجد (ت: ٥٢٠هـ / ١١٢٦م) إشارات إلى التجارة البحرية وما يتعرض له التجار وبضائعهم من الأسر والنهب على يد القراصنة. ونفهم من السؤال الموجه لابن رشد أن عملية فداء أسرى المركب الذي يسقط في يد العدو، واستخلاص البضائع الموجودة على ظهره، تتم دون تدخل التجار المأسورين، وفي مقابل فدية إجمالية. غير أن الطرف الذي يدفع الفدية غير واضح في السؤال. فهل يا ترى هو نائب عن السلطان؟ أو فاعل خير من الناس؟ المهم أن المركب المأسور استرجع من آسريه بكل ما فيه من تجار وبضائع. وبقي السؤال حول ما يفرض على الناس والأمتعة بعد ذلك(٢٠).

**لم يكن بالإمكان أن يظل الفقه الإسلامي بمنأى عن الاهتمام بقضايا الملاحة البحرية، مادام ركوب السفن واتخاذ الملاحة البحرية وسيلة مواصلات ومصدر رزق**

وأبو القاسم بن سرّاج الغرناطي (ت ٨٤٨هـ) له فتوى حول أسارى من المسلمين كانوا على ظهر مركب من الأعداء، رسا في ميناء للمسلمين، فهربوا من المركب. وطالب قراصنة المركب تعويضاً من أهل الميناء مقابل هرب «عبيدهم». فأفتى القاضي بأن ليس لهم أي تعويض، ولا يطالب المسلمون الهاربون بالعودة إلى المركب(٢١).

وهناك عدة نوازل أوردها أبو يحيى محمد بن عاصم الغرناطي (ت: بعد سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م) في كتابيه «جنة الرضا في التسليم لما قدّر الله وقضى» و«شرح تحفة الحكام». فمن ذلك نازلة حول المفقودين في القرقورة(٢٢) التي غرقت بالإسكندرية سنة ٧٩٩هـ: ما الوجه الذي يُتوصل به إلى وفاة من ذهب ليقسم ميراثه بين ورثته؟ وما حكم زوجات من لا تثبت وفاتهم؟ ومن ترك مالاً بيد وكيل هل يستمر نظر الوكيل أم يقسم المال بين الورثة؟ وهل للوكيل أن يعزل نفسه؟ وهل يصدّق في مقدار أجرة من وكله هو وجعل له النظر في المال الذي بيده إذا جعل الموكل له ذلك؟ وما حكم نفقات الزوجات في المدة التي تثبت الوفاة قبلها؟ وما يسترجع من ذلك؟ وبعد طرح الأسئلة نجد الإجابة المفصلة عليها جميعاً(٢٣).

ومن نوازل ابن عاصم كذلك نازلة حول مسلمين كانوا مسافرين بين الأندلس والمغرب، فأسرهم الإسبان. وقيّدوا ربابنتهم والجنود المسلحين منهم، وأرغموا الآخرين على التجديف بالمركب. فاستغلوا فرصة انشغال القراصنة وهجموا على عمّال المركب وهربوا به. فأفتى الفقهاء بأن المركب وما فيه ومن فيه - أي الأسرى الكفار - من نصيبهم غنيمة باردة، لا يطالبون بخمسها كغنائم الجهاد(٢٤). ذكرنا النوازل السابقة مع أن حديثنا هنا هو عن الرسائل المستقلة لا النوازل التي تأتي ضمن كتب فقهية. وذلك لسببين: أولهما لنوضح أن رسالة عبد السلام السلاوي المذكورة أتت في سياق تراث حافل بالنوازل المشابهة التي سبقه بها فقهاء المغرب والأندلس. والسبب الآخر هو أن بعض الباحثين ذكر أن كتب الفقه الإسلامي لم تتطرق إلى مسألة المفقودين في البحر(٢٥). فهذه النوازل تثبت مع رسالة عبد السلام عكس ذلك.

## رسائل أخرى

نذكر هنا بعض الرسائل المخطوطة التي حول البحر والملاحة مما لم يتيسر الاطلاع عليه:

- الدرة الثمينة في حمل السفينة، تأليف حسن بن عمار الشُرُنْبُلالي (ت ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٩م). وهي واحدة من ستين رسالة ضمن مجموع عنوانه «التحقيقات القدسية» أو رسائل الشرنبلالي (٢٦، ٢٧). ومن هذا المجموع عدة نسخ حول العالم(٢٨، ٢٩، ٣٠).

- فتح القهار في منع البناء في حريم الأنهار، ٣

ورقات، تأليف عـيد بن علي النمروسـي، الشافعي المذهب، الأزهري، المتـوفى بالمدينة المنورة سنة ١١٤٠هـ/ ١٧٢٨م(٣١). منها نسخة مخطوطة بالمتحف البريطاني(٣٢)، ومخطوطاته حاليًا تابعة للمكتبة البريطانية. ومنها نسخة أخرى بمكتبة جامعة برنستون بولاية نيوجرزي الأمريكية(٣٣).

## بحوث معاصرة

في عام ١٩٩٢م صدر كتاب «تونس وقانون البحار قديمًا وحديثًا» في مجلد ضخم يقع في نحو ألف صفحة. وقد اشتمل على الأقسام الآتية:

- نظرة تاريخية إلى علاقة تونس بالبحر.
- التشريع البحري التونسي الحديث.
- تونس وقانون البحار الجديد.
- ملاحق تحتوي على نصوص الاتفاقيات الدولية(٣٤). ولكن على العكس مما يوحي به عنوان هذا الكتاب القيّم فإننا لا نجد فيه أي ذكر لقوانين البحار الإسلامية، أي ما كتبه الفقهاء، وأفتوا به في هذا المجال. وفي عام ١٩٩٨م صدر كتاب بالإنجليزية عنوانه «القانون البحري الإسلامي: مقدمة»، مؤلفه حسن صالح خليلية، من عرب ١٩٤٨م بفلسطين المغتصبة. حصل على الدكتوراه من جامعة برنستون بأمريكا عام ١٩٩٥م في موضوع بحثه هذا. وهو يعمل في قسم الحضارات البحرية بجامعة حيفا، مما مكّنه من أن يزيد في البحث ويراجعه حتى تكوّن منه هذا الكتاب. وهو يحتوي على الأبواب الآتية:

- السفينة ومعداتها وسعتها وسلامة الناس عليها.
- المالكون والملاّحون والمسافرون.
- القانون التجاري البحري، وفيه فصول عن عقود الكراء، ونقل البضائع، وطرح حمولة المركب خوف الغرق، والاصطدام، وتعويض الإنقاذ.
- القانون البحري العسكري.
- المياه الإقليمية وحرية الملاحة والقانون البحري الدولي.
- قوانين العقوبات.
- العبادات في البحر

ويعتمد المؤلف كثيرًا على رسالة خلف بن أبي فراس السابق ذكرها، فقد ترد اقتباسات منها في معظم صفحات الكتاب، ولو أنه لا يذكر أيًا من الرسائل الأخرى الوارد ذكرها في الأسطر السابقة. ولكن المؤلف يعتمد أيضا على كتب فقه وفتاوى مالكية ومصادر تراثية أخرى، وعلى وثائق الجنيزة(٣٥)، وعلى نصوص معاهدات تجارية ودبلوماسية بين الحكام المسلمين وغيرهم. ومع أنه يركز في الفقه المالكي ومنطقة جنوب البحر المتوسط إلا أنه يوازن بينها وبين ما ورد لدى قوانين الأمم الأخرى، وبخاصة في الشرق الأقصى(٣٦).

وفي سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م صدر كتاب «إسعاف أهل العصر بأحكام البحر»، ويعتزم

> في رسالة الأزهري فوائد كثيرة سواء في العبادات أو المعاملات مما نسميه اليوم القانون البحري التجاري، فهي مرجع لا غنى للباحث عنه، وهي تستحق التحقيق بعناية جيدة

المؤلف جعل كتابه «أول موسوعة فقهية شاملة لأحكام البحر». وقد جاء الكتاب الذي بين أيدينا في أحكام العبادات. فيعتزم المؤلف إخراج كتاب ثان يبحث في المعاملات، أي الجهاد والفرائض والبيع والجنايات والديات والحدود والصيد والذبائح والأطعمة. ويعتزم إخراج كتاب ثالث في بعض الفوائد والمسائل والطرائف الخاصة بالبحر. وهو يقول في مقدمة كتابه (ص٥): إنه لم ير تأليفًا سبقه إليه أحد بأن أفرد للبحر أحكامًا فقهية. ولكنه يعود فيستدرك قائلا (ص١١): «قلت قبل قليل: لم أر على حد علمي من سبقني بهذا البحث. ولكن عثرت على رسالتين في الموضوع: الأولى باسم «الدرر الثمينة في حكم الصلاة في السفينة» لأحمد بن محمد الحموي (ت ١٠٩٨هـ). والثانية «الدرة

الثمينة في أحكام الملاح والسفينة» لحسن بن عبد الله الأزهري». ويقول عن الرسالة الثانية إنه لا يعلم عن نشرها شيئًا، أي إنه لم يطلع عليها، مع أن نسختها في الرياض، ومن اسمها يتبين أنها خاصة بالصلاة، والله أعلم. ولا يذكر أي رسالة أخرى من الرسائل التي ذكرت في الأسطر السابقة.

الجزء الذي صدر - كما قلنا - في أحكام العبادات. فهو يتحدث عن حكم ماء البحر، والطهارة والنجاسات في البحر، وأحكام الصلاة، والجنائز، والزكاة، والصيام، والمناسك. فهو يذكر أقوال الفقهاء في المذاهب السُّنِّيَّة الأربعة، ثم أحيانًا مذهب الظاهرية لابن حزم، ومذهب الزيدية. وبعد ذلك يرجّح أحد الآراء في المسألة التي يناقشها. ونجد في الكتاب إشارة إلى سماح المؤلف لأحد طلاب الدراسات العليا السعوديين اقتباس أفكاره قبل طباعته، إذ يقول (ص ١٢): «وقبل سنوات جاءني أحد الفضلاء وطلب مني بيانًا بأسماء الكتب والأبواب والفصول لبحثي هذا، وذلك لتسجيله من قبل بعض الإخوان، ومن ثم بحثه لنيل الدرجة العالمية من إحدى الجامعات». ومن العبارات الرائعة في هذا العمل القيم قول المؤلف موجها كلامه إلى القارئ: «وكم أتمنى أن تقع هذه الكلمات موقعها من قلبك، وأن يوفقني الباري للاستفادة مما يجود به قلمك، من تنبيه أو استدراك على خطأ» إلى آخر ما قاله، بتواضع العلماء وتجرد طلاب العلم، وناشدي المعرفة(٣٧).

وفي سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م صدر كتاب «أحكام البحر في الفقه الإسلامي». وهو رسالة دكتوراه نوقشت بجامعة الإمام في الرياض سنة ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م. وفيها نهج رسائل الدكتوراه الأخرى في الفقه المقارن الصادرة من تلك الجامعة، فيطرح المؤلف المسألة، ويذكر الأقوال المختلفة في الحكم عليها، ثم يرجّح رأيًا واحدًا منها. ويحتوي الكتاب على الأبواب والفصول الآتية:

- العبادات: الطهارة والصلاة والجنائز والزكاة والحج والجهاد.

المراجع والهوامش

١. ابن الرامي، محمد بن إبراهيم اللخمي: الإعلان بأحكام البنيان. تحقيق عبدالرحمن الأطرم. الرياض: دار إشبيلية، ١٤١٩هـ / ١٩٩٥م، ص ٢٦٨ و ٢٧٤.

٢. طاهر، مصطفى أنور: «كتاب أكرية السفن والنزاع بين أهلها». مجلة «الكراسات التونسية». المجلد ٣١ (١٩٨٣م)، العدد ١٢٣ - ١٢٤، ص ٥ - ٥٤. انظر ص٦.

٣. منصور، عبد الحفيظ: «قديم مخطوط فريد حول القانون البحري في الفقه المالكي». ضمن كتاب ندوة «تطور علوم البحار ودورها في النمو الحضري». تونس: وزارة الشؤون الثقافية، ١٩٧٦م، ص ٩٧ - ١١٢. وانظر ص ١٠٨ و١١١.

٤. النواتية هم ملاحو السفينة كما جاء في مختلف المعاجم، ومنها «المعجم الوسيط». ولكن العجيب أن أحد الباحثين يقول: إن هذه الكلمة هي نفسها كلمة «النوالي». وهي نسبة إلى قرية نواية بمحافظة المنيا المصرية. ولتكرر كلمة النواتي والنواتية في البرديات يقول الباحث: «وفي واقع الأمر إن ذلك يعد دلالة واضحة على اشتهار هذه القرية منذ القدم ربما بالزراعة أو بالصناعة أو بموقعها الجغرافي أو أشياء أخرى». انظر: سعيد مغاوري: «الألقاب وأسماء الحرف في ضوء البرديات العربية». القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ص ٨٤٢ - ٨٤٣.

٥. الوسق هو حمل العربة أو السفينة. وأوسقوا السفينة أي حملوها.

٦. العتبية كتاب في الفقه المالكي من تأليف محمد بن أحمد العتبي القرطبي (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م). ويسمى أيضا «المستخرجة».

7 - Udovitch, A.L.: "An Eleventh Century Islamic Treatise on the Law of the Sea", Annales Islamologique, vol. 27 (1993), pp. 37-54

٨. الطباع، إياد خالد: «جلال الدين السيوطي معلمة العلوم الإسلامية». دمشق: دار القلم، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ص ٣٤٧.

٩. إقبال، أحمد الشرقاوي: مكتبة الجلال السيوطي. الرباط: دار المغرب، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ص١٦٨. والرسالة مطبوعة ضمن مجموعة «الحاوي للفتاوي» للسيوطي.

١٠. إقبال: المرجع السابق، ص ٣٧٤ و ٣٧٥.

١١. الحبشي، عبد الله بن محمد: معجم الموضوعات المطروقة. ط٢. أبوظبي: المجمع الثقافي، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، ص٢٠٣، ٢٠٤، ٦٢١.

١٢. ابن نجيم، زين الدين بن إبراهيم: رسائل ابن نجيم الاقتصادية، والمسماة الرسائل الزينية في مذاهب الحنفية. تحقيق محمد أحمد سراج وعلي جمعة محمد. الكويت: بنك الكويت الصناعي، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، ص ٢٤٩-٢٥٥.

١٣. بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي. تعريب محمود فهمي حجازي وعمر صابر عبد الجليل. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القسم الثامن، ١٩٩٥م، ص ١٤٩.

١٤. الزركلي، خير الدين: الأعلام، قاموس تراجم. بيروت: دار العلم للملايين، ط٤ (وما بعدها)، ١٩٨٠م. ترجمة خير الدين الرملي.

١٥. سيد، فؤاد: فهرس المخطوطات المصورة. ج١. القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ط٢، ١٩٨٨م، ص ٢٦٨-٢٦٩.

١٦. معهد المخطوطات. «نوادر مخطوطات الخزائن الخاصة بدمشق». مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ٥ الجزء الثاني (جمادى الأولى ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م)، ص٢١٢.

١٧. النازلة هي الواقعة أو الحدث. ثم تطور معناها ليصبح معنى النوازل (جمع نازلة) الفتاوى المختصة بمسائل حدثت بالفعل. ولا تتناول من المادة الفقهية إلا ما يتعلق بهذه المسائل من أحكام، مع إمكانية اجتهاد المفتي ليراعي ظروف النازلة والملابسات المحيطة بها والأعراف المحلية السائدة. انظر: محمد حجي. نظرات في النوازل الفقهية. الرباط: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ٣٠ - ٣٩.

١٨. حجي، محمد: جولات تاريخية. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٥م. جزآن. ج١. ص ١٦٩-١٧٦.

١٩. ابن سهل، أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي: الإعلام بنوازل الأحكام أو نوازل ابن سهل. تحقيق نورة التويجري. الرياض: المحققة، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م. ص ٧٧٢.

٢٠ - حجي، جولات تاريخية، ج١ص ٣٢ - ٣٣.

ـ المعاملات: البيع والضمان والإجارة وإحياء الموات ومتفرقات أخرى.

ـ الجنايات والحدود والأيمان والأطعمة والصّيد ومسائل أخرى. ولا نجد في الكتاب أي ذكر للرسائل التي ذكرناها في الأسطر السابقة، وإنما نجد المؤلف يقول: «الأحكام الفقهية المتعلقة بالبحر لم تجمع مع كثرتها في مؤلف واحد(٣٨). وقد مرّ بنا قوله: «لم يفرد الفقهاء ـ رحمهم الله ـ المفقود في البحر بحكم خاص به»(٣٩). عند حديثنا عما كتبه الفقهاء عن المفقودين في البحر.. وعلى كل فإن رسالة الدكتوراه هذه بداية الطريق لباحث نتمنى له التوفيق، ونأمل منه مزيداً من العطاء بإذن الله.

## كلمة ختامية

نأمل أن تكون هذه بداية البحث عن الرسائل الفقهية حول البحر والملاحة البحرية، إذ لا يزال المجال يتسع للكثير من الإضافات. فهنا رجعنا إلى بعض المراجع وفهارس المخطوطات المذكورة في الهوامش لنستقي منها المعلومات التي مرت بنا. ولكن يبقى العشرات منها مما يمكن للباحثين الرجوع إليه للبحث عن المزيد. كما يمكن الرجوع إلى قواعد المعلومات حول المخطوطات، وهي متوافرة في بعض مراكز البحث. فمن هذه الفهارس وقواعد المعلومات يمكننا معرفة المزيد عن نسخ المخطوطات التي ذكرناها، كما يمكننا اكتشاف المزيد مما لم يذكر هنا. والمجال مفتوح كذلك للبحث عن تراجم المؤلفين الذين ذكرناهم، وغيرهم ممن تكتشف مخطوطاتهم بمزيد من البحث.

والرسائل التي ذكرناها ما زال أغلبها مخطوطاً لم ينشر. وهنا يأتي دور المحقق الجاد الذي يعطي البحث حقه من الاستقصاء والأناة والتعمق، ليُخرج لنا تلك الرسائل في قالب يفيد البحث العلمي، ويكون عمله مثالاً يحتذى. لا كما تخرج بعض المؤلفات التراثية، ولم يفعل «المحقق» فيها شيئاً سوى إضافة اسمه إلى الكتاب، فلا تصحيح للأخطاء، ولا شرح للمفردات والمصطلحات، ولا مقابلة بين النُّسخ، ولا اعتناء بالفهارس الأبجدية، ولا أي اطلاع على مستلزمات التحقيق.

---

٢١. بن شريفة، محمد: «نوازل غرناطية لابن عاصم الابن»، ضمن كتاب التراث الحضاري المشترك بين إسبانيا والمغرب، (سجل ندوة)، الرباط: أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٩٣م، ص ٢١٥ ـ ٢٣٦. انظر ص ٢٢٤.

٢٢. القرقورة هي نوع من السفن الشراعية الكبيرة الحجم، كان حجم بعضها يصل إلى ثلاثة أدوار. واستعملت للشحن ولنقل المؤن في الحروب. انظر: درويش النخيلي، «السفن الإسلامية على حروف المعجم»، الإسكندرية: جامعة الإسكندرية، ١٩٧٤م، ص ١٢٠-١٢٥.

٢٣. بن شريفة، المرجع السابق.

٢٤. بن شريفة، المرجع السابق.

٢٥. بن فايع، عبد الرحمن بن أحمد: أحكام البحر في الفقه الإسلامي، جدة: دار الأندلس الخضراء، ١٤٢١هـ /٢٠٠٠م،ص ٦٧٣.

٢٦. البغدادي، إسماعيل باشا: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إستنبول: مطبعة وكالة المعارف، ج١، ص ٢٩٣.

٢٧. المعلمي، عبد الله بن عبد الرحمن: «معجم مؤلفي مخطوطات مكتبة الحرم المكي الشريف»، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص٣٣٤ ـ ٣٣٥.

٢٨. الحبشي، معجم الموضوعات المطروقة، ص ٢٠٣، ٢٠٤، ٦٢١. وهو لا يذكر مؤلف هذه الرسالة.

29 - Mach, R. Catalogue of Arabic Manuscripts, Yahuda Section in the Garrett Collection, Princeton University Library, Princeton: Princeton University Press, 1977, p. 109.

٣٠. بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، القسم الثامن، ص ١٦٠، ١٦٢.

٣١. كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين، بيروت: المؤلف، د.ت.، ج٨ ص ١٧.

٣٢. الحبشي، المرجع السابق، وهو ينسب الرسالة إلى عبيد بن علي المرعشي.

33 - Hitti, P. K. et al. Descriptive Catalog of the Garrett Collection of Arabic Manuscripts in the Princeton University Library, Princeton: Princeton University Press, 1938, p. 545.

٣٤. مرسيط، محمد المولدي: تونس وقانون البحار قديماً وحديثاً، تونس: دار بو سلامة، ١٩٩٢م.

٣٥. وثائق الجنيزة عبارة عن مئات الألوف من الوثائق المكتوبة على ورق أو جلد أو بردي، كانت محفوظة في غرفة دفن بمعبد يهودي بمصر، لاحتوائها على عبارات دينية. وتلك الغرفة تسمى الجنيزة (أي المدفن، من كلمة جنازة). والوثائق هي معاملات تجارية، ووصفات طبية، وسجلات قضائية، وعقود زواج وأحوال شخصية، وغيرها من الوثائق المهمة التي جعلتها مصدر عدة دراسات منذ اكتشافها وبدء تسريبها إلى خارج مصر عام ١٨٩٠م. وهي محفوظة في تسع عشرة مكتبة عالمية. أكثر هذه الوثائق مكتوبة باللغة العربية ولكن بالحروف العبرية، ولكن بينها نسبة كبيرة من الوثائق الإسلامية المكتوبة بالعربية. وسبب احتفاظ اليهود بها هو أنهم استعملوا الوثائق الإسلامية للكتابة على هوامشها بالعبرية، لغلاء الورق. وتعود تواريخ هذه الوثائق من القرن الرابع الهجري إلى القرن العاشر الهجري.

36 - Khalilieh, H. S. Islamic Maritime Law, An Introduction, Leiden: Brill, 1998.

٣٧. الحوالي الشمراني، عبد الله بن ياسين: «إسعاف أهل العصر بأحكام البحر»، الرياض: دار الوطن، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، ص ٥، ١١، ١٢.

٣٨. بن فايع، المرجع السابق، ص ٩.

٣٩ ـ بن فايع، المرجع السابق، ص ٦٧٣.

# علوم التعمية (الشفرة وكسرها) في التراث العربي

محمد مراياتي
بيروت - لبنان

**كان للعرب والمسلمين مدارس في الفكر العلمي، منها ما اتبع مدارس قديمة، ومنها ماكان أصيلاً. فمن المدارس العربية الإسلامية الأصيلة مدرسة علماء الجبر، وعلماء المثلثات، ومدرسة علماء اللسانيات والصوتيات ومدرسة علوم الإدارة وغيرها.**
**نضيف في هذا البحث مدرسة علمية جديدة لم تكن معروفة قبلاً، لطبيعة عملها وهي المدرسة العربية في علوم التعمية (المعروفة الآن بعلوم الشفرة أو الكتابة السرية).**

ولعلوم التعمية Cryptology فروع منها التعمية Cryptography بالتبديل أو الإعاضة أو بالمعجم Code، ومنها علوم استخراج المعنى Cryptanalysis، وعلوم الكتابة الخفية Steganography، سواء بالأحبار السرية أو بالإخفاء (في الصورة أو في النص)، ومنها أيضًا التعمية البديعية (التورية، الرمز، الألغاز، الملاحن..).

ولعلوم التعمية في عصرنا الحالي أهمية بالغة في مجالات المعلوماتية والإنترنت والتجارة الإلكترونية والتداولات المالية العالمية، وفي مجالات الأمن والدفاع، ومجالات البث التلفزيوني وغيرها. وهي - مثلاً - من شروط نمو التجارة الإلكترونية والتداول المالي على الإنترنت، ولا بدَّ منها لحماية المعلومات في الحواسيب.

تبين هذه الورقة أن علم التعمية علم عربي الولادة والنشأة، فقد وُضعت أول مخطوطة فيه (حصلنا على نسخة عنها) في بغداد قبل سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣م على يد الكندي الذي أرسى مبادئه؛ وذلك لأسباب سنتعرض لها. وقد توالى العلماء العرب المسلمون على دراسة هذه العلوم ليشكلوا مدرسة علمية مستمرة العطاء، خرجت بعدد من النظريات والأفكار الأصيلة في هذا العلم. بدءًا من الخليل بن أحمد الفراهيدي، ثم جابر بن حيّان، فيعقوب الكندي، وأحمد بن وحشية، وابن طباطبا، وابن وهب الكاتب، وأسعد بن مماتي، وابن دنينير، وعلي بن عدلان، وعلي بن الدريهم، وعلي بن أيدمر الجلدكي،

فأحمد أبي القاسم العراقي، ومحمد بن الحسن الجرهمي، وذو النون المصري وغيرهم.

وستتعرض الورقة إلى التفاعل الذي قام بين أعلام هذه المدرسة والاقتباسات التي قام اللاحقون بأخذها من السابقين.

أما أهم المؤلفات التي ولدتها هذه المدرسة فقد اكتشف معظمها في مكتبات إسطنبول وقمنا بتحقيق ١١ منها ونشرها وأربعة أخرى قيد الإعداد للنشر حاليًا، وكلها باسم مجمع اللغة العربية بدمشق.

إن الوسائل التي كانت مستخدمة في علوم التعمية هي الورق والقلم والخرز الملون وعقد الأصابع وشبكات الاتصالات البريدية وغيرها. أما الآن فلا يزال الورق والقلم مستعملين إلا أن الأجهزة الميكانيكية (المسننات) والإلكترونية والحواسيب وشبكات الاتصال الإلكترونية أصبحت هي الغالبة.

تقع أسس علوم التعمية في مجالات متعددة، أهمها: الرياضية، مثل علم الأرقام وعلم الإحصاء والاحتمالات والجبر البولي ونظرية التعقيد ومعالجة الإشارة وغيرها، وتليها الأسس اللسانية من علوم الصوتيات والصرف والنحو والدلالة واللسانيات الحاسوبية، يضاف إليها علوم الإدارة وعلوم الإلكترونيات والمعلوماتية.

لقد تطور هذا العلم على مدار تطور المدرسة العربية فيه بدءًا من تحليل طرائق التعمية وتبويبها وتطور استعمال المفتاح إلى طرائق استخراج المعنى وخوارزمياته.

لا يزال البحث جاريًا لإيجاد مخطوطات أخرى في هذا العلم ولإيجاد الوثائق الورقية حول الاستخدام والممارسة الفعلية لعلوم التعمية في الكتب والمراسلات والوثائق المتوافرة في أرشيف الوثائق التاريخية في المنطقة العربية والإسلامية.

من الضروري عند دراسة التراث العلمي العربي الاعتناء بالمدارس العلمية العربية بدلاً من العلماء كل بمفرده. لقد كان العلماء العرب في كل حقل من حقول العلم يتابعون ما قام به أسلافهم من العلماء العرب أو من غيرهم. ويمكن لمتتبع التراث العلمي العربي أن يجد مدارس علمية متواصلة تطورت مع الزمن بمعلوماتها وبنظرياتها وبآرائها.

من المدارس الأصيلة المعروفة: مدارس علماء الجبر، وعلماء المثلثات، وعلماء اللسانيات، وعلماء الإدارة، وعلماء الفلك، وغيرهم. وسنتعرض في هذا البحث لمدرسة أصيلة غير معروفة قبلاً، وهي المدرسة العربية في علوم التعمية Cryptology.



الكندي

لقد جرى اكتشاف هذه المدرسة وتتبع علمائها ومؤلفاتهم خلال السنين الـ ٢٠ الأخيرة، وتم ذلك من قبل فريق عمل كان لي الشرف في تشكيله، وكان مؤلفًا من الدكتور يحيى مير علم، والدكتور حسان الطيان، والأستاذ مروان بواب، وقد قمنا بحصر ما أمكن من عناوين المخطوطات في هذا العلم وأماكن وجودها، وقمنا بالحصول على صور عنها، وقد جرى تحقيق ١١ مخطوطًا منها نشرت في سلسلة كتب تصدر عن مجمع اللغة العربية بدمشق بعنوان «علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب»، وقد صدر الجزء الأول منها عام ١٩٨٧م، وفيه دراسة وتحقيق لثلاث مخطوطات، وصدر الثاني عام ١٩٩٧م، وفيه دراسة وتحقيق لثماني مخطوطات. ونعمل الآن على نشر الجزء الثالث، وفيه دراسة وتحقيق لأربع مخطوطات. ونتابع أيضًا اكتشاف مخطوطات جديدة، وكذلك إيجاد وثائق حول الاستخدام والممارسة الفعلية للتعمية في الكتب والمراسلات والوثائق المتوفرة في

أرشيف الوثائق التاريخية في المنطقة العربية والإسلامية.

### فروع علوم التعمية

التعمية هي تحويل نص واضح Plain Text إلى نص غير مفهوم أي (معمًّى) Cryptogram أو Ciphered text باستعمال طريقة محددة تعالج فيها حروف النص باستخدام ما يسمى بالمفتاح، ويتم ذلك بغية التخاطب بين فريقين يعرفان المفتاح بحيث لا يفهم النص من لا يملك هذا المفتاح، وتسمى هذه العملية في أيامنا «بالتشفير». أما استخراج المعمى فهو قيام شخص ثالث من غير المتخاطبين ممن لا علم له بالمفتاح بمعالجة النص المعمًّى والعودة به إلى النص الواضح، وتسمى هذه العملية في أيامنا «بكسر الشفرة».

وعلم التعمية Cryptography هو أساس علوم التعمية، وكان يعد من العلوم الخفية. وتقسم طرائق التعمية التقليدية، والتي لم يضف إليها شيء جديد حتى أواسط القرن العشرين ثلاثة أنواع، ذكرها الكندي واضع هذا العلم في مخطوطته التي تعدّ أول مرجع معروف في هذا العلم وهي: التعمية بتبديل مواقع الحروف Transposition، والتعمية بالإعاضة Substitution، والتعمية بإضافة حروف «أغفال» nulls أو حذف حروف. ويبين الشكل رقم(١) مثالاً بسيطاً لتوضيح هذه الطرائق الثلاث:

- تبديل مواقع حروف الجملة: «محمد وعلي» وذلك وفق المفتاح القائل بأن تقلب مواقع الحروف ضمن كل كلمة، حيث تصبح الجملة: «دمحم ويلع».

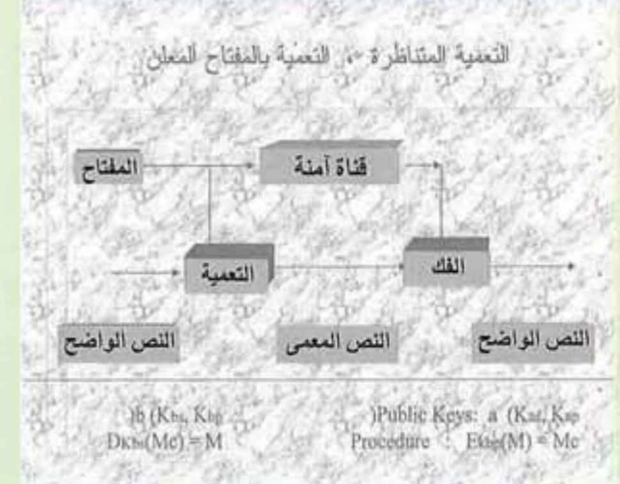
- الإعاضة مع المفتاح القائل باستعاضة الحرف بشكل الحرف الذي يليه في الأبجدية العربية، فيستعاض عن الألف بشكل الحرف «ب» وعن الباب بشكل الحرف «ج» وهكذا حتى الواو التي يستعاض عنها بشكل الحرف «ي» والياء بشكل الحرف «أ»، فتصبح الجملة: «ذنخن ي امغ».

- بإضافة حروف أغفال لا قيمة لها، مثل إضافة السين بعد كل ثلاثة أحرف مثلاً، فتصبح الجملة المعماة: «ذنخسن ي اسمع».

أما الذي أرسل إليه هذا النص المعمًّى، ويعرف المفاتيح الثلاثة، فإنه سيقوم بعكس العمليات الثلاث للعودة إلى النص الواضح «محمد وعلي». ويبين الشكل رقم (٢) نموذج التراسل المعاصر باستعمال التعمية وفق الطرائق التقليدية أعلاه حيث يجري خلال المفاتيح عبر قناة آمنة، أما تبادل الرسائل المعماة فيمكن أن يجري خلال قنوات اتصال غير آمنة.

وعلم استخراج المعمًّى (أو كسر الشفرة) Cryptanalysis or code breaking أكثر تعقيداً من علم التعمية، ويحتاج إلى معارف في الرياضيات واللسانيات (وفي أيامنا إلى أدوات معلوماتية جبارة). وأثبتت أبحاثنا أن يعقوب



الكندي، فيلسوف العرب (٨٠١ - ٨٧٣م) هو مؤسس هذا العلم، وواضع أول كتاب فيه بعنوان «رسالة في استخراج المعمى» وهي رسالة مذهلة في معلوماتها.

ويذكر الكندي أن طرائق استخراج المعمى تعتمد على ثلاثة مبادئ: الأول هو إحصاء تواتر الحروف أو الأشكال أو الرموز في النص المعمّى بالإعاضة، وموازنته مع إحصاء تواتر الحروف في اللغة التي كتب بها النص المعمّى، كالعربية مثلاً. ويقدم الكندي إحصاءه لتواتر الحروف في اللغة العربية، كما يذكر أن هذا المبدأ لا ينطبق إلا عندما يكون النص طويلاً إلى حد يسمح فيه عدد الحروف بانطباق القانون الإحصائي عليه (قانون الأعداد الكبيرة في الإحصاء!). أما المبدأ الثاني فهو الاستفادة من تقارن الحروف وتنافرها في اللغة، فهناك حروف تتوالى كثيراً مثل الألف واللام في «ال» التعريف، فتواترها عال جداً، لذلك يجب البحث عن هذا التقارن والاستفادة منه في استخراج المعمّى. وهناك حروف لا تقترن تقديماً، وأخرى تقترن تأخيراً، أي لا يأتي بعضها قبل بعض أو بعضها بعد بعض. ويعطي الكندي في رسالته دراسة وافية ومدهشة عن اقتران الحروف وتنافرها، وعن الكلمات الثنائية والثلاثية الأكثر تواتراً في اللغة العربية مثل «من، عن، أن، في..» و«إلى، على، بلا..»



جابر بن حيان

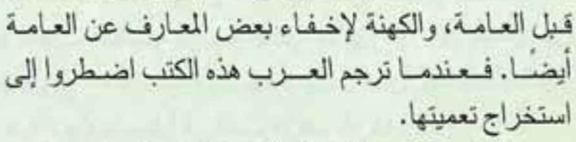
أما المبدأ الثالث فهو «الكلمة المحتملة» Probable Word، أي ما يستعمل في الرسائل أو النصوص من عبارات الاستهلال والألقاب وما إليها. هذه المبادئ الثلاثة لا تزال صحيحة ومستعملة في استخراج المعمى حتى يومنا هذا. ويعد الكندي مخترع هذا العلم وواضع مبادئه.

ومن فروع علم التعمية «التعمية بالإخفاء» Conceal-ment cipher. إذ يجري فيه تضمين النص الواضح بشكل خفي في حامل آخر، كأن يكون قصة أو موضوعاً علمياً أو صفحة محاسبة أو صورة أو لوحة، وذلك باستخدام طرائق مختلفة، ويسمى هذا العلم Steganography.

أخيراً هناك التعمية البديعية التي استعملها العرب كثيراً، وهي ليست علماً أساسه الرياضيات واللسانيات (ومؤخراً المعلوماتية)، بل تعتمد على الفطنة والذكاء والدعابة، ومن الأمثلة عليها: التورية، والرمز، والألغاز، والملاحن، والمعاياة، والمحاجاة، وما إليها، ونحن لسنا بصدد معالجة هذا النوع من التعمية في دراستنا هذه.

## التطبيقات والأهمية

إن استعمال الإنسان للتعمية (وليس وضعها كعلم) قديم قدم الكتابة، وقدم التراسل بين بني البشر، فقد وجدت بعض الكتابات الهيروغليفية المعماة، ١٩٠٠ سنة قبل الميلاد، كما استعملها يوليوس قيصر. والكثير من العلماء الذين وصلت كتبهم إلى العرب، وترجموها إلى العربية احتوت على بعض المقاطع المعماة بما كان يدعى بقلم هؤلاء العلماء. ولعل هذا هو أحد الأسباب التي دعت الكندي إلى دراسة هذا الاستخدام ووضعه كعلم، ومن ثم وضع أسس علم استخراج المعمى واكتشاف مبادئه. فقد استعمل علماء الكيمياء التعمية لإخفاء بعض تفاعلاتهم، وكذلك الصيادلة لإخفاء معرفة الأعشاب السامة من قبل العامة، والكهنة لإخفاء بعض المعارف عن العامة أيضاً. فعندما ترجم العرب هذه الكتب اضطروا إلى استخراج تعميتها.



ومن الاستعمالات التقليدية التراسل العسكري والدبلوماسي قديماً وحديثاً. أما في عصرنا الحالي فتأخذ التعمية أبعاداً كبيرة جداً مع عصر المعلومات والاتصالات والإعلام، فقد أصبحت التعمية جزءاً لا يمكن الاستغناء عنه في التعامل مع هذه التكنولوجيات الحديثة، ومع مفرزاتها، كالتداولات المالية وعولمة التجارة والتجارة الإلكترونية electronic-commerce، ومنها التجارة عبر الإنترنت، والبريد الإلكتروني، وشبكات الاتصال بين

المصارف وأسواق المال، ومحطات البث التلفزيوني والإذاعي المعماة التي تفك تعميتها بشراء بطاقات الاشتراك الشهرية فيها.

أما تطبيقات التعمية في المعلوماتية وفي الحاسوب واستخداماته فهي كثيرة، فمن حفظ المعلومات ضمن قواعد المعطيات databases بشكل لا يسمح بالدخول عليها إلا لمن لهم الحق بذلك، إلى تبادل المعلومات بين الحواسيب بشكل آمن، إلى مختلف نواحي أمن الحاسوب وشبكاته التي لا غنى عنها الآن في أي نظام حاسوبي ذي قيمة.

أخيراً، من التطبيقات المعروفة لاستخراج المعمى اكتشاف اللغات البائدة كما جرى بالنسبة إلى الهيروغليفية والبابلية والسومرية ولغة إيلا واللغة الخطية B (LinearB) وغيرها، فقد كان للعرب أيضاً باع في هذا المقام نقوم بتحقيق بعض المخطوطات فيه، كرسالة ابن وحشية «شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام» وغيرها.

أما الأهمية التي تتمتع بها علوم التعمية وتطبيقاتها فهي غنية عن الذكر في المجالات العسكرية والأمنية والاقتصادية، وتدل بعض الإحصاءات على أن التداول المالي السنوي للصناعة، وخدمات التعمية هو نحو عشرة بلايين دولار، وبمعدل نمو يساوي ٥٩٪ سنوياً، ويتجاوز عدد الشركات العاملة في هذه المجالات حالياً في العالم الألف شركة.

**لعلوم التعمية في عصرنا الحالي أهمية بالغة في مجالات المعلوماتية والإنترنت والتجارة الإلكترونية والتداولات المالية العالمية، وفي الأمن والدفاع، ومجالات البث التلفزيوني وغيرها**

### متابعة اكتشاف المخطوطات العربية في علوم التعمية

لقد اكتشفنا ١٥ مخطوطاً عربياً في علوم التعمية، أُلفت بين القرنين الثاني والثامن الهجريين، وقمنا بتحقيق ١١ مخطوطاً منها حتى الآن ونشرها، وما زال البحث جارياً عن مخطوطات أخرى، وعن وثائق استخدام التعمية وممارستها واستخراجها.

وقد أكدت دراسة هذه المخطوطات الأمور الآتية:

- العرب هم الذين وضعوا أسس علوم التعمية وطوروها إلى مرحلة ناضجة بدءاً من القرن الثاني للهجرة، الثامن للميلاد.
- للعرب مدرسة متكاملة في هذه العلوم سنأتي على ذكر أعلامها مع أهم إنجازاتهم، وموقعها ضمن تاريخ هذا العلم.
- أوجد العرب أسساً أصيلة في علمي التعمية واستخراج المعمى لاتزال في الاستخدام حتى يومنا هذا.
- عند دراسة العرب لاستخدام المعمى، عالجوا اللغة العربية كمياً من النواحي الإحصائية (اللسانيات الحسابية)، والصوتية والصرفية والنحوية والدلالية ووضعوا نظريات ونماذج Models في ذلك تشكل مدرسة مهمة جديرة بالدراسة والتحليل؛ لأنها أتت على نظريات في هذه المجالات أعيد اكتشافها في القرن العشرين.
- أولى المخطوطات الغربية في علوم التعمية كانت من قبل ألبرتي الإيطالي في القرن الخامس عشر.

أما المخطوطات الأربع الجديدة التي يجري الإعداد لنشر تحقيق لها مع دراسة تحليلية فهي:

- «شوق المستهام في معرفة رموز الأرقام» لابن وحشية.
- الكتاب الجامع لصاحب كنز الكنوز في حل ما أشكل من الرموز المستقى من المخطوطات: مخطوط كتب لعبدالملك بن مروان سنة ٧٣هـ ومخطوط كتب للمأمون من قبل أيوب بن مسلمة سنة ٢١٦هـ، ومخطوط «الحروف المتفرقة» على وضع القاسم بن أحمد العراقي.
- القسم الخاص بالتعمية من مخطوط أيدمير الجلدكي: «درة الغواص وكنز الاختصاص في أسرار الخواص».
- مخطوط لـ (ثوبان إبراهيم ذو النون المصري): «حل الرموز وبرء الأسقام في كشف أصول لغات الأقلام».

### نشأة علم التعمية وبداية المدرسة العربية فيه

على الرغم من وجود إشارات حول قيام بعض العلماء العرب بممارسة استخراج المعمّى، كالخليل بن أحمد الفراهيدي، أو الكلام عن التعمية، وعن الأقلام كإحدى المخطوطات المنسوبة إلى المسلماني في عهد عبدالملك بن

مروان، إلا أن الرسالة العلمية الأولى في استخراج المعمى هي رسالة يعقوب بن اسحق الكندي «رسالة في استخراج المعمى»، التي تعد المرجع الأول في تاريخ هذا العلم، وتجعل الكندي أبا هذا العلم، وبذلك تكون المدرسة العربية في علوم التعمية قد ولدت في بغداد على يد الكندي (ت: نحو ٢٦٠هـ/٨٧٣م). وقد كتب الكندي هذه الرسالة بطلب من أبي العباس أحمد بن الخليفة المعتصم.

الكندي أفضل العلماء زمانًا ومكانًا وتأهيلاً لوضع هذا العلم واكتشاف أسسه، ولا غرابة في ذلك للأسباب الآتية:

فأهلية الكندي مسلم بها، فهو العالم المقرب من عدة خلفاء هم: المأمون والمتوكل والمعتصم، وهو أستاذ لأولاد الخلفاء، كأحمد بن المعتصم، وهو المشرف على «بيت الحكمة» في عهد المعتصم، وبيت الحكمة نطلق عليه الآن اسم مركز الدراسات والبحوث العلمية الوطني، كان كعبة العلماء، وفيه أهم مكتبات بغداد، وفيه قاعات المحاضرات التي اختص كل منها بعالم من العلماء، وارتبطت فيه مراصد فلكية، كمرصد الشماسية، ومرصد دمشق حيث خدمت هذه المراصد في وضع خريطة العالم المأمونية المسماة «صورة الأرض»، وارتبطت فيه أيضًا مستشفيات، وجرت فيه نشاطات الترجمة في العلوم من كل لغات العالم التي كانت سائدة في ذلك العصر وما قبله، ولعل النشاط الأخير، أي ترجمة الكتب إلى العربية، هو السبب المباشر في اطلاع الكندي على التعمية، ومن ثم في دراسته لها وتصنيف طرائقها، وكذلك هو السبب المباشر في اكتشاف الكندي لعلم استخراج المعمّى Crypanalysis أو code breaking، لأنه من المعروف في ذلك العصر أن أجزاء من هذه الكتب كانت معماة، وكان على «بيت الحكمة» استخراج تعميتها قبل ترجمتها ومن ثم كانت الحاجة أم الاختراع. والكندي يشير إلى هذا في مقدمة رسالته «رسالة في استخراج المعمّى».

أما مكانًا فبغداد كانت عاصمة الخلافة العباسية، وموئل علماء العصر، حيث انتشر الوراقون (دور النشر)، وتعددت مصانع الورق والحبر في شوارعها في الرصافة، والشماسية بالقرب من بيت الحكمة، كما انتشرت المكتبات، وكثر النساخ، وكثر العلماء فهذا القفطي يذكر في كتابه ترجمة لـ ٤٠٩ علماء في العلوم التطبيقية والفلسفة (الحكمة)، وهذا سنان بن ثابت يفحص ويجيز من بيت الحكمة ٨٦٠ طبيبًا أيام الخليفة المقتدر، وهذا ابن أبي أصيبعة يذكر ترجمة لـ ٣٦٨ طبيبًا مشهورًا، وهذا الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ، يذكر في كتابه زهاء ٨٠٠٠ ترجمة للعلماء الذين عاشوا في بغداد أو وفدوا إليها، وهذا الحاجي خليفة يذكر في كتابه «كشف الظنون» أكثر من ١٨٥٠٠ كتاب علمي. كما أن بعض الإحصاءات تدل على أن الكتب اليونانية التي ترجمت إلى العربية تزيد على ٥٠٠ كتاب في شتى العلوم والفنون.

**نشأة علوم التعمية تعود إلى الحاجة إلى استخراج المعمّى لحل الأقلام المستعملة في كتب الحكمة التي تترجم، والتقدم في علوم اللغة والصوتيات وإحصاء الحروف والصرف والنحو، والرياضيات، وعلوم الإدارة**

وبغداد بها دواوين الخلافة التي تراسل أقاصي المعمورة من الصين إلى الأندلس، كما تعالج الثورات والحركات الانفصالية، ومراسلاتها هنا وهناك. وهذا كله يستدعي الحاجة ويساعد - بالضرورة - على ولادة علوم التعمية في المكان.

أما زمانًا فالعلوم اللازمة لولادة علم التعمية قد توفرت، فعلم الحساب والأرقام العربية ومبادئ الجبر والمقابلة التي أوجدها الخوارزمي في بيت الحكمة نفسه، أصبحت في متناول العلماء بسهولة مما يجعل عملية إحصاء الحروف وإيجاد النموذج الإحصائي لحروف العربية من قبل الكندي بسيطة. والعلوم التي نسميها الآن باللسانيات كانت قد تطورت بشكل كبير في تلك الحقبة مما جعل دراسة تآلف الحروف وتنافرها والتمييز بين الحروف الأصلية والحروف المتغيرة من قبل الكندي أيضًا عملية سهلة.

ونخلص من ذلك كله إلى أن نشأة علوم التعمية تعود إلى الأسباب الآتية:

- الحاجة إلى استخراج المعمى لحل الأقلام المستعملة في كتب الحكمة التي كانت تترجم إلى العربية.

ـ التقدم في علوم اللغة والصوتيات وإحصاء الحروف والصرف والنحو.

ـ التقدم في علوم الرياضيات: الأعداد والحساب والجبر والمقابلة..

ـ انتشار الكتابة والقراءة بشكل كبير وتفشي تكنولوجياتها.

ـ تقدم علوم الإدارة (الدواوين والكتاب) واتساع رقعة الدولة وكثرة مناوئيها والحاجة إلى التعمية واستخراجها لإدارة الدولة.

## أعلام المدرسة العربية في علوم التعمية

لقد نسب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي «كتاب في المعمى» وإلى جابر ابن حيان رسالة في التعمية بعنوان «حل الرموز ومفاتيح الكنوز»، إلا أننا لم نجد بعد أثراً لهما، أما أقدم ما وجدنا فهي «الرسالة في استخراج المعمى» للكندي؛ إذ تبدأ المدرسة العربية في علوم التعمية بالكندي، ومما يثبت هذه الفرضية أن كل من تبعه من أعلام المدرسة العربية قد أشار أو اقتبس من رسالته، ولم يشر إلى كتاب الخليل أو مؤلف جابر، فقد ذكر الكندي صراحة ابن الدنينير الذي جاء بعده بأربعة قرون، كما نقل عن مخطوط الكندي ابن عدلان الذي عاصر ابن الدنينير.

## أعلام المدرسة العربية في علوم التعمية

الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ ـ ١٧٠هـ/ ٧١٨ ـ ٧٨٦م)، وجابر بن حيان (ت: ٢٠٠هـ / ٨١٥م)، ويعقوب الكندي (ت: ٢٦٠ هـ / ٨٧٣م)، وأحمد بن علي بن وحشية (ت: بعد ٢٩١هـ / بعد ٩١٤م)، وابن طباطبا (ت:٣٢٢هـ / ٩٣٤م)، وابن وهب الكاتب (قرن ٤ هـ ، قرن ١٠م)، وأسعد بن مماتي (٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ ، ١١٤٩ ـ ١٢٠٩م)، وابن دنينير (٥٨٣ ـ ٦٢٧هـ ، ١١٨٧ ـ ١٢٢٩م)، وعلي بن عدلان (٥٨٣ ـ ٦٦٦هـ ، ١١٨٧ ـ ١٢٦٨م)، وعلي بن الدريهم (٧١٢ ـ ٧٦٢هـ ، ١٣١٢ ـ ١٣٥٩م)، وعلي بن أيدمر الجلدكي (ت: بعد ٧٤٢هـ / بعد ١٣٤١م)، وأحمد أبو القاسم العراقي (مجهول)، ومحمد بن الحسن الجرهمي (مجهول)، وذو النون المصري(ت: ٢٤٥هـ / ٨٥٩م).

ويمكن العودة إلى المرجعين (١) و (٢) للتفاصيل عن حياة هؤلاء الأعلام وأعمالهم.




## أهم مؤلفات المدرسة العربية في علوم التعمية

حل رموز ومفاتيح الكنوز (جابر)، رسالة في استخراج المعمى (الكندي)، شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام (ابن وحشية)، رسالة في استخراج المعمى (ابن طباطبا)، البيان والتبيين (ابن وهب الكاتب)، المقالتان (مجهول حتى الآن)، أدب الشعراء(مجهول حتى الآن)، خصائص المعرفة في المعميات (ابن مماتي)، الشهاب الناجم في علم التراجم (ابن الدنينير)، مقاصد الفصول المترجمة في حل الترجمة (ابن الدنينير)، المعلم (ابن عدلان)، المؤلف للملك الأشرف (ابن عدلان)، إيضاح المبهم في حل المترجم (ابن الدريهم)، مختصر المبهم في حل المترجم (ابن الدريهم)، قصيدة في حل رموز الأقلام المكتوبة على البرالي (ابن الدريهم)، نظم لقواعد فن المترجم وضوابطه (ابن الدريهم)، مفتاح الكنوز في إيضاح المرموز (ابن الدريهم)، البرهان في وجوه البيان (ابن وهب الكاتب)، كتاب الجرهمي ورسالته (الجرهمي)، كنز الاختصاص ودرة الغواص في معرفة أسرار الخواص (الجرهمي)، صبح الأعشى (القلقشندي)، حل الرموز وفتح أقفال الكنوز (أبو القاسم العراقي).

وتختلف معالجة الموضوع من مؤلف إلى آخر، ويمكن

تصنيف مجالات اختصاص هذه المؤلفات في واحد أو أكثر من الآتي:

- طرائق تعمية الشعر.
- طرائق تعمية النثر.
- استخراج تعمية الشعر.
- استخراج تعمية النثر.
- مبادئ وتحليل.
- دليل وقواعد استعمال: Manual
- جداول في أقلام التعمية وأقلام اللغات.

## تاريخ تطور مبادئ علوم التعمية وموقع المدرسة العربية فيه

سنستعرض في هذه الفقرة بشكل موجز جداً تطور المبادئ والطرائق الأساسية في التعمية واستخراجها خلال القرون حتى يومنا هذا مع الإشارة إلى أهمية المدرسة العربية وموقعها في هذا التطور. يبين الجدول رقم (٣) لائحة زمنية لتاريخ ظهور الطرائق الأساسية في التعمية والتاريخ الذي جرى فيه اكتشاف استخراج (كسر الشفرة) هذه الطرائق.

يتبين من هذا الجدول بوضوح أن المدرسة العربية للتعمية، بدءاً من الكندي نحو ٨٥٠م، بقيت تصنف وتحلل وتغطي طرائق التعمية كافة حتى عام ١٥٨٦م حين أدخل فيجنير طريقته الجديدة بالإعاضة المتعددة الألفبائية، وبقيت تغطي جميع طرائق استخراج التعمية حتى عام ١٨٦٣م حين أدخل باباج، وكاسيسكي استخراج طريقة فيجنير، وهناك بعض الدلائل التي تشير إلى أن العرب عرفوا طريقة فيجنير ونحن بصدد دراسة هذه الدلائل حالياً.

ويبين الجدول أيضاً أن التطور الكبير والخرق المتميز في تاريخ التعمية منذ المدرسة العربية لم يحدث فعلاً إلا في القرن العشرين حين اخترعت الطرائق الجديدة وهي: التعمية بسجل المرة الواحدة، والتعمية غير المتناظرة أو بالمفتاح العمومي، والتعمية الكمومية.

جدول رقم -٣-

جدول رقم -٣-

| التاريخ | طريقة أو مبدأ التعمية | استخراج طرق التعمية |
|---|---|---|
| منذ ١٩٠٠ قبل الميلاد | الإعاضة البسيطة أحادية الألفبائية والتبديل بأنواعه. | |
| ٨٥٠ بعد الميلاد | يعقوب الكندي يصنف ويصف الطرق السابقة حتى تاريخه وتتبعه المدرسة العربية في علوم التعمية | الكندي يضع أسس استخراج كافة الطرق المعروفة |
| ١٥٨٦م | فيجنير Vigenere يخترع الإعاضة متعددة الألفبائية | |
| ١٨٦٣م | | باباج Babage 1854 وكاسيسكي Kasiski 1863 يستخرجان بشكل مستقل الإعاضة متعددة الألفبائية. |
| ١٩١٧م | فيرنام Vernam 1917 وموبورن Mauborgne 1918 يخترعان بشكل منفصل التعمية باستعمال مفتاح عشوائي بطول النص: سجل المرة الواحدة One-time Pad. | مبرهن أنه لا يمكن استخراجها ولكنها صعبة الاستعمال لضرورة توزيع المفاتيح مسبقاً عبر قناة آمنة. |
| ١٩٧٦م | اختراع فكرة التعمية غير المتناظرة أو ذات المفتاح العمومي من قبل Diffie, Hellman, Merkle وطريقة تحقيقها من قبل Rivest, Shamir-Adlman (RSA) عام ١٩٧٧ و١٩٧٨ | غير مبرهن على عدم إمكانية استخراجها ولكنها لا تحتاج لقناة آمنة لتبادل المفاتيح مسبقاً. |
| ١٩٨٤م | بينت وبراسارد Bennett, Brassard اخترعا معاً التعمية الكمومية Quantum cryptography | مبرهن أنه لا يمكن استخراجها ولا تحتاج لقناة آمنة لتبادل المفاتيح مسبقاً |

المراجع

- محمد مراياتي، يحيى مير علم، حسان الطيان، «علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب: الجزء الأول: دراسة وتحقيق لمخطوطات الكندي وابن عدلان وابن الدريهم»، منشورات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٨٧م.
- محمد مراياتي، يحيى مير علم، حسان الطيان، «علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب: الجزء الثاني: دراسة وتحقيق لثماني رسائل مخطوطة»، منشورات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٩٧م.

# تحفيظ القرآن ومستقبل الفصحى[1]

ظهور أحمد أظهر
لاهور - باكستان

إن الصلة القوية الوثيقة الدائمة التي تربط العربية الفصحى بكتابها الأول الخالد العظيم «القرآن الكريم»، إنما هي صلة طبيعية وحيوية، تلك الصلة التي تضمن الحياة لها، ومن المستحيل أن تنقطع أو تضعف هذه الصلة على أية حال، إذ الفصحى كائن حي، والقرآن حياتها، إنها صلة الروح بالجسد، وهل يعيش الجسد إذا فارقته روحه؟ فالعربية الفصحى جسد والقرآن الكريم بمنزلة الروح لها، فالفصحى إذن بقرآنها ولا شيء دونه. وأما الكتاب العزيز الخالد، القرآن الكريم فلا حاجة به إلى أحد ولا إلى أي شيء! إذ الروح أمر الله الخالد لا يموت ولن يموت! وكذلك القرآن الكريم كلام الله الحي القيوم، ولن يعدم، ولن يموت أبداً؛ فهو باقٍ خالد مهما كانت الظروف ومهما تآمر المتآمرون واحتال المبطلون، فقد ضمن الله له الحفظ والخلود.

كما أن القرآن الكريم هو ضمان موثق ومؤكد لخلود العربية الفصحى وبقائها الدائم الطويل، ولن يصيبها أي ضرر مادام القرآن يحافظ عليها، ولكنها، في الوقت نفسه، لا يمكن أن تعيش دون كتابها المجيد الخالد بوصفها لغة حية لشعب أبيّ عظيم يمتد وطنه من المحيط إلى الخليج، إذ العرب أمة عربية بعربيتهم الفصحى التي هي الرمز والأساس لعروبتهم، كما أنها هي الرمز والأساس لوحدتهم الشاملة، ويوم يفارقون - لا سمح الله - عربيتهم الفصحى وقرآنها العظيم، فإنه سيكون آخر يوم للوحدة العربية الشاملة ثم تكون، بعد ذلك، دول متباينة متباعدة، ولن تعرف بعروبتها، وستستقل لهجاتها الدارجة العامية، وستعرف كل منها بعامية سعودية أو عامية مصرية وسورية...إلخ، ولكن، لن تكون يومئذ عربية فصحى كما أنه لن تكون هناك عروبة العرب أبدا!!

فالعرب إذن، وعروبتهم بالعربية الفصحى، لغة الكتاب العزيز الخالد، كما أن الفصحى بكتابها العظيم، ولا شيء دونه! وأما القرآن الكريم فقد ضمن الله حفظه وصيانته بل ضمن قرآنه وبيانه. ومن ثم فقد وجد الضمان من قبله سبحانه وتعالى بالقرآن للعرب وعروبتهم، وللغتهم العربية الفصحى، وأما دون القرآن فلا ضمان للعرب وعروبتهم، ولا للعربية الفصحى!

### ظاهرة فريدة

وقد عاش العرب وعربيتهم الفصحى طوال القرون في ظل القرآن والإسلام، كما أن القوى المعادية للعرب والعربية والإسلام لم تزل منذ القرون الطويلة - ولا تزال حتى اليوم - تحارب وتبذل أقصى جهدها من أجل الوقوف في سبيل العرب والعربية، وفي سبيل العرب والإسلام، وقد كان من الطبيعي أن يحاولوا ولا يزالوا يحاولون جاهدين للوقوف دونهم ودون العربية الفصحى وقرآنها العظيم، الذي كان - ولا يزال - يقلق هؤلاء المعاندين الحاقدين ويقيمهم ويقعدهم، هو ما شرف الله أمة الإسلام بكتابه المكنون المصون الذي قد ضمن الله حفظه وخلوده، وحافظت عليه الأمة وعضت عليه بالنواجذ، بينما الكتب السماوية الأخرى لم تسلم من التحريف والتغيير، كما أن هذه الأمة الوسط الحنفية البيضاء قد أوتيت شريعة سمحة غراء قد سلمت من الشك والريب، وهي تشتمل على المبادئ السامية التي تجمع بين حسنات الدنيا والآخرة، وتهدي إلى طريق الحق من العدل والمساواة والكرامة البشرية مما يجعل الناس يرغبون في دين الله فيقبلون عليه إقبالاً سريعًا ويدخلون فيه أفواجًا، بينما يخجل هؤلاء المعاندون من كتبهم المحرفة غير الموثوق بها، ومن شرائعهم المغشوشة التي تعرضت للأهواء البشرية عبر العصور!

وإن حفظ المسلمين - عربهم وعجمهم - لكتابهم المجيد لظاهرة نادرة فريدة، لا، بل هي ظاهرة غريبة مدهشة جدًا! ولن نكون من المبالغين إذا قلنا: إن هذه الظاهرة الفريدة المدهشة إنما هي معجزة من معجزات الكتاب العزيز الذي: *لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه*. **فصلت:٤٢**. ولن تجد أمة من الأمم عنيت بحفظ كتابها والاهتمام به كما عنيت أمة الإسلام بكتابها العظيم أكبر عناية وأعجبها وأدهشها، فإنك تراهم يحفظون القرآن المجيد حفظًا متواترًا دون انقطاع أو غفلة أو إهمال منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضي الله عنهم بالإضافة إلى الحفظ، فقد اعتنوا بكتابته وضبطه وإتقانه، وتفننوا في تلاوته وتجويده عاملين بأمر الله لرسوله الكريم: *ورتل القرآن ترتيلا*. **المزمل:٤**. كما أنهم قد تفننوا في كتابة القرآن وخطوطه الرائعة المتنوعة تفننًا يدعو إلى الإعجاب والتقدير، واهتموا بطباعته طباعة صحيحة مصدقة موثوق بها، وهذا الاهتمام أيضًا مسلسل متواتر منذ عهد السلف الصالح حتى يومنا هذا.




الغلاف الداخلي لمصحف المدينة المنورة وعليه الآية الكريمة: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون

فأما الحفظ فقد ضمن له الله رب العالمين الذي حفظه وصانه في لوحه المحفوظ فقال: *بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ*. **البروج: ٢١ - ٢٢**. وقد نزله على قلب نبيه الكريم الذي وعده الله بحفظه إياه حتى إنه لن ينساه أبدًا: *سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله*. **الأعلى: ٦ - ٧**. ثم أكد له بحفظ اللفظ والمعنى أو القراءة والتفسير حين أعلن قائلاً: *لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه*. **القيامة: ١٦ - ١٩**. وأنه كتاب مصون كان وسيبقى في صدور الحفظة والعلماء: *بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم*. **العنكبوت:٤٩**.

وقد تحدث الدكتور محمد حميدالله عن هذا الجانب من حفظ القرآن وصيانته وتدوينه في محاضرة له كان قد ألقاها بجامعة بهاول بور الإسلامية، فقال فيها: إن حكمة الله البالغة قد شاءت أن تحافظ على آخر رسالاته التي أوحى بها إلى آخر رسله وخاتمهم، فدبر لها الطرائق والوسائل التي ضمنت المحافظة عليها والصيانة لها والذود عنها، وهذه الحكمة البالغة المدبرة، لها وسائل ثلاث: أولاها الحفظ في لوحة، ثم في قلب نبيه، ثم في صدور الحفظة من أمته، والوسيلة الثانية هي الكتابة التي تواترت

منذ الوحي الأول في حراء بمكة المكرمة إلى آخر آية نزلت فبشرت باكتمال الدين والشرع(١). والوسيلة الثالثة إنما هي امتداد للوسيلة الثانية، وهي تحفيظ القرآن للأجيال المؤمنة القادمة، وإليكم نص حديثه المترجم من محاضرته بالأردية التي قال فيها:

«ولقد كان من المعمول به عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، كل عام، في شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، أنه كان صلى الله عليه وسلم يعيد ما تم نزوله من الكتاب العزيز على من تعلم القراءة والكتابة من أصحابه الكرام رضي الله عنهم، فكانوا يستمعون إلى ما يعيده عليهم الرسول ويقرؤه لهم بصوت مرتفع فيقارنون بما لديهم من المكتوب في مصاحفهم بتلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم فيصححون ما أخطؤوا فيه من الكتابة أو وضع الآية في مكان غير مناسب من السورة، وذلك ما كان يسمى عندهم «بعرضة»، وقد صرح غير واحد من المؤرخين والمحدثين من أمثال الإمام البخاري، رحمه الله، بأنه صلى الله عليه وسلم كان قد عرض القرآن كله مرتين على أصحابه قبيل وفاته بأشهر خلال السنة التي لحق فيها بالرفيق الأعلى، حتى إنه كان حينئذ قد أخبرهم صراحة بقرب أجله ورفعه إلى الرفيق الأعلى، ومن ثم فقد جاء جبريل عليه السلام فأمره بأن يعيد عليهم القرآن الكريم كله مرتين لكي يتمكنوا من تصحيح ما لديهم من القرآن وتصديقه بما يعيده عليهم! فهذه كانت هي الحكمة البالغة التي دبرها الحكيم الخبير من أجل الاحتفاظ بآخر رسالاته إلى آخر الأنبياء وخاتمهم صلى الله عليه وسلم، وهكذا وصل إلينا القرآن الكريم محفوظاً مصوناً موثوقاً به لا يشوبه شك ولا ريب و: *لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه*. **فصلت: ٤٢**.

فظاهرة الحفظ، إذن، للقرآن مستمرة متواترة في الأمة الإسلامية منذ عهد السلف الصالح إلى الخلف التابع، لا بل هي مستمرة متواترة من العرش إلى الفرش - إذا صح هذا التعبير - فقد اهتم الصحابة بحفظ القرآن وصيانته، ثم تبعهم الخلف يحفظون الكتاب العزيز، ثم يحفظونه لأولادهم البررة وأجيالهم القادمة، وقد جرت هذه السنة وتكرر هذا التقليد المبارك، ثم بدؤوا ينشئون المدارس والكتاتيب لحفظ القرآن في كل مكان من العالم، وهذه الظاهرة الفريدة المدهشة لا تخص أهل اللغة من العرب الكرام الناطقين بالضاد فقط، بل هي تعم العرب وغير العرب من المسلمين جميعاً، وفي كل زمان ومكان!.

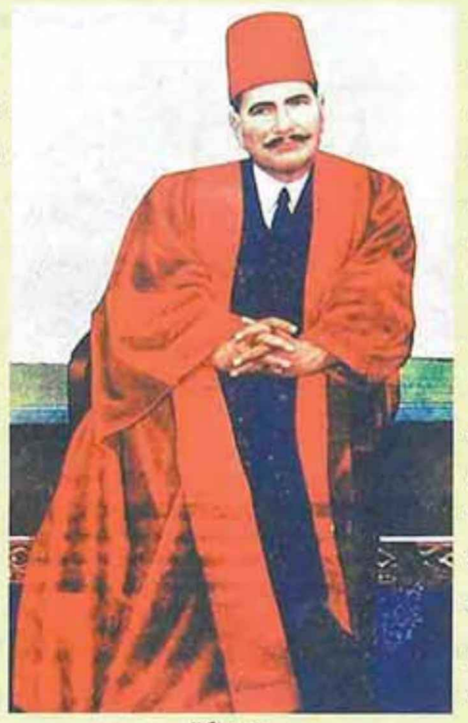
## ظاهرتان مدهشتان

وقد رأينا الإنسان المعاصر من غير المسلمين يستغرب ويندهش من الظاهرتين من ظواهر المجتمع الإسلامي، عربه وعجمه، فأولى هاتين الظاهرتين وأهمهما هي ظاهرة الحفظ للقرآن الكريم فيعجبهم ويدهشهم حين يرون المسلمين يحفظون كتابهم ويحفظونه أولادهم الصغار، ويشترك فيه العرب والعجم، والخاصة والعامة، والأغنياء والفقراء، وأما الظاهرة الثانية منهما فهي ظاهرة الصوم المكتوب نسهر القرآن العظيم كل عام، وهي تبدأ بغرة شهر رمضان، شهر الله، وشهر القرآن، وتنتهي بنهايته. إن اهتمام المسلمين باستقبال الشهر الكريم، لا بل انتظارهم له وترقبهم لمجيئه قبل حلوله ثم توديعهم له، كل ذلك نادر غريب في نظر هؤلاء الأجانب، وهذا الاهتمام البالغ من قبل المسلمين إنما يرجع إلى الكتاب العزيز الذي يقرؤه الحفظة الكرام - جزاهم الله خيرا عن أمة الإسلام جميعها - في صلاة التراويح طوال الشهر كله؛ يقرؤون القرآن ويسهرون له إيماناً واحتساباً، وتلك هي نهاية الحكمة الإلهية المدبرة وقمتها من أجل المحافظة على الكتاب العزيز الخالد! وهذه الظاهرة الفريدة المدهشة ليست ببدعة أو من الظواهر الطارئة المستحدثة، وإنما هي ظاهرة قديمة وسنة نبوية متبعة قد عضت عليها الأمة بالنواجذ، وأحيت تلك السنة النبوية، ولن تزال كذلك بمشيئة الله، إلى النهاية ليتحقق أمر الله لحفظ كتابه وصيانته!!

> لا توجد لغة بين لغات العالم كلها، تكونت وتطورت وتقدمت تحت تأثير كتاب ألف أو دون بها، غير اللغة العربية التي اختارها الله لتكون وعاء للقرآن الكريم

والقرآن الكريم كتاب سماوي لم يكن في حاجة إلى

التدوين أو الكتابة، فيكتبه أو ينسخه الكتبة أو النساخ بين الدفتين، بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من العلماء والحفظة الكرام إلا أن القدرة والحكمة الإلهية المدبرة قد أرادت أن توثق الضمان لحفظ الكتاب وصيانته توثيقًا مضاعفًا، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يختار كتبة الوحي لما يوحى إليه، فكان له كتبة الوحي يسجلون كلام الله على ما تيسر لهم من وسائل الكتابة خلال العهد المكي، وكذلك بعد الهجرة النبوية خلال العهد المدني، بالإضافة إلى ما كان يكتبه من تعلم القراءة والكتابة من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، ويحتفظون به عندهم، وهكذا، فقد تمت كتابة القرآن في الصحف عند كتبة الوحي الكرام، وعند غيرهم من الأصحاب المثقفين المتعلمين من الصحابة، كما أن عددًا ضخمًا من الصحابة كان قد حفظ كتاب الله عن ظهر قلب، والرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة يعظهم ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة إلى أن تمت الدورتان، أو العرضة الأخيرة مرتين، قبيل وفاته صلى الله عليه وسلم فارتحل ورفع إلى الرفيق الأعلى، وقد تأكد من حفظ الكتاب العزيز وصيانته في الصحف المكتوبة، وفي صدور الحفظة المؤمنين الذين حضروا العرضة الأخيرة.

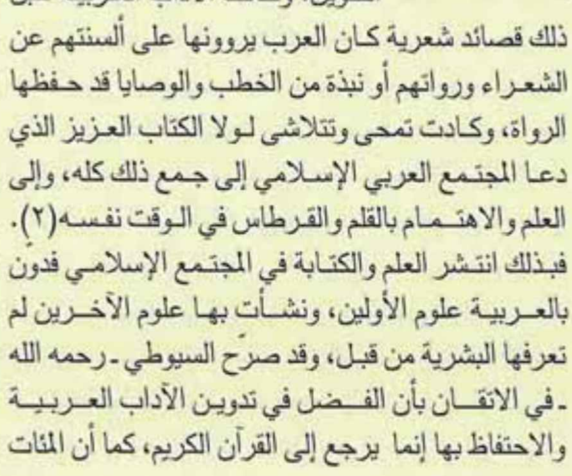


محمد إقبال

وعندما استشهد جماعة من الأصحاب الحفظة للقرآن الكريم في حرب اليمامة خشي بعض الصحابة على حفظ القرآن بموت حفظته في الحروب القادمة، فاقترح عمر الفاروق رضي الله عنه على الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه تدوين القرآن فأعدّ المصحف الكريم بمقابلته بالمحفوظ في صدور الذين أوتوا العلم وبما كان مكتوبًا: *في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة*. **عبس: ١٣-١٦**. ومنذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا يستمر حفظ القرآن الكريم وصيانته بقناتين مستقلتين متقابلتين على أوسع نطاق، إحداهما التسجيل في صدور الحفظة الكرام بالتواتر، والقناة الثانية هي الكتابة أو الطباعة المصدقة الموثوق بها، فهذا هو تاريخ التدوين المصدق الموثوق به لآخر كتاب سماوي نزل على آخر الرسل وخاتمهم صلى الله عليه وسلم! وذلك هو الكتاب المنزل الذي لا شك فيه ولا ريب والذي قد تحدى الزمان وأهله بذلك فقال: ذلك *الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين.* **البقرة: ١-٢**. إذن فصدقُ الكتاب العزيز وثقته وحفظه وصيانته فوق أي شك ودون أي ريب، وهذه ليست بدعوى تحتاج إلى برهان أو دليل، وإنما هي تحدٍ دائم قائم يؤكد صدق القرآن وصيانته للباحثين عن الحق!!.

### تأثير لا يداني

وكذلك فإنه لا توجد لغة، بين لغات العالم كلها، تكونت وتطورت وتقدمت تحت تأثير كتاب ألف أو دون بها، غير اللغة العربية التي اختارها الله لتكون وعاء للقرآن الكريم الذي جعل من العربية لغة موحدة، وكانت لهجات شتى، وتقدم بها تقدمًا سريعًا وفريدًا، ليس له نظير ولا مثال، وقد ضمن لها السيادة والتفوق والخلود والبقاء الطويل، وكانت الآداب العربية قبل ذلك قصائد شعرية كان العرب يروونها على ألسنتهم عن الشعراء ورواتهم أو نبذة من الخطب والوصايا قد حفظها الرواة، وكادت تمحى وتتلاشى لولا الكتاب العزيز الذي دعا المجتمع العربي الإسلامي إلى جمع ذلك كله، وإلى العلم والاهتمام بالقلم والقرطاس في الوقت نفسه(٢).



فبذلك انتشر العلم والكتابة في المجتمع الإسلامي فدوّن بالعربية علوم الأولين، ونشأت بها علوم الآخرين لم تعرفها البشرية من قبل، وقد صرّح السيوطي - رحمه الله - في الاتقان بأن الفضل في تدوين الآداب العربية والاحتفاظ بها إنما يرجع إلى القرآن الكريم، كما أن المئات

من العلوم الجديدة التي نشأت في الأمة كانت نتيجة لتأثير مباشر لهذا الكتاب العظيم، وفوق ذلك كله، فقد حبب القرآن الكريم لغته العربية إلى المليارات من القلوب البشرية المؤمنة للمسلمين غير العرب، فقد أصبحت العربية هي لغة العقيدة والإيمان لكل مسلم في العالم، وذلك شرف لا يعادله شرف، وفضل لا يضاهيه فضل، ومجد لا يماثله مجد! إنها لمكانة فريدة لم تنلها أي لغة أخرى من بين لغات البشر أجمعين!!

ولا يوجد كتاب، بين كتب اللغات كلها نهض بلغته التي كانت له وعاء، وفي الوقت نفسه ضمن لها الخلود، غير القرآن الكريم الذي هو الكتاب الأول الذي دوّن بلغة الناطقين بالضاد، وهو آخر كتاب لها من نوعه ومكانته، إذ لم يدرك - ولن يدرك - شأوه أي كتاب آخر بالعربية، وهو معجزة النبي الخاتم الأعظم صلى الله عليه وسلم، إنه كتاب قد تحدى بلغاء العرب وفصحاءهم أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك، وقد ظل هذا التحدي قائما عبر العصور، ولا يزال - ولن يزال - قائما حتى يرث الله الأرض ومن عليها:

**مضت الدهور فما أتين بمثله**

**ولقد أتى فعجزن عن نظرائه(٣)**

ولم يشرف الله لغة بكتابها كما شرف الله العربية بكتابها الحي الخالد، القرآن المجيد، فقد عرفنا، كما عرف الناس جيدا، أن كتابا من الكتب إذا كتب بلغة معروفة ذات تاريخ مجيد، وذات أعداد هائلة من القراء والدارسين، فإنه يشتهر وينال إعجاب أكبر عدد من الناس وإقبالهم عليه، ويطير بصيت كاتبه إلى أبعد الأماكن وأقاصي البلاد في أقل وقت، وبأقل جهد، حتى ولو كان الكاتب أو المؤلف عاديا وغير معروف، وأما إذا ألف كاتب عبقري كتابا عظيما جيدا في لغة مجهولة مخمولة ذات أعداد ضئيلة من القراءة فإن ذلك الكتاب ومؤلفه لاينالان ما يستحقانه من الشهرة والإعجاب والتقدير أبدا، وكان الله قد قدر في لوح مقاديره للعربية مكانتها هذه الفريدة السامية ببركة القرآن المجيد ووجوده! وهذا الشرف العظيم الذي نالته لغة الناطقين بالضاد إنما هو مثل الشرف العظيم الذي ناله العرب الكرام برسول الله صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من شريعة أعزهم الله بذلك، وهو كما يقول الشاعر العباسي ابن الرومي، وهو يشير إلى ذلك النوع من الشرف العظيم:

**وكم أب قد علا بابن ذرا شرف**

**كما علا برسول الله عدنان!(٤)**

القرآن الكريم حصن حصين للعرب وعروبتهم ولعربيتهم الفصحى، كما أن الإسلام درع واق للمسلمين حيثما كانوا وأينما وجدوا، وأما دون القرآن والإسلام فلا العرب شيء ولا المسلمون!!

### لا نثر ولا شعر

ويقول الدكتور طه حسين، وهو يتحدث عن النثر العربي ومكانة القرآن الكريم في الآداب العربية الواسعة: «إن الله عز وجل قد شرف العربية فاختارها لتكون وعاء للقرآن الكريم، وهو شرف نادر فريد لم تنله أي لغة أخرى من بين لغات البشر كلها، وذلك لأن آداب اللغات - على رأيه - تنقسم قسمين نثرا وشعرا، وليس لها قسم ثالث. وأما العربية فإن آدابها تنقسم ثلاثة أقسام: شعرا ونثرا، وقسمها الثالث المستقل هو القرآن الكريم!! فهو ليس بشعر، كما نص عليه الكتاب العزيز نفسه، ولأنه لا يتقيد بقيود الشعر فلا يخضع لوزن من أوزانه، كما أن القرآن الكريم ليس بنثر عربي، إذ هو يتقيد بقيود خاصة بأسلوبه، والتي لاتوجد في النثر العربي ذي الأنواع والأساليب النثرية، وهذه القيود الخاصة التي يتقيد بها الكتاب العزيز هي هذه القيود التي يتصل بعضها بأواخر الآيات، وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة به، فهو ليس شعرا ولا نثرا ولكنه: *كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير*. **هود:١**. فلسنا نستطيع أن نقول: إنه نثر، كما نص هو على أنه ليس شعرا، وكان وحيدا في بابه، ولم يكن قبله ولم يكن بعده مثله، ولم يحاول أحد أن يأتي بمثله، وتحدى الناس أن

يحاكوه، وأنذرهم بأنهم لن يجدوا إلى ذلك سبيلاً، وأراح الخطباء والكتاب أنفسهم من هذه المحاولة التي كانت في نفسها مستحيلة والتي كانت تعد مروقا من الدين وخروجًا عليه»(٥).

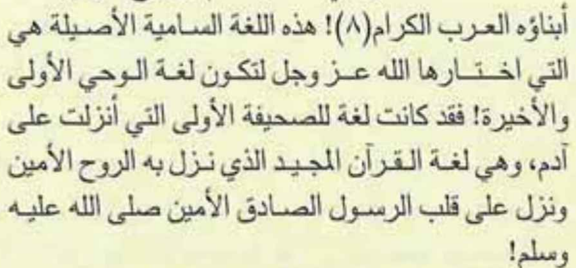
وإن نزول القرآن المجيد بالعربي المبين أو العربية الفصحى لم يكن مصادفة وإنما حكمة الله البالغة هي التي دبرت لتكون لغة الوحي الأولى هي نفسها لغة الوحي الأخيرة إذ: *الله أعلم حيث يجعل رسالته*. **الأنعام**:١٢٤. وهي تلك اللغة العربية التي كانت - وستكون - لسان أهل الجنة، وهي أم الألسن واللغى كلها، وبها تحدث أبو البشر آدم إلى زوجه الحواء في جنة الله عز وجل، وبها علم الله آدم الأسماء كلها، فنطق بها أبونا حين أنبأ الملائكة بأسماء ما خلقه الله من الأشياء التي علم آدم أسماءها(٦) كلها، ومنذ تلك اللحظة اختُصت العربية بجملتها الاسمية التي تخلو من الفعل ولا توجد لغة في العالم تخلو جملتها الاسمية من الفعل، إن لم يكن فعله تامًا فناقصًا على الأقل، فلو جمعنا بين الاسمين من محمود وعالم مثلا - كما يفعل الطفل عندما يبدأ أن يتكلم أو يتعلم النطق فيجمع بين الاسمين دون أن يقدر على اصطناع الجملة - فقلنا: محمود عالم فقد أصبحت جملة عربية تامة، ولكنها إذا ترجمت إلى لغة أخرى غير عربية فلابد من فعل حتى ولو كان ناقصاً، تكتمل به الجملة، وهذه الظاهرة الفريدة قد انفردت بها اللغة العربية دون غيرها من اللغات، وذلك من أقوى الدلائل وأحكمها على قدم العربية وأوليتها، وبأنها هي لغة الطفولة البشرية التي استطاعت أن تنطق الأسماء للتفاهم دون الأفعال التي يتعلمها الطفل فيما بعد، وهي اللغة الأولى التي أوحى الله بها إلى آدم دعاء فتاب هو وزوجه إلى الله قائلين: *ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين*. **الأعراف**:٢٣. وهكذا أصبحت العربية هي لغة الوحي الرباني الأولى، وهي التي شرفها الله تعالى لتكون وعاء الوحي الخاتم الآخر، وحي القرآن الكريم الذي هو آخر رسالات الله وخاتمها إلى البشرية جمعاء!

## لغة الصحيفة الأولى

فمنذ ذلك العهد إلى فجر الإسلام، قد ظل العرب، وظلت لغتهم العربية، التي ورثوها من أبيهم أبي البشر ثم من جدهم الثاني سام بن نوح، بمعزل عن العالم المتقلب المتغير، داخل الجزيرة العربية، فقد تحقق عند الكثيرين من الباحثين والمستشرقين(٧) أن العرب وحدهم، هم الذين قد احتفظوا بالخصائص السامية أو الخصائص الثقافية التي ورثوها من أبيهم سام بن نوح، وذلك بحكم عزلتهم عن التحركات البشرية والتغيرات العالمية، إذ عاشوا داخل جزيرتهم العربية كما أن لغتهم العربية التي هي أقرب اللغات السامية كلها إلى الأصل السامي أو لغة سام بن نوح - على حد تعبير هؤلاء الباحثين، قد احتفظت بالخصائص التي امتازت بها هذه اللغة التي نطق بها أبو البشر، والتي تعلمها سام بن نوح، فورثها منه أبناؤه العرب الكرام(٨)! هذه اللغة السامية الأصيلة هي التي اختارها الله عز وجل لتكون لغة الوحي الأولى والأخيرة! فقد كانت لغة للصحيفة الأولى التي أنزلت على آدم، وهي لغة القرآن المجيد الذي نزل به الروح الأمين ونزل على قلب الرسول الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم!



طه حسين



ولعل هذا الفضل، وهذا الشرف، اللذين قدرهما الله تعالى للغة وحيه الأول والأخير هما اللذان جعلا بعض الناس، ولا سيما المستشرقين، ومعظمهم كانوا من اليهود الذين يعادون كل شيء إسلامي، يحسدون لغة القرآن؛ إذ الاعتراف بفضلها، وشرفها إنما هو اعتراف بفضل

الإسلام وشرفه وكتابه القرآن الكريم، وذلك مما لا يرضى به اليهود بحكم بغضهم وعدائهم لما جاء به النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم من ولد سيدنا إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. فهذا البغض الشديد والعداء الدفين في صدور هؤلاء المستشرقين اليهود قد جعلاهم يعادون العربية، ويحطون من قدرها، ويحرمونها من فضائلها الكثيرة التي تستحقها، ومن ذلك فضل التقدم وشرف الأولية، وذلك حين تحدثوا عن اللغات السامية وتاريخها وقاموا بأبحاث عصرية لم تخطر ببال أحد من علمائنا اللغويين القدماء، وقد اقترف هؤلاء الباحثون اليهود فظائع من الكتمان والإغضاء والكذب والافتراء وجاؤوا بآراء متضاربة وأقوال متعارضة، وارتكبوا في ذلك أخطاء مخزية، فإننا نراهم يدعون أن العربية هي أحدث اللغات السامية كلها، ولكنهم، في الوقت نفسه، يقولون: إن اللغة الآرامية هي أقدم اللغات السامية كلها، وأن لغة سام أصلها مجهول، ولم تعرف قواعدها ولا أصولها، وفي الوقت نفسه تسمعهم يقولون: إن العربية هي أقرب اللغات السامية إلى أصلها السامي أي لغة سام بن نوح، وإن العرب بحكم عزلتهم عن العالم المتقلب المتغير قد احتفظوا بالخصائص الثقافية السامية التي ورثوها من أبيهم سام بن نوح!!

> لا تزال الكلمة القرآنية حجة قاطعة لعلوم اللغة كلها، فما وافق أسلوب القرآن الكريم وشواهده فهو مستحسن مقبول، وما خالفه فهو مستقبح مرفوض

فلنوجه إلى هؤلاء الباحثين الماكرين أسئلة، ولنكلفهم بالأجوبة عنها، فأولها وعلى رأسها: إذا كان أصل لغة سام مجهولا، كما تقولون، ولم تعرف قواعدها ولا أصولها فكيف يمكن لكم أن تقولوا بأن العربية هي أشبه اللغات السامية وأقربها إلى أصلها السامي أي لغة سام بن نوح؟! وإذا كان العرب قد استطاعوا أن يحتفظوا بالخصائص الثقافية والعرقية السامية التي ورثوها من سام بن نوح فما الذي منعهم من الاحتفاظ بلغتهم التي ورثوها من أبيهم سام هذا؟ إذ اللغة هي الثقافة الأصيلة أو الأولى والأخيرة لأي أمة من الأمم؟ ولماذا لا تقولون: إن العرب قد استطاعوا أن يحتفظوا بالخصائص الثقافية السامية الأصيلة بحكم عزلتهم عن العالم داخل جزيرتهم العربية، وإن لغتهم العربية هي الأخرى قد استطاعت أن تحتفظ بالأصول والقواعد السامية الأصيلة على أساس تلك العزلة نفسها؟ وإن العربية هي أقدم اللغات السامية كلها؛ إذ هي اللغة التي تحدث بها آدم ونوح وابنه سام، والعربية هي اللغة التي سموها آرامية لأن الهمزة قد ثبت إبدالها بالعين إذ هي كالعين من حروف الحلق، كما أن الميم قد ثبت إبدالها بالباء، ليس في العربية فحسب، بل في معظم اللغات السامية؛ وأن لغة اليهود العبرية قد تشعبت من العربية نفسها فتلك هي عبرية وهذه عربية؟! ونرى أن هذا التضارب والتناقض في الآراء والأقوال والإغضاء عن الحق والازدراء باللغة العربية إنما ترجع إلى الافتراء الماكر والكذب المتعمد، والكاذب لا ذاكرة له (دروغ كو را حافظه نباشد) كما يقول مثل فارسي!!

فالعربية ،إذن، هي أصل اللغات السامية، وهي أم الألسن كلها، وهي التي نزلت بها أول صحيفة على آدم أبي البشر، وهي التي تحدث بها سيدنا نوح وابنه سام، ومنهما ورثها العرب الذين قد استطاعوا أن يحتفظوا بالخصائص السامية كما استطاعت لغتهم العربية أن تحتفظ بتلك الخصائص، وهي التي اختارها الله لتكون وعاء للقرآن الكريم، آخر رسالات الله وخاتمها إلى الناس وهي، إذن، اللغة الأولى والأخيرة لرسالة الله ووحيه إلى عباده المرسلين!

### وحدها.. المحفوظة المصونة

والتاريخ البشري يحدثنا عن طرائق حفظ الكلمة وصيانتها عبر العصور فيقول: إنه قد جرى الاحتفاظ بالكلمة إما بالحرف المكتوب على الحجر وإما باللوح وإما بالقرطاس، وإما قد احتفظت بها الذاكرة البشرية التي كانت، ولا تزال تنوب عن الكتاب عند الإنسان الأمي الذي لم يعرف القراءة ولا الكتابة، فأما الكلمة التي تحتفظ بالكتابة فهي معرضة للاندراس والتعفية أو التحريف والتغيير إذا لم يحرسها الحارسون، ولم يحافظ عليها

الحافظون، ولم يدافع عنها المدافعون بطرائق شفافة معلومة موثوق بها، تطمئن إليها النفوس وتستريح بها القلوب، وقد تعرضت الصحف والكتب المنزّلة للتعفية أو التحريف فهي إما ضاعت فلم يبق منها غير أسمائها وإما أننا نجد ذكرها في التاريخ فقط، وإما أنها قد أصيبت بالتحريف والتغيير فلم تعد مصونة محفوظة كما تلقاها الرسل والأنبياء فأبلغوها إلى أممهم وأقوامهم وشعوبهم، ومن ثم فلم يعد العمل بها سهلاً أو قل: إنها لم تعد موضع ثقة ويقين وإيمان، أو وسيلة هدى ونجاة تثق بها النفوس وتطمئن إليها القلوب، وتلك هي آفة الصحف والكتب السماوية كلها غير القرآن الكريم!

وأما الكلمة التي تحتفظ بها الذاكرة البشرية التي كثيراً ما تخون وتتعرض للغفلة والنسيان فهي معرضة لخطر الضعف والمحو والذهاب والنسيان إذا لم يسعفها الاهتمام من الإعادة والتكرار بصفة مستمرة، فالذاكرة تروى شفوياً وتنقل الكلمة إما عفواً وتلقائياً وإما باهتمام خاص من جيل إلى آخر على سبيل التعليم والتدريس أو التلقين والتحفيظ، فالأولى يصيبها الضعف والنسيان، فتتعرض للزيادة أو النقصان، وأما الكلمة التي تُحفظ فتُروى شفوياً فهي التي تنقل من جيل إلى آخر على سبيل التعليم والتحفيظ، باهتمام خاص وبطرائق مخططة مدبرة كما يُعلَّم القرآن تعليماً ويُحفَّظ تحفيظاً في الكتاتيب أو مدارس تحفيظ القرآن في العالم الإسلامي منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا كسنة متواترة عبر العصور، وهكذا شاءت قدرة الله الشاملة وحكمته البالغة أن تدبر الحفظ والصيانة لكلمة القرآن المجيد فسُجلت في ذاكرة الأمة تسجيلاً موثقاً وتكرر تحفيظها وقراءتها تكرراً متواتراً، بالإضافة إلى الاحتفاظ بها بالأقلام، وفي الألواح والقراطيس منذ أول وحي إلى يومنا هذا، ومنذ الأزل إلى الأبد.

ولقد كان في علم الله ولوح مقاديره أن تكون كلمة القرآن وحدها هي محفوظة مصونة دون غيرها من الكلمات المقدسة لتكون موضع ثقة ومركز صدق وإيمان، ووسيلة هدى ورشاد للبشر، ولكي تطمئن بها القلوب وتستأنس إليها النفوس الباحثة عن الحق والصدق والنجاح والنجاة في الدنيا والآخرة!

وقد شاءت قدرة الله الغالبة وحكمته البالغة أن يبقى القرآن الكريم، آخر رسالات الله وخاتمها، هو وحده، محفوظاً مصوناً دون غيره من الصحف السماوية والكتب المنزلة التي، إما ضاعت فلم يبق منها شيء غير أسمائها، وإما جاء عنها في الكتاب الكريم الذي جاء مصدقاً لما بين يديه من الصحف المقدسة، وما أنزل على الرسل والأنبياء، إلا أن ذلك كله قد تعرض للتغيير والتحريف، فلم يعد محفوظاً مصوناً، ومن ثم لا يمكن العمل به، ولم يعد موضع ثقة وإيمان ووسيلة هدى ونجاة للإنسان، وأما القرآن المجيد فهو موضع ثقة وإيمان وطمأنينة وسكينة ليهدي البشر: *للتي هي أقوم*. الإسراء:٩. وهو وحده كتاب خالد باق إلى أبد الآباد، فإن الرسالة الإلهية كانت، ولاتزال، واحدة وقد بقيت واحدة فريدة من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم!!

> العربية، هي أصل اللغات السامية، وهي أم الألسن كلها، وهي التي نزلت بها أول صحيفة على آدم أبي البشر، وهي التي تحدث بها سيدنا نوح وابنه سام، ومنهما ورثها العرب

### تأثير لا مثيل له

والصحف السماوية والكتب المقدسة القديمة كانت تنزل على الرسل والأنبياء دفعة واحدة مكتوبة على الألواح، ولم يكن يقرؤها إلا القليل من أفراد الأمة الذين تعلموا القراءة والكتابة، وأما القرآن الكريم فقد نزّله الله منجماً ليكون حفظه سهلاً ميسراً، ومن ثم فقد ضاعت الصحف السماوية القديمة، أو حرّفت، وأما القرآن الكريم فقد صانه الله وحفظه في صدور أهل العلم، وفي الوقت نفسه، فقد احتفظت به الأقلام والأوراق المكتوبة، وقد كان هو الحافز الحقيقي والسبب الأول وراء حركة الاحتفاظ بالأدب الجاهلي والإسلامي، وهو الذي جعل العلماء المسلمين الأوائل يجمعون ما تيسر لهم من النماذج النثرية المختلفة، كالخطب والأمثال والوصايا والأقوال كما أنهم قد أعدوا

المجاميع الشعرية، ودونوا مفردات الفصحى في معجماتهم، بالإضافة إلى علوم النحو والبلاغة، حتى إن الحديث النبوي الشريف قد كان القرآن الكريم هو أهم الحوافز والأسباب التي جعلت المحدثين الكرام ينفقون أعمارهم في جمع المتون الحديثة وتدوينها، وقد أصبح القرآن الكريم مثلاً ومقياسا أسمى وأمثل للأساليب العربية البلاغية، وكانت ولا تزال الكلمة القرآنية حجة قاطعة لعلوم اللغة كلها، فما وافق أسلوب القرآن الكريم ومنواله فهو مستحسن مقبول، وما خالفه فهو مستقبح مرفوض، كما أن القرآن الكريم قد أثر في كل ما أنتجته القريحة العربية، أو ما أبدعه القلم المسلم خلال العصور وطوال القرون الطويلة في اللغة والأدب والنقد والبلاغة، وفوق ذلك كله، فقد أثّر القرآن في نفوس الأمة المسلمة وحياتها العملية أيما تأثير مما ليس له مثال ولا نظير في التاريخ البشري، فقد كوّن القرآن الكريم أمة موحدة، بعد أن كانت قبائل شتى متعادية متناحرة، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا، وقد رفعهم الكتاب العزيز إلى أسمى مكانة من الحضارة والعلم، فصاروا بناة المدينة الإسلامية الفاضلة وأصحاب المعارف والخزائن من الكتب، ومكنهم الله في الأرض فأضحوا غزاة فاتحين، وقهروا إمبراطوريتين كبريين، وبنوا صرحا شامخا من المجد والفخار والعزة القعساء، وكل ذلك كان بفضل القرآن وبركته، فالعرب مدينون له وهو ليس مدينا لأحد من العرب أو العجم، وإلى ذلك يشير الكتاب العزيز حين يقول: *وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون*. **الزخرف:٤٤**. وأن العرب إذا أعرضوا عن القرآن الكريم - لا سمح الله - فإنهم سيكونون أشقى الأمم وأتعسها تحت سماء الله وفوق أرضه، وأما المسلمون غير العرب، فلا إسلام لهم بالمرة دون القرآن الكريم، ويكفي لنا أن نتذكر دائما ما ذكره العلامة محمد إقبال في بعض تعليقاته الفكرية حين قال(٩): «إن الإسلام لقد ظل وسيظل يدافع عن المسلمين ويذود عن حياضهم، وأما الإسلام فليس به حاجة إلى من يدافع عنه، وإنما هو دين الله الذي ارتضاه لعباده وهو الذي سيحميه، فالدفاع عنه أو الاحتفاظ به في ذمة الله وكفالته.

**أصبحت العربية هي لغة العقيدة والإيمان لكل مسلم في العالم، وذلك شرف لا يعادله شرف، وفضل لا يضاهيه فضل، ومجد لا يماثله مجد**

### لغة لا تتغير ولا تتبدل

القرآن الكريم حصن حصين للعرب وعروبتهم ولعربيتهم الفصحى، كما أن الإسلام درع واق للمسلمين حيثما كانوا وأينما وجدوا، وأما دون القرآن والإسلام فلا العرب شيء ولا المسلمون!!، كما أن الفصحى بقرآنها ولا شيء دونه!!».

وقد تحدث الدكتور محمد حميدالله عن علاقة العربية الفصحى بالقرآن وعن الرباط الذي يربط بينهما في محاضرة له كان قد ألقاها بالأردية فقال ما ترجمته(١٠): «والآن نريد أن نرى كيف وصل إلينا القرآن الكريم محفوظاً مصوناً، ولكنني سوف أتحدث، وقبل كل شيء، عن لغته التي نزل بها، وهي اللغة العربية الفصحى أو اللسان العربي المبين، ولكي نعرف لماذا كان اختيار العربية الفصحى لآخر كتاب أنزله الله على آخر رسله وخاتمهم!؟ فالواقع أن اللغات البشرية بطبيعة الحال، وبمرور الزمن معرضة للتبديل والتغيير، فهذه هي لغتنا الأردية التي لا نستطيع أن نفهم اليوم ما كتب بها قبل خمس مئة عام فقط، والحال نفسه للغات البشرية الأخرى كلها، قديمها وحديثها، فاللغة الإنجليزية مثلا لو عرض علينا ما كتبه شوسر Chaucer قبل خمسة قرون، لن يستطيع أحد من سكان لندن أن يقرأ قراءة صحيحة سليمة غير الأساتذة الخبراء الأفاضل الجامعيين، وتلك هي حال اللغات البشرية القديمة منها والحديثة، والتي قد أصابها التغيير بمرور الزمن حتى لا يفهمها أحد من أهلها اليوم، فلو أن آخر الرسالات وخاتمها كانت قد نزلت بلغة من بين هذه اللغات البشرية، لكانت تلك اللغة قد أصابها التغيير، ولاستحالت إلى لغة أخرى مختلفة، ولما فهمها أحد من أهلها المعاصرين، ولاقتضت فطرة الله ورحمته أن ينزل كتابا جديدا في اللغة المعاصرة لكي يفهمه الإنسان المعاصر فيهتدي به، وإنك لن تجد لغة قد صانها الله من عناصر التغيير والتبديل غير اللغة العربية الفصحى التي لم تؤثر -

ولن تؤثر ـ فيها عناصر التغيير والتبديل أبداً، والحقيقة الواقعية أنك لن تجد الفرق بين اللغة الفصحى التي كان يتحدث بها الرسول صلى الله عليه وسلم والتي نزل بها القرآن والتي هي لغة الحديث النبوي، واللغة التي يستخدمها الإعلام العربي المعاصر من الإذاعة والصحف والمجلات اليوم في العالم العربي كله، فالكلمات والقواعد هي هي، ولم يتغير شيء من النطق أو الأسلوب، فلو بعث الرسول صلى الله عليه وسلم اليوم حياً، على سبيل المثال، وتحدثت إليه أنا كعربي بلغتي المعاصرة، لفهمني الرسول صلى الله عليه وسلم ولفهمت كلامه الذي قد يخاطبني به، إذ لن يكون الفرق بين واللغة التي سيتحدث بها هو إلي، واللغة التي سأتحدث بها أنا إليه، وذلك مما يقود بي إلى القول بأن لغة كهذه لتستحق أن تكون وعاء لآخر رسالات الله إلى خاتم أنبيائه، ذلك بالإضافة إلى ما خصت به اللغة العربية وأهلها من فصاحة الكلمة وبلاغة البيان ومن النغمة الرائعة والموسيقى الخاصة، ومن أهم ما نشاهده ونراه اليوم هو أن العرب الكرام قد احتفظوا بلغة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يختاروا لغاتهم المحلية أو العامية، كلغات رسمية لبلادهم، وإنما فضلوا عليها لغة القرآن ولغة الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك مما يوجب علينا أن نشكر إخواننا العرب الكرام على موقفهم الصامد السليم الذي اتخذوه من اللغة العربية الفصحى، لغة القرآن الكريم ولغة الرسول صلى الله عليه وسلم!!».

وهذا الذي قاله الدكتور حميدالله عن موقف العرب الصامد السليم من لغة القرآن والحديث النبوي، كلام جميل وصحيح، ولكننا لا نوافقه بما يراه عن بقاء العربية وثباتها على الأسلوب القرآني القديم، أي أن العرب هم الذين لم يسمحوا بأي تغيير أو تبديل في لغتهم العربية الفصحى؛ لأن الأمر الواقعي ليس كذلك، بل الأمر بالعكس إذ القرآن الكريم هو السبب الوحيد في بقاء العربية الفصحى وثباتها على الأسلوب القرآني القديم، وليس العرب الكرام، فالعربية الفصحى قد عاشت في ظل القرآن وفي كنفه، ولولاه لما بقيت العربية كما كانت، ولما ثبتت على منوالها القديم الخالد الذي أعطاه إياه الكتاب العزيز وحافظ عليه، فالله عز وجل قد ضمن المحافظة على القرآن، وهو بدوره قد حافظ على الفصحى التي نزل بها! وسوف تعيش العربية الفصحى في ظل القرآن، رافعة الرأس رابطة الجأش تصارع الأعداء وتهزمهم وتعلو ولا يعلى عليها لأنها لغة القرآن المجيد!!

> لو عرض علينا ما كتبه شوسر قبل خمسة قرون، لن يستطيع أحد من سكان لندن أن يقرأه قراءة صحيحة سليمة غير الأساتذة الخبراء

### فوائد جمة

وليس في مقدرة أي كاتب أو باحث أن يستقصي فوائد الحفظ لكتاب الله الكريم، أو يستوفيها استيفاء، فهي كثيرة متنوعة، ولا تنفع طالب العربية ولا تساعده فحسب بل تفيد كل من أراد أن يزداد علما وفضلا، ويسمو فكرا وكمالا، ونستطيع أن نجمل القول إجمالا ونختصر الحديث اختصارا فنقول كما يأتي:

أولاً: إن حفظ القرآن الكريم ينشط الذاكرة الإنسانية تنشيطا ويقويها تقوية، فيزيدها استعداداً وقبولاً للمزيد من العلم أو الأدب بكل سهولة ويسر، فإن أصحاب علم النفس يكادون يجمعون على أن استخدام الذاكرة وتمرينها يزيدها قوة ونشاطاً، وكلام الله المبارك هو خير طريق وأحسنه في تنشيط الذاكرة وتقويتها، وذلك مما أنعم الله به على عباده المؤمنين الذين يحفظون القرآن الكريم فينفعهم في دنياهم وعقباهم، فقد رأينا الأطفال المسلمين من الأسر المسلمة المتحمسة للدين في باكستان، وفي العالم كله، يتحولون بعد الدراسة الابتدائية، ومدتها في باكستان خمس سنوات، إلى مدارس تحفيظ القرآن فيكملون حفظه خلال سنوات ثلاث، ثم يعودون إلى المدارس الثانوية فيؤدون امتحان المدارس الوسطى ومدتها ثلاث سنوات، فينجحون فيه نجاحاً باهراً فيجلسون في الصف التاسع الثانوي مباشرة دون أن يضيعوا شيئاً من وقتهم وهكذا يلحقون بزملائهم الذين كانوا قد أكملوا الابتدائية مع هؤلاء الحفظة للقرآن، والذين أدركوا

شأوهم وقد زادوا قوة في حفظ الدروس فيتقدمون على أولئك الزملاء ويتفوقون عليهم في الامتحان والدرجات، ويرجع الفضل في ذلك إلى حفظ القرآن الكريم وبركته!

ثانيًا: والقرآن الكريم يساعد حافظه خير مساعدة على نطق الحروف العربية وأدائها من مخارجها الصحيحة كما أنه يغنيه عن الرجوع إلى المعجمات أو كتب القواعد النحوية في التأكد من صحة الأداء والنطق للكلمة العربية، ومعرفة الصيغ والأوزان، فإننا نرى طلاب العربية من غير حفظة القرآن الكريم عندنا يلجؤون إلى المعجمات اللغوية أو المراجع النحوية عند الضرورة، وأما حفاظ القرآن الكريم فإنهم لا يحتاجون إلى هذه المعجمات أو المراجع، وإنما يكفيهم أن يراجعوا شاشة الذهن والدماغ فيطلعوا على بغيتهم وينالوا أمنيتهم في الخضم المتلاطم من المفردات والتعبيرات القرآنية التي علقت بأذهانهم، ونورت قلوبهم، فادخروها، وسجلوها في الشاشة من ذاكرتهم، وذلك فضل من الله عز وجل، ولا يؤتيه إلا لمن حفظ كتابه الجليل فأوعاه بمفرداته اللغوية وكلماته البليغة الجيدة!

ثالثًا: الخطباء في خطبهم والكتاب في كتاباتهم يلجؤون إلى أساليب البيان المدللة والتعبيرات المؤيدة بالحجج المقنعة الدامغة، وذلك طبيعي، لأن كل متحدث يود أن يؤثر في نفوس من يخاطبهم، ولا يمكن ذلك إلا إذا امتاز حديثه بالدلائل والبراهين، والقرآن الكريم كتاب الدعوة والتذكير، وهو حافل بالأساليب البيانية الدعوية المقنعة، وهو يبرهن على كل دعواه بالأدلة القاطعة المفحمة ويزود قراءه ودارسيه بأبلغ الكلمات وأروع التعبيرات لإقامة الدليل على الدعوى، فمن حفظ الكتاب العزيز حفظًا جيدًا، وأتقنه إتقانًا قويًا فقد احتوى على ما جاء فيه من الكلم الفصاح والتعبيرات الحسان، ووجد فيه ما يغنيه عن غيره! والحديث المدلل أو البيان المبرهن يغلب دائمًا وينتصر صاحبه على خصمه! وكل ذلك يأتي عفوا لمن يحفظ القرآن الكريم وينور صدره ويطهر قلبه بكلام الله الجليل!.

**ليس في مقدرة أي كاتب أو باحث أن يستقصي فوائد الحفظ لكتاب الله الكريم، أو يستوفيها استيفاء، فهي كثيرة متنوعة، ولا تنفع طالب العربية ولا تساعده فحسب، بل تفيد كل من أراد أن يزداد علمًا وفضلًا، ويسمو فكرًا وكمالاً**

رابعًا: إن صحة التعبير في كل لغة والسلامة من الأخطاء اللغوية، حديثًا وكتابة بها، إنما هما أمنية كل متحدث، وبغية كل كاتب، والرصيد اللغوي الصحيح الذي يحفظه كل ناطق في لغته يسلم به من الأخطاء ويقدر به على التعبير الصحيح، واللغة العربية قد شرفها الله عز وجل بالقرآن العظيم الذي مفرداته وكلماته وتراكيبه وجمله هي خير رصيد لغوي للناطق أو الكاتب، فمن حفظ كتاب الله فقد حوى قدراً كبيراً من المفردات والمركبات أو الكلمات والجمل القرآنية التي قد انتهت بها البلاغة العربية وبلغت بها العربية قمتها من الفصاحة اللغوية، ومن المجد والفخار، كما أن الحافظ لهذا الرصيد اللغوي الرائع الجليل قد استغنى عن غيره، ويستطيع في الوقت نفسه أن يتأكد من صحة ما ينطق به أو يكتبه ويعرف الخطأ والصواب في النطق والتعبير بالرجوع إلى الكتاب العزيز الذي يحفظه عن ظهر قلب، ويفوح صدره برائحة الكلمات الطيبات والآيات البينات من القرآن العظيم!

خامسًا: وقد سمعنا من أساتذتنا الأفاضل الكثير من الأمثال والأقوال التي تنص على أن العرب قد خصت بالحفظ وبالذاكرة القوية، فقد قال قائلهم وهو يستقبح ويذم من يلجأ إلى القرطاس والقلم في الاحتفاظ بالعلم:

**استودع العلم قرطاسًا فضيعه**

**لبئس مستودع العلم القراطيسُ**

وقد قال بعضهم، وهو يُعرِّف بالأدب ويخصه بالحفظ والذاكرة: «إن الأدب الحفظ!» فقد جاء الخبر هنا معرفًا باللام لمكانته وأهميته، فمن حفظ القرآن الكريم وصار من حفظته ومقرئيه المجودين فقد حوى النصف من اللغة العربية واستعد للنطق العربي الصحيح السليم، ومما لا شك فيه ولا ريب أن من أكثر من حفظ النصوص العربية الأدبية فقد جمع الكثير من العربية، وأتقنها إتقانًا جيدًا، ومن ثم فإن حفظ القرآن الكريم يفيد في تقوية اللغة العربية ورفع

مستواها، وقد رأينا الفرق الواضح البين بين من حفظ القرآن من طلاب اللغة العربية ومن حرم من هذه النعمة، وقد بدأت المحاولات الجديدة في العالم الإسلامي، وخاصة في البلاد غير العربية، تتركز في دراسة العربية القرآنية فيقتبس الأستاذ المفردات والتعبيرات القرآنية فيكلف تلاميذه بدرسها وحفظها ثم باستخدامها في جملهم المفيدة السهلة، فمن حفظ الكتاب العزيز فقد حفظ مفرداته الفصيحة وتعبيراته الرائعة الجميلة فهذه هي الفائدة الكبيرة والمنفعة العظيمة التي ينالها من حفظ كتاب الله العظيم!

سادساً: والكلام العربي الأصيل، سواء أمكتوباً كان أم منطوقاً، أشعراً كان أم نثراً، إذ زانه القرآن وأسلوبه البياني بقبس من نور آياته البينات وجودة كلماته التامات. وعلو معانيه الساميات، فقد نال ذلك الكلام العربي الأصيل منتهى الرونق والجمال والبهجة والكمال، وبلغ قمة البلاغة والفصاحة، إذ القرآن هو أجمل كلام عرفته العربية وأجوده، وهو كلام الله المعجز وقوله الفصل المبين، الفارق بين الحق والباطل، ولم يزل - ولا يزال - الخطباء والكتّاب الشعراء يقتبسون من نوره اللفظي والمعنوي في خطبهم وكتاباتهم وشعرهم، ومن ثم فقد ألح عليهم أئمة اللغة والأدب والبلاغة بالاقتباس من الكتاب العزيز، وقد صار ذلك سنة متبعة، وطريقة ممهدة لأجل الأساليب الأدبية الرصينة المتينة خلال العصور، فمن تمكن بتوفيق الله عز وجل من حفظ القرآن الكريم كله أو بعضه، فقد ساعده الحظ السعيد على الإنتاج الأدبي الرفيع، وجمع البركة والسعادة إلى الجمال والكمال في هذا المجال!

سابعاً: ومن فوائد حفظ كتاب الله العزيز المجيد هو تصحيح الفكر وتصويبه إذ القرآن الحكيم يدعو إلى الحكمة والعلم، وإلى التفكير الصائب السليم في الأنفس والآفاق، كما أنه يثقف العقل، ويدعم الفكر، ويحرّض على التدبر في آيات الله البينات وفي كونه الواسع العريض الذي لا يعلم حدوده ولا جنوده أحد غير الله، وهو مصدر العلم الصحيح، وينبوع الحكمة البالغة، ومنار الفكر السليم، يهدي العقل إلى سبل السلام، ويرشده إلى اتباع الحق وإدراك الحقائق كما هي، ويساعده على اتخاذ المواقف السليمة الحازمة في الحياة العملية دائماً فمن أحب أن يكون قادراً على التفكير الصائب السليم، فعليه حفظ الكتاب الكريم، والخوض في معانيه، والاقتباس منه في المجالين اللفظي والمعنوي من كلامه المنطوق والمكتوب!

وجملة القول، أن تحفيظ الأجيال المسلمة الناشئة من العرب وغير العرب القرآن لضمان وثيق للاحتفاظ بعروبة العرب وإسلام المسلمين، وأن المسلمين لن يزالوا على كل خير وسعادة ماداموا يحافظون على القرآن الكريم، فيحفظونه حفظاً مستمراً، ويحفّظونه تحفيظاً مسلسلاً لأولادهم الصغار ولأجيالهم الناشئة، وكذلك العرب لن يزالوا على الخير والبركة، ولن تزول عروبتهم، ماداموا يحافظون على عربيتهم الفصحى،، وأن الفصحى باقية خالدة مادامت تعيش بين أهلها من الناطقين بالضاد في كنف القرآن الكريم وفي ظله الظليل الوارف، فكأن من حفظ القرآن وجوّده تجويداً من المسلمين غير العرب فقد حافظ على إسلامه وإيمانه، وجمع الكثير من أجود كلام العرب وأفصح مفرداتهم اللغوية، وقد أتقن نطقها وأجادها إجادة تامة، فقد رأيت وجربت أن خير من يتقن العربية حديثاً وكتابة من المسلمين غير العرب هم الحفظة المجودون للقرآن! كما أن من حفظ القرآن وجوده من المسلمين العرب الكرام فقد مهد له الطريق السهل للوصول إلى قمة البلاغة العربية، وأدرك مكانة الخطباء المصاقع والكتّاب المبدعين بالعربية الفصحى، وآمن من إضلال المضلين وإفساد المفسدين الذين يقطعون الطريق على العرب من صلتهم بعروبتهم وعربيتهم الفصحى، فكأن تحفيظ القرآن وتجويده في العالم العربي والإسلامي إنما هما خير وسيلة للمحافظة على الإسلام والدفاع عن الفصحى! وهما ضمان مؤكد وثيق لمستقبل اللغة العربية الفصحى، بمشيئة الله وتوفيقه!

الهوامش والمراجع

١. خطبات بهاول بور بالأردية ص١٥.
٢. إشارة إلى سورة ن، وسورة العلق.
٣. ديوان المتنبي ص ١٤.
٤. ديوان ابن الرومي ص ٤٥٣ طبعة القاهرة ١٩٦٦م.
٥. من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين ص٢٥، طبعة القاهرة ١٩٥٦م.
٦. إشارة إلى سورة البقرة ٣٣ وراجع تفسير روح المعاني ١: ٤٣، طبعة القاهرة ١٩٣٢م.
٧. راجع تاريخ اللغات السامية لإسرائيل ولنفسنون طبعة القاهرة ١٩٣٢م.
٨. المرجع نفسه.
٩. رسائل إقبال إلى الأصدقاء ص ١٢٤.
١٠. خطبات بهاول بور بالأردية ص١٤.

# مدينة غرينوبل الفرنسية

محمد عبدالقادر مرشحة
حلب - سورية

يواجه العالم في هذا العصر تحولات مهمة على مختلف الصُعُد، ويتعرض لمؤثرات بيئية وحضارية متنوعة، ويغدو متغيراً وبؤرة تتجمع فيها الحضارات واللغات والأجناس المختلفة. فقد أصبح الحديث عن أي بقعة من العالم كأنه حديث عن مكان حميمي معروف عند الناس بمختلف مشاربهم وبيئاتهم وتباين أجناسهم. لذلك أضحى ضرورياً تعرف كل بقعة من هذا العالم الزاخر بالمخترعات العلمية ووسائل الاتصال المدهشة، واكتشاف كل غامض ومبهم يحتاج إلى توضيح. ولما كانت فرنسا شديدة الالتصاق بتاريخ العرب وأرضهم، وموقعاً متميزاً في العالم المعاصر، اخترنا مدينة من أكثر مدنها عراقة وأهمية في التاريخ الأوربي عموماً، وفي تاريخ فرنسا خصوصاً، علنا نستطيع الولوج إليها واستنطاقها وتحديدها بحيث يصبح في مقدور المتلقي العربي تكوين رأي موجز عنها، وأخذ تصور مبدئي لها، فيأخذ فكرة عجلى - ولكنها مفيدة - عن جغرافيتها وحضارتها وبنيتها التحتية وأنشطة سكانها المتعددة.

### جولة في مدينة غرينوبل Grenoble

تقع مدينة غرينوبل الفرنسية في الجنوب الشرقي من فرنسا، في منطقة جميلة تحيط بها جبال الألب الشاهقة. ذلك أنها تنتمي إلى إقليم رون ألب Rhone-Alpes، وعاصمة هذا الإقليم هي ليون Lyon، وتأتي غرينوبل ثانية في الأهمية بعد مدينة ليون(١).

وهي ليست بعيدة عن ليون التي تقع في شمالها الغربي. وعلى الرغم من أن عدد سكان غرينوبل قليل نسبياً ( هو في حدود ٠٧٣ ـ ١٦٦ نسمة تقريباً)(٢)، فإن السيّاح يقصدونها من كل حدب وصوب صيفاً وشتاءً، ليزرعوا المدينة نشاطاً وحركة. وتتميز هذه المدينة ببردها القارس في فصل الشتاء، حيث تنخفض درجة الحرارة انخفاضاً شديداً لتصل إلى تحت الصفر ليلاً، بينما تراوح بين الصفر وخمس درجات نهاراً، وقد تصل درجة الحرارة صيفاً إلى خمس وعشرين، ولا سيما في شهر آب/أغسطس، حيث يهرع سكانها إلى المخازن لشراء المكيفات لتلطيف الجو. وتعد غنية بالمياه، إذ إن فيها نهرين غزيرين هما نهر الإيزير Isere والدراك Drac اللذان يلقبان بالثعبان والتنين(٣).



منظر من أحد الجبال المطلة على المدينة

وتحيط بها كتلتا بيلدون Belledonne وشارتروس Char-trousse.

ولا شك في أن موقعها الجغرافي ووفرة مياهها قد مكّناها من أن تتبوأ سريعاً مركزاً مرموقاً في فرنسا، وأن تصبح محطة تجارية وسياحية لافتة للانتباه؛ فقد أقيم سدّ على نهر الإيزير بهدف تنقية المياه؛ وذلك في منطقة سانت إغريف Saint-Egreve.

ولا يختلف اثنان في أن نهري الإيزير والدراك أضفيا على مدينة غرينوبل رونقاً خاصاً، وألبساها حللاً من الأزهار والخضرة والجمال الطبيعي. فالمدينة - شأنها في ذلك شأن أغلب المدن الفرنسية الأخرى - ذات خضرة دائمة، ومطر غزير، وكل شيء فيها يوحي بالشاعرية والانسجام والروعة. فقد منحها الله سبحانه وتعالى جمالاً فائقاً، وحباها خيراً وافراً، ونعيماً متجدداً، وهدوءاً منقطع النظير. وهكذا بدت المدينة جميلة بانسجامها وبهائها. فحيثما ينتقل المرء في غرينوبل. يقع ناظراه على أشجار الكرز والبندق والجوز والأزهار بأنواعها المختلفة. ولعل الشيء المثير للانتباه في هذه المدينة هو ولع أهلها بالحدائق، وافتنانهم في زخرفتها والعناية بها وزرعها بالخضراوات والأزهار والأشجار المثمرة. فأينما تجول الإنسان يجد السكان المحليين مهتمين بحدائقهم الخاصة، ومخصصين أوقات فراغهم للعناية بها وسقايتها، فهم يهيمون بالزهر والورد والفريز والخس والسبانخ... إذ لا يجدون حرجاً في الإفادة من بساتينهم الصغيرة والأكل من ثمارها اللذيذة. وهذا هو سر اللون الأخضر البهي الذي يلوّن طبيعة غرينوبل الخلابة. لذلك يحب سكانها التنزه في أيام العطل، ولا سيما يوم الأحد من كل أسبوع، فهم يفضلون الذهاب إلى مناطق جميلة في مدينتهم. وغالباً ما تكون هذه المناطق على ضفاف أحد

النهرين: الإيزير أو الدراك، أو ينشدون شواطئ البحيرات الصغيرة المتعددة، من أمثال بحيرة سانت إغريف الجميلة التي تجذب زوارها من السياح الأجانب الذين يقيمون فيها إقامة دائمة أو مؤقتة. إن أغلب هؤلاء الزوار يغشون هذه البحيرات حاملين اللحوم لشيها على الفحم، أو يأتون بفطائر الهامبرغر التي يجهزونها في بيوتهم. ويطيب لهم أن يأكلوا وهم يجلون عيونهم بالمناظر الخلابة التي تزين هذه البحيرة من كل جهة، كما أن هناك متنزهات أخرى مثل متنزه جزيرة الحب Ile d'amour التي تقع على نهر الإيزير بين منطقتي ميلان وسانت مارتان دير Saint Martin d'heres.

هذا إن رغب أهل غرينوبل في البقاء بمدينتهم مؤثرين عدم تركها والبحث عن مواقع جميلة على أطراف المدينة. على أن هناك عدداً غير قليل منهم يفضل السفر إلى ضواحي المدينة بحثاً عن الجمال الطبيعي المنثور في كل مكان منها. فمنهم من يختار الصعود إلى قمة جبال بيلدون وشارتروس للتزلج على الثلج والتمتع بدفء الشمس الساطعة على أعلى القمم والمنعكسة على بياض الثلج لتزيده ألقاً وإشراقاً. ويؤثر السكان حرق جلودهم بحرارة الشمس التي تجعل برودة الثلج حرارة عذبة تدغدغ الناس، وتلهب عواطفهم ومشاعرهم(٤).



قرية فيركور في ضواحي مدينة غرينوبل

وهنا نسجل أن قاصدي الجبل الثلجي يمارسون رياضة التزلج على الثلج (السكي Ski). صحيح أن هذه الرياضة صعبة وخطرة في كثير من الأحيان، إلا أن أهل غرينوبل يقبلون على ممارستها صغاراً وكباراً؛ لأنها كفيلة بكسر حاجز الملل وتحطيم رتابة الحياة الاجتماعية المهلهلة. وهي حديثة نسبياً قياسا على الرياضات الأخرى، فقبل سنة ألف وتسعمئة وثماني عشرة لم تكن هذه الرياضة ممارسة كثيراً على هذه الجبال، ثم طورت هذه الرياضة الفرنسية، واختيرت غرينوبل مكاناً للألعاب الشتوية لعام ألف وتسعمئة وثمانية وستين(٥). كما أن للجبال أثراً كبيراً في جذب السياح من كل حدب وصوب.

وقد يختار أهل غرينوبل مكاناً آخر ينفثون فيه همومهم ويستنشقون الهواء النقي والجميل، فينزلون قصر فيزيل Le Chateau de Vislle (٦) القريب من غرينوبل. ذلك أن لهذا المكان أهمية تاريخية جديرة بالاهتمام، فقد اندلعت منه شرارة الثورة الفرنسية الكبرى عام ألف وسبعمئة وتسعة وثمانين، لذلك فإن زوار هذا القصر الجميل يتمتعون بجمال أشجاره وبصفاء مياهه، فضلاً عن قيمته التاريخية لكونه رمزاً للثورة الذائعة الصيت عالمياً، ويذكر بعض المؤرخين الفرنسيين أن



أحد الشوارع وتبدو في الصورة كاتدرائية سان لويس



قسم من الطبيعة المحيطة بمدينة غرينوبل

رؤساء فرنسيين متعددين نزلوا فيه صيفاً من أمثال فانسان أوريول Vincent Auriol (١٨٩٠ ـ ١٩٧٠م)، ورينيه كوتي Rene Coty (١٨٨٢ ـ ١٩٦٢م) والجنرال دو غول Le General de Gaulle (١٨٩٠ ـ ١٩٧٠م)(٧).

وثمة مكان آخر لا يقل أهمية عن هذا القصر، إنه قلعة الباستيل المنتصبة على جبل يشرف على نهر الإيزير حيث نرى بعض المعالم التاريخية. ويصعد السياح إلى القمة بواسطة عربات التلفريك Telepherique المؤلفة من أربع عربات معلقة بالأسلاك وقاعدتها محطة صغيرة على ضفاف النهر ونهايتها أعلى قمة في قلعة الباستيل Fort de la Bastille. ومن هنا يستطيع الإنسان التمتع بمنظر كلي ومتعدد للمدينة بكل ما فيها من جمال خارق مصبوغ بلون أخضر بهي.

وما من شك في أن غرينوبل تتباهى أمام أخواتها من المدن الفرنسية الأخرى بأنها أول مدينة فرنسية عرفت التلفريك لنقل السياح إلى قلعة الباستيل والتمتع بمناظر كتلة بيلدون، والإطلالة على الأبراج الثلاثية الحديثة التي شيدت في وسط المدينة تقريباً، وكذلك يمكن التمتع بأشكال البيوت القديمة ذوات السقوف الحمر التي ولد فيها ستاندال Stendhal عام١٧٨٣م الكاتب الفرنسي المشهور(٨).

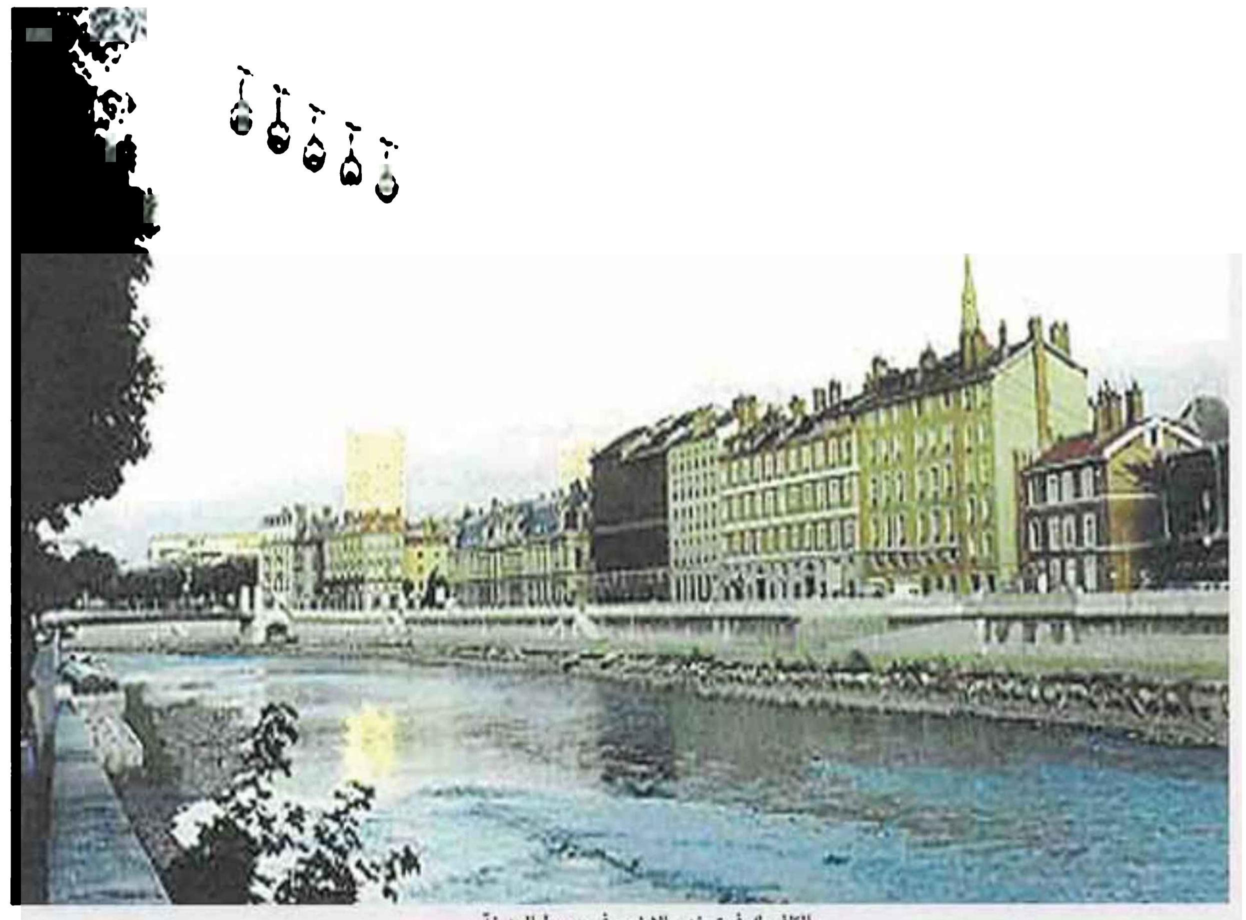
ونضيف إلى ذلك أن مدينة غرينوبل تعد مركزاً صناعياً مهماً، ففي الوقت الذي بقيت فيه نائمة ضعيفة الحركة والتطور، نفضت عن كاهلها غبار الكسل فجأة وأخذت تخطو خطوات سريعة نحو الحداثة والتطور بحلول عام ألف وثمانمئة وسبعين، حين ظهرت الطاقة الكهرمانية Hydroc-lectrique، وأحدثت مراكز لها على الجبال القريبة، أي في كتلة شارتروز Massif de Grande-Chartreus الجبلية الواقعة شمال غرينوبل. كما أنشئ فيها مركز لبحوث الطاقة الذرية أضحى اليوم متمتعاً بشهرة عالية متميزة، فضلاً عن مراكز توليد الطاقة الكهربائية المائية والنووية. وقد أسهمت هذه الطاقة في ارتقاء صناعات متطورة جداً جعلت مدينة غرينوبل غنية في اقتصادها، متطورة في المجالات العلمية والثقافية. ولا يغيب عن بالنا أن معامل إلكترونية كثيرة في إيبا Eybens وإيروبل Europle قد تمكنت من تغيير المشهد

الصناعي لمدينة غرينوبل، كما تم تشييد مركز لرجال الأعمال في منطقة إيروبل. وهناك المركز المهم في منطقة ميلا المخصص لدراسة الاتصالات السلكية. وهكذا يؤكد أهلها أن مدينتهم نالت شهرتها في مجال الصناعات الإلكترونية تحديداً. ولعل سر هذا التقدم العلمي يكمن في تمركز الجبال حول المدينة مما يساعد العلماء والتقنيين كثيراً.

أما إذا انتقلنا إلى الحديث عن المجتمع الغرينوبلي فيحسن بنا أن نتذكر أنه منذ سنة ألف وتسعمئة وستين أخذ هذا المجتمع يتخلى تدريجياً عن النموذج الريفي الكلاسيكي، وبدا أكثر انفتاحاً وحركة وثورة على التقاليد المتوارثة. وهذا يقودنا إلى تناول أهمية المدينة تاريخياً.

## أهمية غرينوبل تاريخياً

يقال: إن غرينوبل تعد مهد الثورة الفرنسية لسعيها إلى الحد من العسف والجور اللذين كانت السلطة المركزية تمارسهما، كما أرادت تحقيق العدالة المالية والمساواة المدنية، من غير رغبة في هدم النظام القديم في هذه الفترة. ذلك أن الثورة الفرنسية قامت على أكتاف النبلاء. فابتداء من يوم السبت الموافق للسابع من حزيران عام ألف وسبعمئة وثمانية وثمانين تجمع حشد كبير من النبلاء المحتجين الذين قذفوا جنود الملك بالقرميد والحجارة، وكانت حصيلة هذه الاحتجاجات الدامية نحو عشرين جندياً من أعوان الملك، كما قتل ثائران. ولا شك في أن هذه الثورة الصغيرة هي التي أدت إلى انهيار أسس النظام القديم. فقد أراد الفلاحون والمدنيون الغرينوبليون أن يمنعوا رجال البرلمان من أن يطيعوا أمر الملك بالنفي خارج غرينوبل. وفي الرابع عشر من حزيران استقبل قصر البلدية Hotel de Ville تسعة من رجال الدين وثلاثة وثلاثين نبيلاً وتسعة وخمسين عضواً من أفراد الشعب والإكليروس، إذ تبنوا



التلفريك فوق نهر الإيزير في وسط المدينة



ساحة فيردا

بعض القرارات والأمنيات التي أعدّها المحامي جان جوزيف مونييه Jean-Joseph Mounier وطالب بها. ومن هذه المطالب عودة برلمان غرينوبل بحقوقه جميعاً، واستدعاء الجهاز العسكري المحلي، أي المطالبة بالحكم اللامركزي. واجتمع النواب وممثلو الشعب الذين أتوا من حواضر غرينوبل والأرياف المحيطة بها على الرغم من منع الملك لويس السادس عشر لهذا الاجتماع الذي عقد في قصر فيزيل بتاريخ الحادي والعشرين من شهر تموز/يوليو لعام ألف وسبعمئة وثمانية وثمانين. وتخبرنا المراجع الفرنسية أن قصر فيزيل خصّصه صاحبه الصناعي الثري جداً السيد كلود بيرييه Claude Perier لأربعمئة وواحد وتسعين مندوباً. ونتج من هذا الاجتماع أن خمسين قسيساً ومئة وخمسة وستين نبيلاً ومئتين وستة وسبعين عضواً من الشعب غير النبلاء أو القساوسة تبنوا بالإجماع القرار النهائي القاضي بالموافقة على مقترحات المحامي جان جوزيف مونييه الذي كان قد طالب بإدانة النظام القضائي للملك وإقامة نوع من الديمقراطية في غرينوبل والمدن التابعة لها (دوفينوا)، مع مرعاة المصلحة الوطنية ووضعها فوق مصالح المناطق المحلية. وهكذا تحققت مبادئ الثورة الفرنسية فيما بعد، وانتصرت كلمة

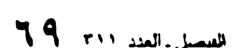

برج بيرييه

الشعب الذي عبّر عن رغبته في التمتع بكامل حريته، فانعكست نتائج هذه الانتفاضة على فرنسا كلها وعلى القارة الأوربية جميعها لاحقاً؛ ذلك أن الدول الأوربية أخذت تقلّد الثورة الفرنسية وتتخذها المثال الأعلى في سعيها إلى الحرية والثورة على التقاليد السائدة(٩). كما ينبغي لنا في هذه العجالة ألا ننسى أنه كان محيط مدينة غرينوبل ملجأ للثوار بين سنتي ألف وتسعمئة وثلاث وأربعين وألف وتسعمئة وأربع وأربعين، وتحول إلى مسرح للمعارك الطاحنة.

هذا جانب مهم من جوانب غرينوبل التاريخية، أما آثارها التاريخية فكثيرة، ولكنها لا توازن بالآثار العربية والإسلامية، فهذه أكثر عراقة وروعة.

### معالم غرينوبل ومنشآتها

ولعل من أهم ما يميز إطار غرينوبل التاريخي أن بيوتها القديمة تشكل قلب المدينة القديمة للقرن السابع عشر محاطة بكنيسة سان أندريه Saint-Andre. كما أن سور المدينة الحصين مؤلف من مجموعة من الحصون، ونذكر من بين هذه الحصون الكثيرة باب فرنسا La Porte de



France الذي شيّد عام ألف وستمئة وعشرين. ويُعد هذا الباب هو المدخل الأساسي للمدينة وشُقت الصخرة المحيطة به في القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من أنه معزول وسط عدة معابر مرورية موجودة داخل المدينة، فإنه يشكّل معلماً أثرياً بارزاً لغرينوبل القديمة. أضف إلى ذلك أن باب سان لوران Saint-Laurant قد احتفظ بخندقه وبجدران حصونه.

ومن أوابدها التاريخية أيضاً قصر الشعب القديم Le Palais de Justice الذي أمر الملك لويس الحادي عشر Louis Xi ببنائه، ثم وسع بطلب من فرانسوا الأول Francois في عام ألف وخمسمئة وخمسة عشر. ومما يلفت انتباهنا هنا أن في واجهته تجتمع الملامح الغوطية والإيطالية. ثم إنه من المثير للإعجاب أنه لا توجد اختلافات ناتجة من تغير العصور والأساليب، إذ تواجهنا العصور الوسطى عن يساره والنهضة عن يمينه، وفي داخله الصالة التاريخية حيث يجتمع مجلس الكونت.

وكنا قد تحدثنا عن قصر فيزيل الذي قام بتشييده المهندسان بيير لاكويس Pierre La Cuisse وغليوم لو موين Guillaume Le Moyne، وزينته زخارف الفنانين البروتستانتيين القادمين من الشمال والشرق من أمثال يعقوب ريشييه Jacob Richier. ونشير هنا إلى أنه اختفى جزء منه عام ألف وثمانمئة وخمسة وستين(١٠).

ونضيف إلى ذلك أن فيها كنائس كثيرة، نذكر منها كنيسة سانت أندريه التي تعود إلى القرن الثاني عشر، وكنيسة سانت لوران التي بنيت في القرن الحادي عشر. ولعل الجميل حقاً هنا هو أن كاتدرائية سان موريس دو فيين Saint Maurice de Vienne تحتفظ بأصالة النحات الذي نحتها، إذ إن هذا الأخير كان تلميذاً لبيرنان Bernin وميشيل آنج سلودز Michel-Ange Slodz. ويمكن ذكر عدة كنائس أخرى مثل كنيسة سان جوزيف Saint-Joseph وسان لويس Saint-Louis وسان برينو Saint-Bruno(١١). ولا يغيب عن بالنا أن في غرينوبل متحف ستاندال الأثري والمهم، وأن هذه المدينة احتضنت الألعاب الأولمبية الشتوية عام ألف وتسعمئة وثمانية وستين.

كما أن هناك معالم تطبع المدينة بطابع خاص، نذكر منها مقر الولاية La Prefecture الذي يعد أحد أهم المباني الحكومية في فرنسا.

وكذلك هناك ساحات تضفي على غرينوبل سمات وخصائص مميزة، فمن هذه الساحات ساحة فيردا Place Verdun وساحة غرونيت Place Grenette وساحة فيكتور هيغو Place Victor Hugo والمتحف الدوفيني Musee Dau-phinois والمسرح البلدي Theatre Municipal والمركز الثقافي Maison de la Culture. وتفخر غرينوبل بثانوياتها الكثيرة، ومن هذه الثانويات ثانوية ستاندال Lycee Stend-hal وثانوية شامبوليون Lycee Champollion. كما يعد مشفى ألبير ميشاللون Albert-Michallon مركزاً طبياً مرموقاً في مجال طب الأطفال والأعصاب خصوصاً. وأما مشفى الجنوب فقد شيد بمناسبة الألعاب الأولمبية الشتوية. والحق أن من معالم غرينوبل المتطورة مدينتها الرياضية التي تضم ملعباً لكرة القدم وملعباً آخر للرقص الفني على الجليد المسمى مانديس فرانس Mendes-France.



ساحة محطة القطارات

وأما الحرم الجامعي Le Campus Universitaire الذي تبلغ مساحته أكثر من مئتي هكتار، والذي يقع في مقاطعتي سانت مارتان دير Saint-Martin d'heres وجييرس Gieres(١٢). فهو يضم عدداً من الجامعات العريقة التي أسهمت بشكل مباشر في النهضة الصناعية المدهشة. ولعل جامعة ستاندال L'universite de Stendhal هي أشهر هذه الجامعات، إذ تخرج حملة الشهادات في الآداب واللغات. ويؤكد الفرنسيون أن جامعة غرينوبل عريقة تاريخياً؛ إذ افتتحت عام ألف وثلاثمئة وتسعة وثلاثين. وكانت في بداياتها تنصب اهتماماتها على علوم الدين والأخلاق ودرس الحقوق.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن وسائل المواصلات في غرينوبل فسنجدها متطورة كثيراً، وهذا ليس بعجيب في أوربا، فلكي يستطيع السياح وسكان غرينوبل التجول فيها والانتقال من منطقة إلى أخرى جُهزت وسائل النقل المتطورة؛ إذ إن هناك خطين حديديين (للترام) يخدمان المدينة وينقلان الركاب بسرعة مدهشة وبسعر زهيد (نحو خمسة فرنكات فرنسية). كما أن هناك مركز انطلاق ضخماً للقطارات كان قد أُنشئ للألعاب الأولمبية الشتوية(١٣). وبفضل القطار السريع T.G.V يستطيع السياح والمسافرون المحليون التنقل بين مدن فرنسا المختلفة والتمتع بالمناظر الخلابة بأمان، كما يُقدم هذا القطار المدهش خدماته لرجال الأعمال والموظفين المتوجهين إلى باريس تحديداً.

وهناك المأكولات والوجبات المشهورة في غرينوبل خصوصاً مثل الغراتان دوفينوا Gratin deuphinois، والكريب والديك الرومي بالكستناء وبعض الأجبان المعروفة.

وما يميز مدينة غرينوبل هو ملاءمتها بين مختلف



جسر يربط بين ضفتي المدينة

الجنسيات والأعراق. ومن الجاليات الأجنبية المهمة فيها الجالية العربية والإسلامية. فأغلب المقيمين فيها من العرب هم القادمون من بلدان المغرب العربي. ويمارس المسلمون عبادتهم بكل حرية؛ لأن هناك عدداً لا بأس به من المساجد والصالات الصغيرة التي استأجرها المسلمون أو بنوها بأنفسهم لإقامة شعائرهم الدينية فيها.

ومهما يكن من أمر فإن تناول مدينة غرينوبل في صفحات قليلات لا يفي هذه المدينة حقها، ولا يمكن أن يحيط بكل شيء فيها، ومن ثم فإن الدرس الوصفي أو التاريخي لها يميل إلى وضع نقاط هنا وهناك لإضاءة الجوانب الأساسية للمدينة جغرافياً وتاريخياً وعلمياً؛ ذلك أنها - يا للأسف - مجهولة في عالمنا العربي. ولا ندعي هنا أننا استطعنا تقديم المعلومات اللازمة عنها، ولكننا أعطينا فكرة عجلى عن هذه المدينة وعن أهم الأشياء التي يفضل المثقف العربي معرفتها، كي يصبح في مقدوره تكوين فكرة موجزة عنها واستدعاء تصور مبدئي لها وبناء عالمها في مخيلته، فيأخذ فكرة سريعة وموجزة - ولكنها مفيدة - عن أرضها وجغرافيتها وتاريخها وحضارتها وتنوع سكانها وأنشطتهم المتعددة.


المراجع

1- Johardagh et Colin Jones: Atlas de la France, Histoire, Culture, Societe, Nathan 1992. P.197
2- Encyclopedie de la langue francaise, Hachette 1991, P. 589.
3- Paul Dreyfus: Le Serpent et La Dragon, Cleant, Grenoble 1992, p.1.
4- Jean-Pierre Andrevon: Je me souviens de Grenoble, Editions Curandera, 1993, P. 30.
5- Johardagh et Colin Jones: Atlas de La France, Histoire, Culture, op.cit, P. 197
6- Jean-Pierre Andrevon: Je me souviens de Grenoble, Op.Cit, P. 10.
٧. المصدر السابق، ص ١٠.
8- Johardagh et Colin Jones: Atlas de France, Histoire, Culture, op cit, P. 197.
9- Louis Comby: Histoire des Dauphinois, edition Fernand Nathan 1978,pp. 91-93.
١٠. المصدر السابق، ص ٩١.
11- Jean-Pierre Andrevon: Je me souviens de Grenoble, Op.Cit, P. 66.
12- Paul Dreyfus: Le Serpent et Le Dragon, Op.Cit, pp.110-111.
١٣. المصدر السابق، ص٩٤.


* مصادر الصور: أرشيف «الفيصل» و الإنترنت.

# الكيمياء والإرهاب.. الرابطة النكدة!!

**أحمد بن حامد الغامدي**
الرياض - السعودية

**يومًا بعد يوم وحدثًا بعد آخر سياسيًا كان أو علميًا تزداد الصورة النمطية والمقولبة للكيميائيين ومن لف لفهم سوءًا وقتامة إذ توشك أن تصبح مكانتهم الاجتماعية والعلمية في مهب الريح. والسبب في ذلك بيّن لمن أراد أن يرى الحقيقة المجردة، فعلى مبدأ «من ثمارهم تعرفونهم» لا يمكن لأحدنا أن ينكر أنه على الرغم من الخدمات الجليلة التي تقدمها الكيمياء للمجتمع، إلا ان لها مع هذه الأيادي البيضاء إسهامات غير محمودة في إضفاء الشقاء والفواجع الأليمة على مسار التاريخ البشري.**

لو كان سهمًا واحدًا لاتقيته

**وإذا كان الحال كذلك فإنه من نافلة القول الإشارة إلى** أن نصيب العلماء المسلمين والعرب المعاصرين من سهام الاتهام تلك سوف يكون وافرًا وتامًا. فالسبب في إشكالية التشويه المزدوج هذه للكيميائيين المسلمين راجع بدرجة أو أخرى إلى ما اجتمع فيهم من عراقة النسب، من جهة، وطيب الفعال من جهة أخرى. أما عراقة النسب، فليس خافيًا ما يلاقيه الإسلام منهجًا وأفرادًا من حملات شعواء متجددة ومتزايدة من التشويه والانتقاص والسب العلني، ومن الطبيعي أن ينسحب على علماء المسلمين ومخترعيهم ما ينسب ظلمًا لعامتهم، فالمسلمون لحمة واحدة.

**فالإشكال يتجلى في أنه لو توقف التشويه عند هذا الامر لأمكن التعامل معه بشكل أو آخر لانه قد تنكر العين ضوء** الشمس من رمد كما يقال، لكن ما زاد الطين بِلّة تلك الحملات المتزايدة في الغرب (منبع الشقاء كالعادة) - التي تندد بشدة وبشكل لافت للنظر بالجوانب الخطيرة وغير المقبولة أخلاقيًا لبعض تطبيقات العلوم التجريبية.

**ولو كان همًا واحدًا لاحتملته**

**خواطر قلبي كلهن همومُ**

لهذا أصبحت مصطلحات مثل Antiscience وخوف أو رُهاب الكيمياء Chemiophobia شائعة الاستخدام، وتعكس بجلاء الموقف من الآثار السلبية والمقيتة للكيمياء. وإذا كان الغرب متجنيًا علينا في انتشار ظاهرة



الكيمياء والإرهاب ... والمعادلات الصعبة

**الإسلامفوبيا في صفوفه، إلا أن له بعض الحق فيما يخص** إشكالية الكيميوفوبيا، فالآثار السيئة للكيمياء بلغ غبارها الخافقين وسارت بمخازيها الركبان. فمثلاً قضية القضايا الآن وهي مشكلة تلوث البيئة التي أصلاً برزت (بزفة) إعلامية محترمة بعد نشر كتاب الربيع الصامت Silent Spring، ما زالت تمثل هاجساً كونياً مقلقاً. أما بقية القضايا التي يصدق فيها قول القائل «يكفيك من شر سماعه» فيكفي أن نعطي نموذجاً واحداً من (طيب الفعال) التي تتحلى بها الكيمياء، وهو الحادث الأليم جداً الذي حدث في مدينة بهابول في الهند عام ١٩٨٤م عندما تسربت غازات كيماوية سامة جداً من أحد مصانع Union Carbide وأدت إلى مقتل ٢٥٠٠ شخص وإصابة عشرات الآلاف بالعمى. لهذا لا عجب أن تكون **صورة الكيمياء في مخيلة الناس غاية في التشويه والتنفير. ولهذا أصبحنا ننافس، وبامتياز، الشرائح المجتمعية التي لها صور نمطية غير مشرفة، مثل السياسيين والمحامين وعلماء النفس، بل حتى أطباء الأسنان.**

على كل كان يمكن أن يكون تشويه الكيمياء أقل وطأة وفداحة لو أن الكيمياء لم تشارك بفعالية ملحوظة لا تحسد عليها في النشاط المحرم والضرب تحت الحزام عندما استخدمت كمخلب قط قذر في الجوانب الإجرامية في الحروب العسكرية والإرهاب عن طريق استخدام الغازات السامة، والأسلحة الكيماوية الفتاكة وأسلحة الدمار الشامل. في الواقع أنه، كما في الحروب السياسية العسكرية كذلك في العمليات الإرهابية المدنية، كان للكيمياء دور خطير جداً في كتابة التاريخ عبر أدواتها

المتعددة والتي من ضمنها الثالوث الرهيب: المتفجرات والغازات والسموم.

وقبل أن نشرع في الحديث بشيء من التفصيل عن كل نوع من أجنحة الهلاك الثلاثة هذه، أود أن أوضح أن الانتقاد منصب على الاستخدام المنحرف للكيمياء بوصفها وسيلة قتل جماعية. هذا الانتقاد لا يعني بالضرورة تجريم كل المعارك الحربية أو عمليات النضال التحريرية المدنية، فكما لا يخفى ليس حكم العمليات الاستشهادية الجهادية في فلسطين مثلا كحكم العمليات الإرهابية المستنكرة مثل إطلاق غاز الأعصاب في محطة أنفاق طوكيو، فتأمل الفرق.

## الأسلحة الكيماوية Do-it-Yourself

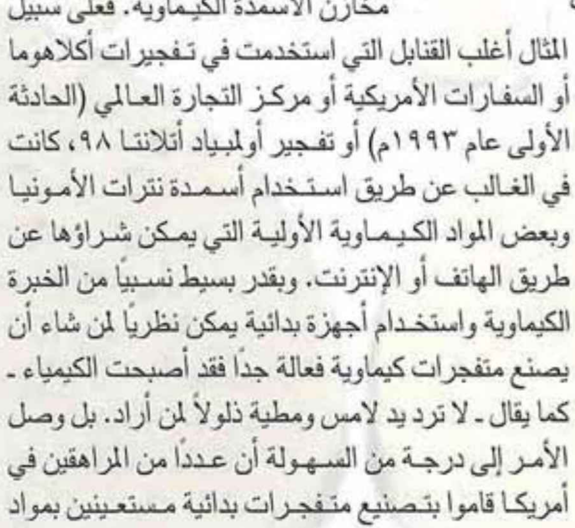
في العلم، كما هو الشأن في السياسة، يطمح الجميع إلى مساواة وتكافؤ الفرص. لذا ليس عجبًا أن عدة أطراف سعت إلى كسر حاجز احتكار ترسانة أسلحة الدمار الشامل mass destruction ولهذا اهتم عدد من الدول الصغيرة والجماعات لاقتناء أسلحة الفقراء التي تمتاز بأنها من فئة ما خف وزنه وعظم أثره. كان الخيار الأول لكثير من الأطراف هو محاولة تصنيع الأسلحة الجرثومية والبيولوجية Bioweapons لما لها من أثر هائل في صعيد القتال أو حتى فقط في التخويف النفسي والدبلوماسي. لكن فيما بعد اتضح أن التعامل مع هذا النوع من الأسلحة بالغ الصعوبة إنتاجًا وتعاملاً ونشراً. ولك أن تعلم - على سبيل المثال - أن جماعة (أوسهارا) اليابانية المتطرفة التي قامت في عام ١٩٩٥م بإطلاق غاز السرين في محطات أنفاق طوكيو، قد حاولت في أربع مناسبات مختلفة القيام بعمليات إرهابية بيولوجية تمثلت في نشر ميكروبات الجمرة الخبيثة والأيبولا و botulinum toxin عبر شوارع طوكيو بواسطة استخدام شاحنة متنقلة قرب مواقع سيادة حساسة مثل المكاتب الحكومية وقاعدة بحرية لكن هذه المحاولات (كما هو ليس معلوماً!!) أخفقت لصعوبة نشر العوامل الجرثومية. على كل حيرة هذه الجماعة لم تطل كثيراً إذ مدت لها الكيمياء يد المساعدة عندما تحول اهتمام الجماعة الإرهابية إلى تصنيع الأسلحة الكيماوية مثل غاز الأعصاب الذي أعطى نتائج مقبولة (كما هو معلوم هذه المرة) بمصرع ١٢ شخصاً وإصابة خمسة آلاف آخرين. المثال السابق يوضح بجلاء خطورة الأسلحة الكيماوية Chemical Warfare ليس فقط من ناحية كفاءة عملها الإرهابي لكن لأمر آخر أكثر خطورة وأهمية وهو سهولة تصنيعها وإنتاجها، ومن ثم إطلاقها ونشرها، كل ذلك بواسطة أشخاص عاديين ليس لديهم كثير خبرة في الكيمياء، لذا استحقت هذه الأسلحة الفتاكة تسمية Law-Tech terror وكذلك قول الشاعر الحكيم :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها

كُلاها وحتى سامها كل مفلس



إسحق نيوتن

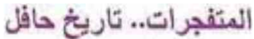


الأمر اللافت للنظر أنه يمكن بسهولة جداً وعبر طرائق نظامية تماماً شراء المكونات الكيماوية الأساسية جداً بواسطة أشخاص عاديين مباشرة من المستودعات الكيماوية الكبرى أو مخازن الأسمدة الكيماوية. فعلى سبيل المثال أغلب القنابل التي استخدمت في تفجيرات أكلاهوما أو السفارات الأمريكية أو مركز التجارة العالمي (الحادثة الأولى عام ١٩٩٣م) أو تفجير أولمبياد أتلانتا ٩٨، كانت في الغالب عن طريق استخدام أسمدة نترات الأمونيا وبعض المواد الكيماوية الأولية التي يمكن شراؤها عن طريق الهاتف أو الإنترنت. وبقدر بسيط نسبياً من الخبرة الكيماوية واستخدام أجهزة بدائية يمكن نظرياً لمن شاء أن يصنع متفجرات كيماوية فعالة جداً فقد أصبحت الكيمياء - كما يقال - لا ترد يد لامس ومطية ذلولاً لمن أراد. بل وصل الأمر إلى درجة من السهولة أن عدداً من المراهقين في أمريكا قاموا بتصنيع متفجرات بدائية مستعينين بمواد

كيماوية مأخوذة من مختبر العلوم بمدرستهم الثانوية. أما طريقة تصنيع المتفجرات فأمكنهم الحصول عليها عن طريق الانترنت. بالإضافة إلى ذلك يوجد عدد لا بأس به من الكتب (المحظورة طبعًا) التي تصف الخطوات والمهارات اللازمة لإنتاج تشكيلة واسعة من المتفجرات والأسلحة الكيماوية ابتداءً بقنابل المولوتوف الحارقة وانتهاءً بغازات الأعصاب. زد على ذلك العدد الهائل من الروايات الأدبية البوليسية والأفلام السينمائية، مثل الرواية الأمريكية التي نشرت قبل سنوات والتي تصف خبايا حادثة تفجير مركز التجارة العالمي الأولى عام ١٩٩٣م، فقد كانت تحتوي على بعض التفاصيل الشائقة!!.



أجاثا كريستي



### المتفجرات.. تاريخ حافل

تعدّ المتفجرات الفارس الأكثر عراقة تاريخًا وشيوعًا من الفرسان الثلاثة لكيمياء الإرهاب. بلا ريب، قلة هي المركبات الكيماوية التي شكلت مجرى التاريخ ومستقبل الأحداث السياسية، مثل ما فعلت المتفجرات. فالكثير من الحروب العسكرية، وحركات المقاومة المدنية وجد في المتفجرات الكيماوية الضالة المنشودة والخادم المعين. الغريب حقًا أن التاريخ الفعلي للتفجيرات لا يمتد أكثر من ألف عام هو العمر الزمني لاكتشاف البارود الذي استخدمه الصينيون في البداية في أمور التسلية في الألعاب النارية أو أحيانًا علاجًا طبيًا لبعض الأمراض الجلدية مع بعض المفرقعات البسيطة. أما التطور المهم للبارود فقد حصل على يد العلماء المسلمين قبل ما يقارب سبعة قرون عندما كانوا أول من قام بتحضير البارود من جراء التراكيب والتفاعلات الكيماوية التي تشمل نترات البوتاسيوم والكبريت والفحم مما نتج منه تحسن كبير في قدراته التفجيرية. كان التقدم الحاسم التالي هو أن المسلمين والعرب كانوا هم أول من وظف قدرات البارود في اختراع المدافع الحربية التي ضمنت النصر المؤزر بعد توفيق الله في دك أسوار القسطنطينية المنيعة وتحطيمها، وكذلك في تمكين المسلمين السلاجقة من النصر على أعدائهم المغول، كما وصف ذلك الرحالة الإيطالي ماركبولو. في الوقت نفسه استخدم المسلمون البارود في المقاومة المدنية ضد المحتل الأجنبي، كما كان الحال في من أطلق عليهم تاريخيًا بالشطّار في مقاومتهم لوجود الفرنجة الصليبيين في بلاد المسلمين. بعد ذلك انتقلت صناعة البارود إلى القارة الأوربية في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي لتصبح عاملاً مهمًا وحاسمًا في أغلب الحروب العسكرية بين الإمبراطوريات الغربية المتطاحنة كما تشهد بذلك اللوحات الفنية الموشحة بدخان البنادق والقنابل، كما في اللوحات الفنية التي تصف حروب نابليون التوسعية أو الحروب الأمريكية الأهلية.

في العصر الحديث تم إنتاج مواد متفجرة أكثر دمارًا وهولاً من البارود مثل: النيتروجلسرين والديناميت ونترات الأمونيوم وTNT وآثارها المروعة في الحربين العالميتين الأولى والثانية، وإزهاقها عشرات الملايين من الضحايا المدنيين أمر معلوم للقاصي والداني. في المقابل كان التغير الجوهري المهم جدًا المتعلق بالمتفجرات أنها أعطت مساندة حيوية جدًا إلى حركات المقاومة المدنية بتمكين مناضلين (وفي واقعنا الإسلامي مجاهدون) من

غير أفراد الجيوش النظامية من إيقاع خسائر جسيمة بالمحتل الأجنبي. بالمناسبة، في اعتقادي الشخصي أن الغرب ليس له الحق في الاعتراض على العمليات الاستشهادية ضده، ليس فقط لشرعية مقاومة المحتل والغاصب، ولكن أيضًا؛ لأن الغرب كان كبيرنا الذي علمنا التفجير ومعلمنا الأكبر في إنفاذ العمليات التخريبية قديمًا وحديثًا منذ أن أرسلت بريطانيا في أوائل القرن الماضي رجل مخابراتها لورنس لتعليم عرب بدو الشام تنفيذ التفجيرات التخريبية لسكة قطار الحجاز القديمة. وسرعان ما تعلم العرب الدرس كما تعلمت حركات المقاومة في العالم أجمع فنون هذه الحرب الجديدة، وطبقتها المقاومة الجهادية بامتياز لطرد المستعمر المسيحي من أغلب البلاد العربية فيما عُدّ بحق انقلابًا للسحر على الساحر.

إذا تركنا السياسة جانبًا، نجد أن تاريخ المتفجرات الكيماوية وأخبارها لا تخلو من عبرة ولطافة على الرغم من أن المتفجرات تعدّ القاتل رقم واحد للجنس البشري من حيث عدد القتلى في فترة زمنية لا تتعدى عشر سنوات هي مدة الحربين العالميتين. وكمحاولة لتخفيف جدية كيمياء الإرهاب وكآبتها نذكر - على سبيل المثال - أن متفجرات TNT التي لم تستخدم في ساحات القتال إلا عام ١٩٠٥م كانت قبل ذلك بفترة من الزمن تستخدم بواسطة الكيمياء العضوية في صناعة الأصباغ والألوان. هذا التناقض الصارخ في استخدام المادة الكيماوية نفسها في استخدامين متباينين جدًا يذكرنا بقول الشاعر العربي ابن الوردي إذ يقول:

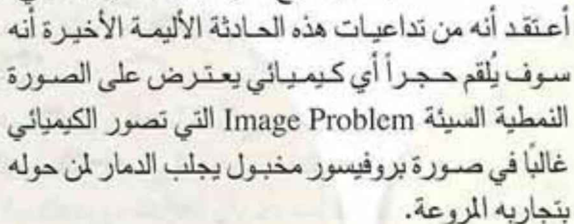
**أنا مثل الماء سهلاً سائغًا**

**ومتى سخن أذى وقتل**

على كل مصائب المتفجرات لم تلحق فقط ضحاياها التقليديين لكن شؤم طالعها أصاب حتى مخترعيها. فكما هو معلوم أن العالم السويدي نوبل جمع ثروة طائلة من اختراع الديناميت وغيرها من المتفجرات، لكن شعوره بالذنب المؤنب للضمير لمصير آلاف القتلى وخصوصًا بعد مقتل أخيه الأصغر في انفجار أحد مصانعه، كل ذلك دفعه إلى وقف ثروته في خدمة العلم والتقدم البشري. بصورة مشابهة، وإن كانت أقل مأساوية، تعرض العالم الألماني هيبر لحملة تشويه إعلامية وتشهير علني من العلماء والإعلام البريطاني والفرنسي احتجاجًا على منحه جائزة نوبل نظير اكتشافه طريقة كيماوية مبتكرة لإنتاج الأمونيا الداخلة في تصنيع المتفجرات والأسمدة، الاختراع الذي ساعد ألمانيا كثيرًا على الصمود في وجه الحلفاء في الحرب العالمية الأولى. وبمناسبة ذكر نوبل وجائزته المرموقة يجدر أن نشير إلى أن المتفجرات أهلت شخصية أخرى للحصول على هذه الجائزة، لكن في مجال الأدب هذه المرة، إذ حصل الروائي الأمريكي أرنست همنغواي على جائزة نوبل في الأدب تقديرًا لروايتيه «لمن تقرع الأجراس» و«العجوز والبحر» علمًا أن الرواية الأولى تدور حول الحرب الأهلية الإسبانية ومحاولة مجموعة من المناضلين المتطوعين تفجير جسر معلق. ونختم ذكر التفجيرات الكيماوية غير المحببة بالإشارة إلى مصرع بروفيسور كيميائي بولندي قبل أشهر أثر على انفجار شنيع دمر تمامًا مختبره العلمي.

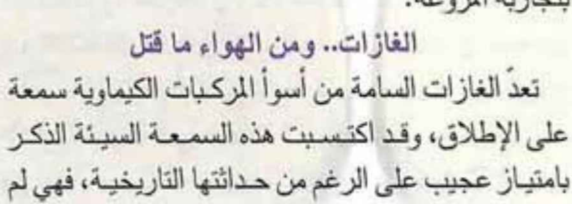

كليوباترا

أعتقد أنه من تداعيات هذه الحادثة الأليمة الأخيرة أنه سوف يُلقم حجرًا أي كيميائي يعترض على الصورة النمطية السيئة Image Problem التي تصور الكيميائي غالبًا في صورة بروفيسور مخبول يجلب الدمار لمن حوله بتجاربه المروعة.

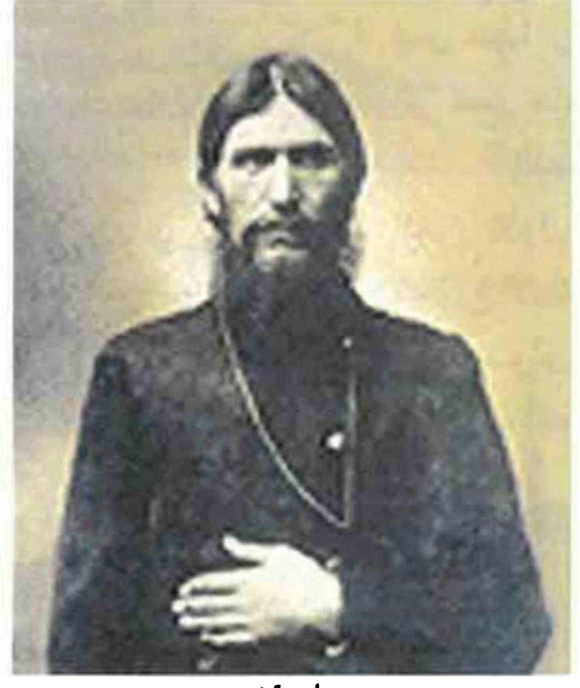


### الغازات.. ومن الهواء ما قتل

تعدّ الغازات السامة من أسوأ المركبات الكيماوية سمعة على الإطلاق، وقد اكتسبت هذه السمعة السيئة الذكر بامتياز عجيب على الرغم من حداثتها التاريخية، فهي لم



تكمل قرنها الأول بعد. وعلى الرغم من قصر عمرها الزمني، ومحدودية حوادث استخدامها العسكرية أو الإرهابية إلا أن آثارها الرهيبة والمروعة ضمنت لها مكانًا في القائمة السوداء للمركبات الكيماوية. ولتقريب الصورة يكفي أن نشير فقط إلى أن بعض المصادر ذكرت أنه في أثناء الحرب العالمية الأولى وحدها تسببت هذه الغازات المروعة في إزهاق أرواح ما يقارب المليون ونصف المليون من الأفراد مما يعني أن هذه الغازات من ناحية عدد القتلى كانت أكثر سوءًا بكثير من القنبلة النووية في الحرب العالمية الثانية والتي بكل سمعتها المجلجلة التي بلغت الخافقين لم تحصد إلا عشر ذلك الرقم المريع. وعلى الرغم من المعاهدات الدولية المحرمة لاستخدام هذه الأسلحة السامة إلا أنه تم ولا يزال تطوير أنواع خطيرة فتّاكة من هذا العذاب المنزل، مثل غاز الخردل، وغاز الأعصاب، والسرين، و VX، وغيرها كثير، لا أدام الله بقاءها، وعجّل بخلاص البشرية منها. كما ذكرت سابقًا، تم استخدام هذه الغازات في عدة وقائع في الحرب العالمية الأولى، وكذلك في الحرب الثانية، ويقال: إنها استخدمت كذلك وياللأسف الشديد في الحرب العراقية الإيرانية، وعلى بعض القرى الكردية. في المقابل ولحسن الحظ فإن استخدام هذه الغازات في الهجمات الإرهابية كان نادرًا جدًا، وفي حالات محدودة، مثل الهجوم بغازات الأعصاب على مترو أنفاق العاصمة اليابانية عام ١٩٩٥. لكن من جهة أخرى نجد أن



راسبوتين

إرهاب الدولة والأنظمة المقنن يعطى له الضوء الأخضر في استخدام الغازات المسيلة للدموع، بل حتى استخدام بعض الغازات ذات الأضرار الطبية البالغة. ويكفي أن نستدعي حادثة واحدة من الذاكرة للتدليل على الإرهاب المقنن وهو ما قام به الجيش والسلطات الفيدرالية الأمريكية في عام ١٩٩٣م من محاولة إجبار أتباع ديفيد كورش في مدينة واكو بتكساس على الخروج من المزرعة المتحصنين بها عن طريق استخدام غازات خانقة تسبب تقلص العضلات والإفراغ والغثيان. لك أن تعلم أن ضخ هذه الغازات في مجمع سكني عديم التهوية يحتوي من ضمن ما يحتوي على عشرات الأطفال والرضع أدى الى مقتل عدد من الأبرياء خنقًا كما دلت على ذلك عمليات التشريح والتحقيقات الجنائية.

و تصديقًا لقول الشاعر أبي العتاهية في أرجوزته ذات الأمثال حيث يقول:

**والدهر لا ينفك عن عجيبه**

فمن العجيب أن يمكننا أن نجد بعض الأخبار الطريفة والغريبة في خبايا تاريخ الغازات السامة المثخن بالمآسي والأحزان. فعلى سبيل المثال، بعد أول



تعاون على الإثم والعدوان

هجـوم بالغـازات السـامـة فـي عـام ١٩١٥م باسـتـخـدام غـاز الكلورين لم تجد قوات الحلفاء التي أخذت على حين غرة من سبيل لمحاولة احـتـواء خطر هذا السلاح الجديد إلا أن تأمر قواتها بالأمـر العسكري الصـارم أن يتبـول كل واحـد منهم في منديله ثم يضعـه على أنفه ككمام غـازات غاية في الفجاجة لعل وعسى أن تتـفاعل اليـوريا في بول الإنسـان مع الغـاز السام تصديقا للمقولة المشهورة: الحاجة أم الاختراع. وبما أن سيرة الكمامـات قد انفـتحت، فـفـي عـام ١٩١٤م قـام مخـترع أمريكي أسـود يدعى مورغن باخـتراع قناع أو كمام لغازات الحرائق استحق عليه جائزة علميـة لكن حتـى يقنع إدارة الدفاع المدني بفعاليـة اخـتراعـه هذا اضطر إلى أن يسـتـعين برجل أبيض ليسـتـعرض الجـهـاز أمـام اللجنة المحكمة، بينما اكتفى هو بالقيام بدور المسـاعد له، وهو فـي هيئـة هندي أحـمـر. كل هذا الذل لكـي يتـجنب ويتحـايل على التـفرقـة العنصرية المقيتة السائدة في الـولايات الجنوبية في ذلـك الزمن. أمـر آخـر، هو أن العالم جيرهارد شرودير قـام في عام ١٩٣٦م بتصنيع غاز أعـصاب فتاك آخر هـو غاز Tabun تلاه بعـد فتـرة وجـيزة اخـتراع قـريبـه السيئ الذكـر غـاز الـ Sarin. في الحـقـيـقـة أنني أعـوّل على نباهـة قـارئي العزيز أن هذا العـالم المذكـور هـو عـالـم ألماني هالك، ولـيس المسـتـشـار الألماني الحـالي. بقي أن نذكـر أنه يوجد غـاز

**ليس عجبًا أن عدة أطراف سعت إلى كسر حاجز احتكار ترسانة أسلحة الدمار الشامل فكان الخيار الأول لكثير منها محاولة تصنيع الأسلحة الجرثومية والبيولوجية لأثرها في التخويف النفسي والدبلوماسي**



على الرغم من المعاهدات الدولية المحرمة لاستخدام هذه الأسلحة السامة إلا أنه تم ـ ولا يزال ـ تطوير أنواع خطيرة فتاكة من هذا العذاب المنزل

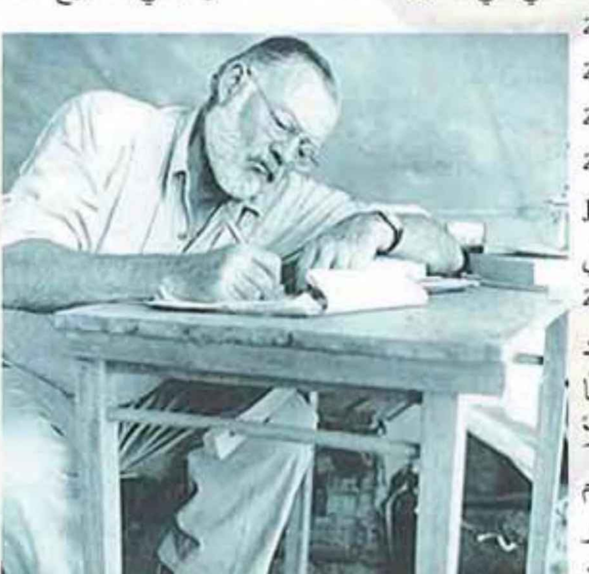
سام نتيجته فتاكة ـ كما يقال ـ يدعى Mustard agent أو غـاز الخـردل، سمي كذلك والعـهدة على الراوي لأن رائحته تشبـه رائحة الخردل العفنة أو رائحـة البصل. السؤال الذي يطرح نفسـه بكل بـراءة كيف عـاش من استنشق هذا الغاز الفتاك ليخبرنا أن له رائحة الخردل؟!!.

### السموم والاغتيالات.. تعاون على الإثم والعدوان

توجد عدة إشارات في بعض كتب التاريخ إلى أن استخدام السموم الكيماوية في ساحات القتال وفي الاغتيالات السياسية كان أمرًا شائعًا و مستخدمًا منذ فجر التاريخ. فوقائع تاريخية شبه موثقة تعود إلى ما يزيد على ٢٦٠٠ سنة تشير إلى تسميم مياه الأنهار أو الآبار بواسطة الأعشاب السامة، بل إن الحرب الجرثومية في صورها البدائية تم استخدامها منذ القدم عن طريق رشق القلاع المحصنة بجيف الحيوانات النافقة بواسطة المنجنيق. وكما كان الحال مع المتفجرات فكذلك الأمر مع السموم فلها إسهام كبير جدًا في تشكيل أحداث التاريخ ومجرى السياق السياسي للعالم. فاستخدام السموم الكيماوية عن طريق الخداع لقتل واغتيال شخصيات فعالة في التاريخ يعدّ أمرًا بالغ الشيوع قديمًا وحديثًا. ويكفي أن نشير إلى أن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم تعرض من يهودية لمحاولة تسمم بشاة مسمومة في اعتداء أثيم لم يكن مخففًا تمامًا، كما هو مقرر في كتب السيرة

النبوية. أحداث أخرى متعددة سطرها المؤرخون شملت إعدام الفيلسوف اليوناني سقراط بسم عشبة برية بتهمة إفساد أفكار النشء (يبدو أن الأحكام المعلبة والجاهزة قديمة قدم الدهر) وكذلك تسميم نابليون والراهب المخيف راسبوتين المسيطر على بلاط آخر قياصرة روسيا. أما الجنس اللطيف فلم تتردد شخصيات سياسية مهمة من ذوات الهمة العالية في الانتحار، مثل كليوباترا والزّباء، وقد قتلن أنفسهن بأيديهن لا بيد عمرو.

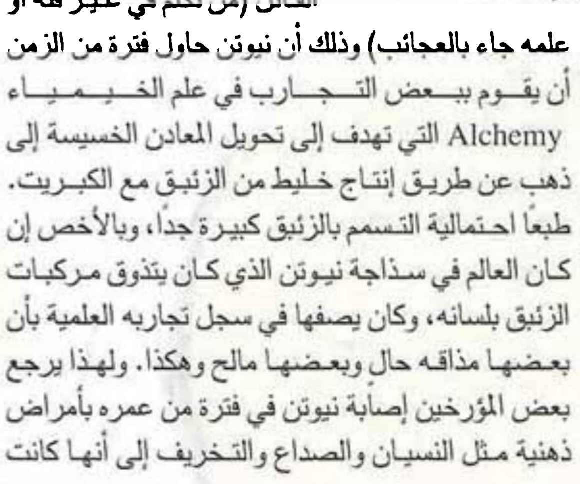
على كل حال فأغلب هذه الحوادث كان ضحاياها حالات وأفراداً معدودين، ولحسن الحظ نادراً ما استخدمت السموم التقليدية سلاح قتل جماعي. في المقابل ساعدت كيمياء السموم جماعات دينية متطرفة جداً على القيام بعملية انتحار جماعية غاية في الغرابة والشناعة. فمثلاً قامت جماعة مسيحية من أتباع المخبول Jim Jones في عام ١٩٧٨م في أدغال غابات غانا بعملية انتحار جماعية بسم السيانيد ذهب ضحيتها ٩١٢ شخصاً من ضمنهم ٢٦٠ طفلاً ورضيعاً. كذلك في عام ١٩٩٤م حصلت عمليتا انتحار جماعيتان متزامنتان لأفراد جماعة متطرفة أخرى في سويسرا وكندا ذهب ضحيتها ٥٣ شخصاً. وكانت خاتمة المأساة حتى إشعار آخر انتحار جماعي بسم في عام ١٩٩٧م لأصحاب مذهب بوابة السماء ذهب ضحيته ٣٠ من الأتباع المغرر بهم.



إرنست همنغواي

وكما كان الحال في النوعين السابقين من أجنحة الكيمياء الإرهابية من ذكر بعض الأخبار الخفيفة فسنختم موضوع السموم بذكر بعض الأحداث الطريفة (إن صح التعبير في وصفها كذلك، فذكر الموت ليس بالأمر الطريف) وما ذلك إلا محاولة لتخفيف الكآبة التي قد تصاحب بعضنا عند ذكر آثار الكيمياء المحزنة. يبدو أن الفرنسيين سبقونا بمدة في اعتناق نظرية المؤامرة، وبخاصة تلك المحاكاة ضد الرموز الدينية. والدليل على ذلك أن عنصر الأنتيموني Antimony الذي له آثار سمية لا بأس بها كان السبب في قتل عدد من الرهبان والنساك في أحد الأديرة في ظروف غامضة وعند البحث والتقصي تم اكتشاف هذا العنصر أول مرة في بعض الأغذية التي كانوا يتناولونها، ولهذا سمي هذا العنصر بهذا الاسم الفريد (عدو الرهبان Anti-monk).

خلط والتباس آخر أكثر شناعة هو ما حصل في لندن عام ١٨٥٨م عندما تسبب مساعد صيدلي أمي لا يحسن القراءة في مصرع عدد من الناس عندما باع لهم مسحوق الزرنيخ الأبيض البالغ السمية على أنه مسحوق plaster of paris الأبيض اللون، والذي يستعمل لصنع الجبائر وبعض العلاجات. وإذا كان مساعد الصيدلي هذا جاهلاً وأمياً وله عذره إلى حد ما فما قولك في الخطأ الشنيع الذي وقع فيه من وصف بأنه أذكى شخص في القرون الأخيرة ألا وهو إسحق نيوتن. المعلوم أن نيوتن عالم فيزيائي فذ بكل المقاييس، لكن وبكل حق، انطبق عليه قول القائل (من تكلم في غير فنه أو علمه جاء بالعجائب) وذلك أن نيوتن حاول فترة من الزمن أن يقوم ببعض التجارب في علم الخيمياء Alchemy التي تهدف إلى تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب عن طريق إنتاج خليط من الزئبق مع الكبريت.



طبعاً احتمالية التسمم بالزئبق كبيرة جداً، وبالأخص إن كان العالم في سذاجة نيوتن الذي كان يتذوق مركبات الزئبق بلسانه، وكان يصفها في سجل تجاربه العلمية بأن بعضها مذاقه حال وبعضها مالح وهكذا. ولهذا يرجع بعض المؤرخين إصابة نيوتن في فترة من عمره بأمراض ذهنية مثل النسيان والصداع والتخريف إلى أنها كانت

ناتجة من التسمم بمركبات الزئبق. وعلى ذكر الزئبق، فقد كان أول من لاحظ أخطاره السامة الرومان الذين لاحظوا أن الأشخاص الذين يعملون في المناجم التي يستخرج منها خام كبريت الزئبق يتوفون في مراحل مبكرة من العمر. لذا أصبحوا يستخدمون عتاة المجرمين في أعمال المناجم والتنقيب. ولحبي النهايات السعيدة أختم بذكر حادثة سعيدة بطلتها ممرضة إنجليزية تعمل في مستشفى هامر سمث الشهير في لندن، فقد أنقذت هذه الممرضة - بتوفيق من الله - حياة طفل من موت شبه محقق عندما لم يفلح الطبيب في تشخيص حالته المرضية. وبما أن هذه الممرضة كانت مغرمة بقصص الروائية أجاثا كرستي المتخصصة في روايات الجريمة لاحظت الممرضة أن أعراض مرض الطفل مطابقة لما ورد في إحدى الروايات من حالة شخص مصاب بحالة تسمم بعنصر الثاليوم النادرة الحدوث. إذ يظهر أن الطفل ابتلع مبيداً للصراصير يحتوي على هذا العنصر، بقي أن أخبرك عزيزي القارئ لتكتمل الحبكة الدرامية السعيدة أن هذه الحادثة وقعت في عام ١٩٦٧م لطفل من دولة قطر الشقيقة.

### كلمة أخيرة.. من هو المتطرف حقاً؟

كما ذكرت سابقًا يتوقع أن تزداد سمعة المسلمين أفراداً وعلماء تشويهاً بعد الأحداث الأخيرة ويكفي أن نشير إلى بعض الأخبار ذات الدلالة الواضحة، وما خفي كان أعظم. فمثلاً كلنا تابع باستغراب الحملة الاعلامية المبالغ فيها، والتي بلغ فيها تضخيم الأمور منتهاها عندما بولغ في إعلان العثور على كتاب في الكيمياء العامة وعدد من مجلة علمية كيماوية في أماكن وجود الأفغان العرب في كابل. وكذلك محاولة التحذير من الطلاب المسلمين الذين يدرسون في الغرب بحجة أن أحد المتهمين في حادثة تفجير مركز التجارة في عام ١٩٩٣م كان حاصلاً على شهادة علمية في الهندسة الكيميائية. في اعتقادي الشخصي أن بذل كل الجهد فقط لمحاولة الدفاع عن الإسلام منهجاً واتباعاً وعلماء ليس فقط هو طريق الخلاص المتاح والوحيد. ليس فقط من قاعدة أن للبيت رباً يحميه، ولكن أيضاً انطلاقا من سياسة أن خير وسيلة للدفاع الهجوم خصوصاً إذا علمنا أن لعدونا مقاتل ومخازي حضارية وعلمية كثيرة وخطيرة. فحتى نعلم حقاً أيًا من الأديان يعلم أتباعه التطرف والعنف وإقصاء الآخر علينا فقط أن نقرأ الكتب المقدسة في الغرب الذي يوجد فيه قطاعات عريضة متدينة تتعامل مع هذه المصادر الدينية بحرفية شديدة. هذا حتماً سيولد العنف الدموي إذا أراد أتباع هذا المنهج التعامل مع الآخر بالأسلوب نفسه الذي تصف فيه التوراة المحرفة تعامل اليهود مع أعدائهم في الحرب من إبادة شاملة لا تستثني طفلا ولا أنعاماً ولا غرساً. كذلك يقال: إن الإسلام انتشر بالسيف، ولكن ألم تدخل النصرانية القارتين الأمريكيتين تحت حراب البنادق، وسعياً وراء الأصفر الرنان. أما كذبة التعايش مع الآخر فيكفي في نقضها أن هذا الآخر سواء أمسلماً كان أم بوذياً لم يستطع العيش في الغرب إلا بعد أن أصبح الغرب علمانياً لا دينياً، وعندما عادت الأصولية المسيحية إلى الغرب ضيق على المسلمين، ودفعوا للهجرة المضادة. أما في جانب العلوم التجريبية البحت فلم تشهد هذا الكم الهائل من الآثار السلبية للعلم إلا عندما طورها الغرب المنسلخ عن القيم. وكأمثلة سريعة من واقع ما تحدثنا عنه خلال هذا المقال يكفي أن نشير إلى أن الكيميائي الأمريكي بارسون وبحكم منصبه القوي في الجمعية الكيميائية الأمريكية نافح بقوة ضد اتفاقية جنيف لحظر استخدام الأسلحة الكيماوية وتطويرها. وبصورة مماثلة عندما طالب قبل سنوات الكيميائي الأمريكي سيبورغ المرموق جداً في المجتمع الكيميائي (حامل اسم العنصر الذري رقم ١٠٦)، عندما طالب بإيقاف التجارب الذرية تعرض لانتقاد مستغرب من بعض العلماء الذين يفترض ان يحملوا رسالة سامية للبشرية، وأن يترفعوا عن الاطماع الفردية أو الفئوية.

> أصبحت مصطلحات مثل خوف أو رُهاب الكيمياء شائعة الاستخدام، وتعكس بجلاء الموقف من الآثار السلبية والمقيتة للكيمياء

---

مصادر الصور: أرشيف **«الفيصل» والإنترنت.**




**عبدالإله بوبكر السويلمي**
**آسفي - المغرب**

**قال الله تعالى: يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون. قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون. ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون. يوسف: ٤٦ - ٤٨.**

إذا استثنينا الأنبياء، فإن عددا قليلاً من الناس هم الذين يستحقون، بحق، أن نلقبهم: «المحسنون إلى الإنسانية»؛ لأن المعيار في تقويم الأعمال، ليس - ولا ينبغي أن يكون - ما قدمه الإنسان إلى حزبه، أو مذهبه، أو بلده، ولكن هو ما قدمه للإنسانية كلها.

وصاحبنا الذي نتحدث عنه اليوم، قد لا نجده في كل كتب التاريخ، ولكنه، وبكل المقاييس، يعد واحداً من صناع الوجه المشرق للحضارة الإنسانية الحاضرة.

ولو سألتني عن صاحبنا هذا، ما مهنته؟ لقلت لك: إنه طباخ. نعم طباخ.. ولكن نمهل، فهو ليس كأي طباخ عرفته. كيف؟

إن مهنة كل طباخ هي أن يطعم الناس، أحلى الطعام وألذه، في حدود ما يتوافر في مطبخه طبعا، أو حتى في حدود ما يجده في السوق. وهو هنا سوق القرية أو المدينة، سوق اليوم أو الأسبوع، ولكل يوم حظه من الخضر، والفواكه، واللحوم، والأسماك، والطيور وغيرها. فيوم من الصيف لا يمكن أن يوازن بآخر من الشتاء أو الخريف وهكذا، كان هذا هو مفهوم السوق عند الطباخ «التقليدي». أما طباخنا، فقد طور هذا المفهوم في الزمان والمكان: فالسوق عنده ليس مكانا ضيقا، بل هو الوطن كله، لا بل العالم كله. كما أن سوق اليوم لا ينبغي أن نجد فيه منتجات اليوم والأمس فحسب، بل يجب أن يضم منتجات السنوات الماضية.

كانت هذه مجرد فكرة في عقل صاحبنا، بل هي فكرة استحوذت على عقول كل الناس منذ القدم، ولا سيما الطباخين منهم، ولكن طباخنا وحده - وهذه إحدى مزاياه، قصر كل حياته من أجل تحويل هذا الحلم البشري إلى واقع.

### طريق الحلم الصعب

لقد حلم الإنسان منذ أن عرف أنه إنسان، باكتشاف الطريقة التي تحفظ له طعامه من الفساد، حتى يوفره للوقت، أو المكان الذي يقل فيه، مع احتفاظه بقيمته الغذائية كاملة أو شبه كاملة. لقد لاحظ أن بعض الحبوب والفواكه الجافة قادرة على حفظ نفسها بنفسها، كما علمته التجربة كيف يحتفظ بجزء من حصاده السنوي لتزويده بحاجته من البذور للعام التالي، ولكنه وقف حائرا وعاجزا أمام الكثير من الأطعمة كيف يحافظ عليها.

وجرب في سبيل تحقيق هذا الهدف، عدة طرائق وأساليب، نذكر فيما يأتي أهمها:

. **التجفيف**: وهو من أقدم الأساليب التي استخدمت لحفظ البذور، والفواكه والأسماك، والخضر، واللحوم. ويتم التجفيف بعرض هذه الأطعمة لحرارة الشمس. وقد مهر الهنود الحمر في استعمال هذا الأسلوب. واستعملت النيران أيضاً في عمليات التجفيف، ولعل هذه الطريقة هي التي أدت إلى اكتشاف طريقة التدخين التي سنتحدث عنها فيما يأتي.

والجدير بالذكر، أن التجفيف يحفظ الأطعمة مدة طويلة نسبيًا؛ لأن حرارة الشمس أو النار تطرد «تبخر» الماء المتواجد بالأطعمة. والماء عنصر ضروري لنمو الميكروبات المسؤولة عن إفساد الأطعمة.

. **التدخين**: وهو أسلوب يستخدم لحفظ اللحوم والأسماك. وتتم عملية التدخين بتعريض هذه المواد للدخان المنبعث من أخشاب محترقة في هواء ضعيف.

بهذه الطريقة تحفظ الأطعمة بتعاضد عاملين اثنين هما: التجفيف بالحرارة (وهو ضعيف هنا)، وخصوصاً بتأثير المواد الكيماوية المطهرة القاتلة للبكتيريا الموجودة في الدخان(١). ولأن التجفيف بهذه الطريقة يكون جزئيًا، فإن المواد المدخنة تحتفظ بليونتها، بالإضافة إلى ذلك تكتسب مذاقًا خاصاً مرغوباً فيه.

**التمليح**: استخدم الملح في حفظ الأسماك، واللحوم، والخضر، والزيتون، والبذور. وهذا الأسلوب اعتمده أغلب شعوب الأرض، باستثناء شعوب النصف الغربي منها (مثل الهنود الحمر)، وبعض الجهات من الهند، التي لم تستعمل الملح إلا بعد اتصالها بالأوربيين.

ويعدّ الحفظ بالملح فعالاً جداً؛ لأنه يتسرب داخل خلية البكتيريا ثم يقتلها (يولّد زيادة في الضغط التناضحي La Pression Osmotique). غير أنه من عيوب المواد الملحة أنه لا يمكن استهلاكها في الغالب إلا بعد إزالة الملح عنها، بغسلها بالماء مما يفقدها بعض طعمها أو لونها أو جزءاً من قيمتها الغذائية.

. **التوابل**: استعملت التوابل (البهارات) مثل الكزبرة، والثوم، والفلفل الأسود والأحمر، والكمون وغيرها في حفظ الأطعمة. وكان الإقبال عليها عظيماً منذ القدم. وكانت القوافل تحملها عبر الصين والهند إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط أو الخليج العربي، ومنها إلى أسواق أثينا، وروما، والقسطنطينية، والإسكندرية. وكان التنافس بين الدول الأوربية على احتكار تجارة التوابل، في العصور الوسطى، من أهم الدوافع التي شجعت الاكتشافات الجغرافية الكبرى.

. **التشحيم**: وتتم هذه العملية بطبخ اللحوم مع كميات كبيرة من الشحوم. والشحوم تحفظ الأطعمة لأنها تشكل طبقة عازلة، تمنع الميكروبات الموجودة في الهواء من الوصول إلى اللحم. وقد استخدم المغاربة هذه الطريقة في حفظ لحوم الأضاحي، وكان الحجاج، والبحارة، والتجار قديماً يتزودون باللحوم المحفوظة بهذه الطريقة، وتسمى هذه اللحوم في المغرب بـ «الخليع» وهو لذيذ الطعم. والجدير بالذكر هنا أن الرحالة النرويجي «طور هيردال» Thor Heyer-dahl، عندما حاول إثبات وصول الفراعنة إلى أمريكا، استعمل في رحلتيه (رع١ ـ ١٩٦٩) و (رع٢ ـ ١٩٧٠)، وسائل ومعدات قديمة، كان من ضمنها عدد من الجرار الملوءة بالخليع الذي أعدته بعض نساء مدينة آسفي لهذا الغرض(٢).

. **السكر**: حافظ جيد خاصة إذا زادت نسبته على ٦٥٪ في المنتوج النهائي. فهو مثل الملح يعوق نمو البكتيريا، وذلك لتعطشه الكبير للماء، ولأن البكتيريا في حاجة إلى الماء لتنمو، فإنها تموت في محيط مشبع بالسكر.

وقد استخدمت هذه الطريقة بالخصوص في صناعة المربى، وعجائن الفواكه وما شابه ذلك.

**الخل والحامض**: عرف الخل على أنه متبل ومطهر وحافظ للأطعمة أيضاً. فلحموضته العالية(٣) هو جيد في حفظ الخضر واللحوم، من ذلك مثلاً ما يعرف بـ «الخولع» وهو لحم يغلى بالخل ويحمل في الأسفار. والشيء نفسه يقال عن الحامض، غير أن الحامض يستعمل بالأساس لحفظ الخضر. وهو يحتاج إلى الخل أو الملح كعنصر مساعد.

. **الكحول**: من المعروف عن الكحول أنه مطهر ممتاز، ولكنه استعمل بالإضافة إلى ذلك في حفظ المواد الغذائية، ولاسيما الفواكه مثل العنب، والكرز، والخوخ.

. **التبريد**: أسلوب معروف منذ القدم في المناطق الباردة والجبال. وفي بداية القرن التاسع عشر ١٨٠٣م، استطاع أحد المزارعين الأمريكيين، من ولاية ماريلاند، أن يفتح مستودعاً للثلج. ففي الخريف كان يقطع الثلج الطافي فوق البحيرات، ثم يجمعه في مستودعه في انتظار بيعه للمستهلكين(٤).

والثلج يساعد على حفظ الأطعمة؛ لأن البرودة بصفة عامة تخفض سرعة نمو الميكروبات، ولكنها لا تقضي عليها ـ إلا إذا وصلت إلى درجات منخفضة جداً ـ لذلك فهي تحفظ المواد مدداً طويلة نسبياً.

. **الغلي**: معروف أيضاً منذ القدم، ولكن عيبه أن فعاليته قصيرة جداً قياساً إلى باقي الطرائق. ثم إنه لا يحفظ للمواد الغذائية قيمتها.

هذه هي أهم الوسائل التي استعملت في حفظ الأطعمة، حتى مطلع القرن التاسع عشر. وهي ـ كما لاحظنا ـ بسيطة، ويعود













رسم كاريكاتوري يوضح كيف حول نيكولاي آبر الحلم الصعب إلى حقيقة

بعضها، إن لم نقل كلها، إلى العصر الحجري(٥)، كما أنها استعملت في نطاق محدود جداً، حتى لقد اقتصر استعمالها على الأغنياء فقط(٦). فالملح كان غالي الثمن(٧)، وكذلك السكر، والخل، والكحول، والأخشاب.. فضلاً عن التوابل، فقد كانت باهظة الثمن، مما جعل الإغريق والرومان يفرضونها كإتاوة على الدول المغلوبة. بل إن روما نفسها دفعتها إتاوة؛ لأن «ألاريك الأول» Alaric ملك القوط (٣٩٥ - ٤١٠م)، طلب أن يكون الفلفل جزءاً من الفدية التي فرضها على روما في عام ٤٠٨م لقاء فك الحصار عنها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فقد كانت هذه الطرائق عاجزة عن الوفاء بمتطلبات الأعداد الكبيرة من السكان المستقرين، فضلاً عن الأعداد الغفيرة التي كانت تشارك في الحروب. فلا عجب أن يحدثنا التاريخ عن الحكومات التي خسرت حروباً مصيرية، لا لشيء إلا لأنها عجزت عن توفير الطعام لجنودها في الوقت والمكان المناسبين(٨). فأجدادنا العرب المسلمون، على سبيل المثال، أوشكوا على فتح القسطنطينية في خلافة سليمان بن عبدالملك (٦٩ - ٩٩ هـ/٧١٥ - ٧١٧م). فقد حاصروها براً وبحراً، وكادت تسقط غنيمة باردة في أيديهم، لولا طول خط الإمدادات، مما جعل الجيش يعاني الجوع الذي حاصرهم من كل جانب، وأنزل بهم الهزيمة.

يروي الطبري، في أحداث سنة ثمان وتسعين: «.. وقدم مسلمة بن عبدالملك، (قائد الجيش البري) فهابه الروم، فشخص إليون(٩) من أرمينية (...) وقالت البطارقة لإليون: إن صرفت عنا مسلمة ملكناك. فوثقوا له. فأتى مسلمة فقال: قد علم القوم أنك لا تصدقهم القتال، وأنك تطاولهم مادام الطعام عندك، ولو أحرقت الطعام أعطوا بأيديهم، فأحرقه، فقوي العدو، وضاق المسلمون حتى كادوا يهلكون وأكلوا الدواب، والجلود، وأصول الشجر، والورق، وكل شيء غير التراب»(١٠). ورفع الحصار عن القسطنطينية، وعادت الجيوش إلى دمشق(١١).

ومثال آخر نسوقه للتدليل على ما نقول، هذه المرة من التاريخ الحديث. لقد دخلت فرنسا (عام ١٧٧٨م) الحرب إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية المطالبة بالاستقلال عن إنجلترا. ففرضت عليها هذه الأخيرة حصاراً بحرياً شاملاً كاد يخنقها، ولكنها عادت فسحبت أسطولها فجأة (١٧٨٠م)، لانتشار داء الأسقربوط بين بحارتها(١٢). ولو استمر هذا الحصار لانسحبت فرنسا من الحرب، وربما أخفقت الثورة الأمريكية؛ لأن الدور الفرنسي كان حاسماً في نجاح الثورة باعتراف الأمريكيين أنفسهم.

## الجنود يمشون على بطونهم

كان نابليون بونابرت، قائداً عسكرياً محنكاً. ولعله أدرك أكثر من غيره أهمية توفير الغذاء بالنسبة إلى الجيوش. وكان يردد كثيراً أن «الجنود يمشون على بطونهم لا على أقدامهم». ولعل الوعي بهذه الحقيقة البدهية هي التي جعلت جنوده يثقون به، فتحولوا من جنود جائعين بلا نظام إلى جيش منظم لا يقاوم ولا يقهر(١٣).

وهكذا، وخوفاً على جيشه من الجوع، في أثناء الحملات العسكرية التي كان يعد العدة للقيام بها في شتى أنحاء أوربا، أقنع

حكومــة «الـدريكتــوار» Le directoire (١٧٩٥ ـ ١٧٩٩م) أن تخصص جائزة مالية قـدرها ١٢٠٠٠ فرنك، لمن يبتكر أفضل طريقة عملية لحفظ الأغذية زمنًا طويلاً، مع سهولة نقلها من مكان إلى آخر.

وفي ٣٠ يناير/كـانون الـثانـي عام ١٨١٠م أعـلن طبـاخ باريسي يدعى «نيكولا ـ فـرانسـوا آبر» Nicolas Francois Appert، عن اكتشاف الطريقة المطلوبة، وطالب بالجائزة.

## آبر المحسن إلى الإنسانية

ولد نيكولا آبر عام ١٧٥٠م في «شالون ـ سور ـ مان» Chalons - Sur - Marne -، لأسـرة متوسطة الحـال، كـان عـائلهـا يدير نزلا ويملك دكانًا لصنع الحلويات وبيعها.

وقفـز آبر الصغـير بسـرعة، من المدرسة الابتدائـية إلى مـدرسة الحياة والممارسة العملية. إذ راح ينتقل، وهو في الحادية عـشرة من العمر، من حـرفة إلى أخرى. ولكنـه اهتم أكثر بتـعلم تقنيـات حفظ الأطعمة المنتشـرة في الشمال الفرنسي: Le Confisage (الحـفظ بالحـامض، والشـحم، والسكر، والملح)، كما عمل في أقبية صناعة الجـعـة (خـاصـة الشـمــبـانيـا)، ونادلاً في الحـانات، واستفـاد كـثيـراً من الفتـرة التي اشتغل فيها طباخًا في قصر أحد الأمراء.

وفي عـام ١٧٧٥م، توفي والده، فاسـتقـر في باريس، وفـتح مـصنعـاً صـغـيـراً لصنع الحلوى في شـارع اللومـبارد، وأخـذ يجـري تجاربه على حفظ الأطعمة بالحرارة.

وبعد عدة محـاولات خائبة، نجح في عام ١٧٨٢م، أن يحـفظ بعض حـبـوب البـازلاء (البسلة) ١٨ شـهـراً، ولما أكلها وجـدها قـد احتفظت ببعض طعمـها المميز. لقد كان هذا الإنجاز فـاتحة عهد جـديد. ولكن آبر لم يتوقف عند هذا الحـد، إذ كان يسعى إلى إيجاد الطريقة التي تحـفظ كل الأطعمـة، خاصـة اللحوم، عدة سنوات.

وقد شجعه على مواصلة أبحاثه مـا كانت تلقاه منتجاته المحفوظة، من استـحسـان الزبائن، ولا سيمـا البـحارة منهم، الذين وجـدوا فيـها علاجًا بل وقاية من الأسقربوط المميت.

وفي عـام ١٧٩٤م، ونتيـجة لازدياد الطلـب على سلعه، فـتح آبر مصنعـاً، في «إفري» Ivry، إحدى ضـواحي باريس، واتسع مـجال نشاطه التجاري، وأصبح له وكـلاء في عدد من المدن، وخصوصاً في المدن التي على الساحل الأطلسي، مثل بوردو وشربورغ.

ولكن الصـفـقات التجـارية لم تله آبر عن متـابعة أبحاثه. لقـد كان يعـرف أنه لم يصل إلى مـبتـغـاه. وكـأن الإعلان عن المسـابقـة التي نظمها الدريكتـوار، جاء ليذكره بما كان قد وعـد به الإنسانية، في أن يوفر لها كل الأطعمة في كل الأوقات.

والحقيـقة أن النتائج التي كـان قد توصل إليها، عندمـا تم الإعلان عن المسابقة عـام ١٧٩٥م، كانت كافية لمنحـه إياها، غير أنه مع ذلك تابع بحوثه ١٤سنة أخرى، قبل أن يقتنع أنه أعطى أفضل ما عنده.

وحـصل علـى الجـائزة، وطلبت منـه الحكومـة أن ينشـر نتـائج أبحـاثه، فكتب كـتابه «كـتـاب كل الأسـر، أو فن حفظ جـمـيع المواد الحيـوانية والنباتيـة لعدة سنوات» Le Livre de tous menages, ou l'art de (1810) conserver pendant plusieurs annees toutes les substances animales et vegetales.



من بدايات عملية التعليب

وقـد شرح فـيه طريقـته في حـفظ الأطعمـة: توضع المواد الـتي يرغب في حـفظهـا داخل قنينة زجـاجيـة (أو أي وعـاء آخـر) ثم تسد بإحكام بالفلين مـثلاً «وقـد يحتـاج في تثبـيت السدادة إلى الاستعانة بأسلاك معدنية»، بعد ذلك يسال الشمع على السدادة، بحيث لا ينفذ إلى القـنينة لا هواء، ولا مـاء، ثم تـوضع في ماء غال مدة من الزمن. وأخيراً، إبقاء القنينة مغلقة إلى أن يحين وقت استعمالها.

ولقد أثبت الكتاب فـعلاً أنه لكل الأسر، إذ نفد من السـوق في ستة أشـهر، وأعيد طبـعه عدة مـرات، كمـا ترجم في السنة نفسـها إلى اللغــة الألمانيـة. ونـوه «مــعــهــد الـفنون والصنـاعـات» Le conservatoire des arts et manufactures في باريس بأعـمـاله، وعدّ طريقـتـه التي سميت L'appertisation، في حفظ الأطعمة، قد قدمت خدمة كبيرة وجليلة للإنسانية.

وهكذا بين عشـية وضحاها أصـبح آبر بطلاً قوميًا، فـمنحه الرأي العـام، لقـبًـا ليس هنـاك مـا هو أعظـم منه، ألا وهو «المحـسـن إلى الإنسانية» Le bienfaiteur de l'humanite.

بقي أن نشير إلى أن آبر استعمل نقود الجائزة في بناء مصنع آخر في «ماسي» Massy عام ١٨١٢م، واشتغل بشكل مكثف حتى يلبي طلبـات جـيـوش نابليـون (البـرية والبـحـرية). فـأصـبـحت حكومـة

الإمبراطورية مدينة له بمبالغ طائلة، لم يحصل منها على شيء؛ لأن نابليون انهزم في النهاية.

ومع أن هذه الضربة كانت قوية، إلا أن آبر لم يستسلم لليأس، إذ في النهاية، لم يكن يهتم بالمال لشيء سوى أن يساعده على متابعة بحوثه التي لم تتوقف أبداً، بل استمرت حتى أنفق عليها كل مدخراته. ثم مات فقيراً منسياً في ٣ يونيو/حزيران عام ١٨٤١م عن عمر يناهز الحادي والتسعين عاماً.

لقد كان نيكولا ـ فرانسوا آبر طباخاً عصامياً، ومخترعاً، ومفكراً، ومقاولاً. ولكنه كان قبل كل شيء وبعد كل شيء إنساناً محباً للإنسانية، ولم يكن أبداً تاجراً يجري وراء كسب المال كما فعل الكثيرون ممن استغلوا اختراعه، وجنوا منه الأرباح الضخمة. لقد كان يريد أن يحمي إخوته البشر من الجوع، بأن يحفظوا ما فضل عن السنوات «السمان» لاستعماله في السنوات «العجاف».

### انتقال الصناعة إلى إنجلترا

مات آبر، ولكن طريقته لم تمت، بل ازدهرت. ولكن هذه المرة في إنجلترا: فقد نقل الإنجليز الفكرة فحسنوها وطوروها. وقد ساعدهم على ذلك الثورة الصناعية التي كانت تعرفها بلادهم. خاصة في ميدان الصناعة الحديدية.

وهكذا، وما كاد آبر يعلن نتائج بحوثه على الملأ حتى قفز عليها المخترعون البريطانيون. فسجل بتر دوران Peter Durand براءة عام ١٨١٠م، لاستعمال أوعية الزجاج، والفخار، والقصدير، وأي مادة أخرى لتعليب المواد الغذائية المحفوظة بالحرارة. وفي عام ١٨١٢م اشترى مخترع آخر هو بريان دونكين Bryan Donkin (١٧٦٨ ـ ١٨٥٥م)، امتياز استخدام طريقة آبر بألف جنيه. ولكنه بدلا من الزجاج استخدم علباً مصنوعة من الحديد المغشى بالقصدير (التنك).

ولقي البريطانيان نجاحاً كبيراً في ترويج سلعهما، وبالأخص عند الجيش، بل عند البحرية الملكية أكثر من غيرها. كما لقيت إقبالاً من بحارة الرحلات الطويلة، ولا سيما الاستكشافية. حتى إن الطبيب الذي رافق المستكشف الإنجليزي القبطان السير وليام ادورد باري Sir W. E.Parry في رحلته الأولى لاكتشاف ممر الشمال الغربي (١٨١٩ ـ ١٨٢٠م)، حيث حاصرت سفينتهم الثلوج واضطروا إلى قضاء فصل الخريف قرب القطب الشمالي، سجل في مذكراته: «.. كانت الأطعمة المحفوظة التي قدمتها شركة دونكين سبباً رئيساً في بقاء البحارة في صحة جد جيدة».

وفي رحلة ثالثة (١٨٢٤ ـ ١٨٢٥م) اصطدمت إحدى سفن (باري) بكتل من الجليد في خليج «بوثيا» Boothia (شمال كندا)، فقرر التخلي عنها وعن جزء كبير من حمولتها. فعثر عليها مواطنه المستكشف السير جون روس Sir John Ross في رحلة قام بها (١٨٢٩ ـ ١٨٣٣م) لاكتشاف الممر نفسه. ووجد بداخلها كمية مهمة من علب المواد الغذائية، فاستهلك بعضها هو وبحارته. وحمل معه في عودته علبة للذكرى، ظلت هذه العلبة في بيت أسرته بـ «أدنبرة» (اسكتلندا) مدة ١٢٥ سنة، ولما فتحت عام ١٩٥٨م وجد أنها تحتوي على لحم عجل محمر، مازالت أنسجته سليمة، بل الأروع من هذا أنه لم يعثر في اللحم على أي نوع من أنواع الميكروبات، أي أنه كان صالحاً للأكل.


شكل من أشكال التعليب القديم

### الكاوبوي المعلب

ثم انتقلت صناعة المعلبات إلى أمريكا، حيث تطورت كماً ونوعاً. ويعود الفضل في ذلك إلى أحد رجال الصناعة الإنجليز، يدعى وليام أندروود W. Underwood كان قد أسس في أمريكا عام ١٨١٩م مصنعاً لحفظ الأطعمة متبعاً الطريقة الأصلية باستخدام أوعية الزجاج. أما التقدم الحقيقي فقد بدأ مع عزرا داجت E. Dagget وتوماس كنسيت T. Kensett، اللذين أسسا معملاً للتصبير في نيويورك عام ١٨٢٢م، وطبقا فيه تقنيات جديدة في التصبير في أوعية القصدير، كانت متقدمة حتى على تلك التي استعملت في أوربا، كما أنها سمحت بمضاعفة الإنتاج عدة مرات.

وللحقيقة فإن الظروف في أمريكا هي التي شجعت على هذا التطور. لقد اجتمعت عدة عوامل ساعدت على ذلك، أهمها جميعاً هي الهجرة الداخلية، أي ما يعرف في التاريخ الأمريكي بغزو الغرب. إذ كان الرواد مضطرين في رحلتهم الطويلة التي تمتد عدة أشهر، ويقطعون خلالها آلاف الكيلومترات، إلى حمل الكثير من الأطعمة المحفوظة. وقد استمرت هذه الرحلات، ومن دون انقطاع طيلة القرن التاسع عشر. ومن جهة أخرى كثر الطلب على الأغذية

المعلبة (المصبرة) في أثناء الحرب الأهلية (١٨٦١ - ١٨٦٥م) بين ولايات الشمال وولايات الجنوب. فقد تطلبت هذه الحرب تغذية الجيشين المتحاربين، بالإضافة إلى السكان المدنيين، بعد أن أصبح الحصول على الطعام أمرا صعبا، في ظل سياسات التجويع والتخريب التي نهجها بعض القادة العسكريين، خاصة من الشمال مثل الجنرال وليم. ت. شيرمان W. T. Sherman الذي خرب ولاية جورجيا مسوغا أعماله التخريبية بضرورة تحطيم الروح المعنوية للعدو للحصول على النصر.

بعد انتهاء الحرب أصبحت الحكومة الأمريكية أكبر مستهلك، في العالم، للعلب المحفوظة، إذ كانت توزعها على جيوشها وعلى الهنود الحمر الذين جمعتهم في محميات بعد أن أخذت منهم أراضيهم، وأبادت أو سمحت بإبادة الجاموس (البيزون) الذي كان دائما عمودا فقريا في نظامهم الغذائي.

وهكذا ازداد الطلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على الأطعمة المصبرة بشكل لم يسبق له مثيل(١٤)، على الرغم من أنها كانت غالية الثمن، وثقيلة الوزن وصعبة الفتح، إذ لم تتوفر في ذلك الوقت أدوات لفتحها، فكان يتم فتح غطائها السميك باستعمال المطرقة والإزميل.

وظهرت اليوم تقنيات جد متقدمة في التعليب وفي حفظ الأطعمة (مثل التعقيم بالأشعة المؤينة Radiations ionisantes)(١٥)، إلا أنها مكلفة، ومن ثم فهي محدودة الاستعمال، بحيث مازالت طريقة التعقيم بالحرارة كما أسسها آبر هي الأكثر انتشارا، خاصة مع استعمال الألومنيوم، مما جعل علب الحفظ رخيصة، وخفيفة، وسهلة الفتح، ويمكن أن تصنع منها الآلاف في دقيقة واحدة.

## الهوامش والمراجع

١. مادتي Formaldehyde و خاصة Creosote.

٢. انطلقت رع الأولى من ميناء اسفي في ٢٥ مايو/أيار عام ١٩٦٩م، ولكنها عادت من منتصف الطريق. في حين أبحرت رع الثانية في ١٧ مايو عام ١٩٧٠م، لتصل إلى باربدوس Barbados (إحدى جزر الأنتيل - أمريكا الوسطى) في ١٢ يوليو / تموز من السنة نفسها. والجدير بالذكر أن مدينة اسفي عدت، حتى الستينيات من القرن الماضي، عاصمة تصبير السردين على مستوى العالم.

٣. فهو يتكون من الحامض الخليك Acide acetique والماء.

٤. انظر: Conservation des aliments in histoire du monde - Larousse - Paris 2000.

٥. ج. د. برنال - العلم في التاريخ - م٢ ترجمة شكري ابراهيم سعد. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ١٩٨٢م. ص٣١٣ و ٣١٤.

٦. إنه أمر يدعو إلى العجب أن يعجز الفراعنة الذين برعوا في التحنيط عن ابتكار وسائل فعالة في الحفاظ على المواد الغذائية. أو على الأقل نقل التقنيات المستعملة في التحنيط إلى صناعة حفظ الأغذية. ربما يعود سبب هذا التقصير إلى التكلفة العالية لعمليات التحنيط. أو ربما يكون السبب ما قاله المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي: «كان للمصريين توق إلى ضمانة الحياة الأبدية لأنفسهم بعد الموت. وقد تابعوا هذه الغاية التي تلي الوفاة بجد يفوق جهدهم في ملاحقة أي غاية قد تتحقق في مدى الحياة البشرية (..) فقد أنفقوا من المال والجهد على القبر أكثر مما أنفقوا على البيت. وعلى تحنيط الجثة أكثر منه على تزيين الجسم الحي». في كتابه: تاريخ البشرية - الجزء الأول. نقله إلى العربية الدكتور نقولا زيادة - الأهلية للنشر والتوزيع. بيروت ١٩٨١م. ص٨٠.

٧. ومازالت حتى يوم الناس هذا غالية في بعض مناطق إفريقية الوسطى. ومما يدل على قيمتها في العصور الغابرة ان الرومان دفعوا مرتبات او أجزاء من مرتبات الجند ملحا. وما زلنا نجد أثر ذلك في اللغات الأوربية فـ Salaire الفرنسية و Salary الإنجليزية تجد أصولها في كلمة Salarium اللاتينية، التي تعني الملح.

٨. لقد استطاع الفرس أن يفشلوا عدة حملات عسكرية استهدفت بلادهم، لأنهم كانوا يحرقون الغلات، إذا توغل العدو في أراضيهم، فيحولون بذلك دون تموينه. انظر: أرثر كريستنسن - إيران في عهد الساسانيين - ترجمة يحيى الخشاب - دار النهضة العربية، بيروت، دون تاريخ. ص٢٠٣. والشيء نفسه فعلته الكاهنة البربرية لتحول دون تقدم الجيوش العربية الإسلامية في بلاد المغرب (على عهد الامويين)، فقطعت الأشجار، وخربت الزروع على طول الطريق. انظر د. حسين مؤنس - تاريخ المغرب وحضارته - م١ ج١ - العصر الحديث للطباعة والنشر - بيروت ١٩٩٢م. ص١٠١.

٩. قائد ثغر بيزنطي، سيصبح فيما بعد إمبراطورا تحت اسم ليون الثالث Leon III (٧١٧ - ٧٤١م)، انظر الدكتور السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية - دار النهضة العربية، بيروت، دون تاريخ. ص١٨٦ وما يليها.

١٠. الطبري تاريخ الطبري - ط الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩١م، المجلد ٤، ص٤٨ و ٤٩.

١١. يعد هذا الهجوم آخر هجوم قام به العرب المسلمون على القسطنطينية، ولذا جعل له المؤرخون الأوربيون أهمية تاريخية كبيرة. وكان ينبغي انتظار عدة قرون، حتى يتم فتح القسطنطينية في ٢٩ مايو/أيار ١٤٥٣م، على يد السلطان العثماني محمد الفاتح.

١٢. الاسقربوط: مرض من أمراض سوء التغذية ينشأ عن نقص فيتامين (ج = C). ويكثر هذا الفيتامين في عصير الفواكه ولاسيما الموالح كالليمون والبرتقال، وفي بعض الخضراوات كالطماطم والكرنب والسبانخ، وبمقدار قليل في اللحم واللبن.

وكان الأسقربوط آفة مهلكة للبحارة في رحلاتهم الطويلة، إذ كان طعامهم يتكون من اللحوم المملحة والخبز المجفف. ففي رحلة فاسكو دي جاما حول رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨م مات بهذا المرض مئة بحار من رجاله البالغ عددهم ١٦٠. ولوقاية البحارة من المرض أضاف أطباء الأسطول البريطاني في عام ١٧٩٥م عصير الليمون ضمن قائمة الطعام. انظر الموسوعة العربية الميسرة - إشراف محمد شفيق غربال - دار الشعب القاهرة ١٩٦٥م.

١٣. راجع مادة نابليون في الموسوعة العربية الميسرة.

١٤. ومن هنا نشأت رومانسية راعي البقر التي تحدثنا عنها في عدد سابق من مجلتنا الغراء الفيصل.

١٥. استعملت هذه الطرائق في البداية لتعقيم المواد الطبية والجراحية، ولكن سرعان ما استعملت في صناعة المعلبات؛ لأنها تحفظ للمواد الغذائية جل إن لم نقل كل مكوناتها وخصائصها، إلا أنها جد مكلفة، ومن ثمة فهي مازالت محدودة الاستعمال.


- Encyclopedia Britannica
- Encyclopedia Universalis.

- موسوعة Quid الفرنسية (١٩٨٦م)، Histoire du monde - Larousse, Paris, 2000.




## أسماء الفائزين في مسابقة العدد (٣٠٨)

**صفر ١٤٢٣هـ - أبريل - مايو ٢٠٠٢م**

الفائز الأول: **ميساء عصام محمد إسماعيل - عمّان - الأردن.**
الفائز الثاني: **فؤاد البكري - تمارة - المغرب.**
الفائز الثالث: **بسيونية أحمد حسن محمد - دمنهور - مصر.**
الفائز الرابع: **نعمة ناصر عبدالله إسماعيل - صنعاء - اليمن.**
الفائز الخامس: **حفصة يوسف حمودي - الياسمينات - تونس.**
الفائز السادس: **محمد عيد سليمان المحمد - بيروت - لبنان.**
الفائز السابع: **سهير محمد رزق المشد - ميت غمر - مصر.**
الفائز الثامن: **طارق علي ثابت مقبل - صنعاء - اليمن.**

## حل مسابقة العدد (٣٠٨)

**١- تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله**
قائل البيت هو: **زهير بن أبي سُلمى.**
**٢- توماس بين: من زعماء الثورة الأمريكية، مؤلف كتاب «حقوق الإنسان».**
**٣- تَبسة: مدينة في شمال شرق الجزائر.**
**٤- البيكادور: فارس يفتتح مصارعة الثيران.**
**٥- الفيلولوجي: العالم بفقه اللغة.**

---

## أسئلة مسابقة العدد (٣١١)

**ضع علامة ☑ أمام الإجابة الصحيحة:**

**(١) من قائل هذا البيت:** *رأى شبحاً وسط الظلام فراعهُ فلما بدا ضيفًا تشمَّرَ واهتمَا* ☐ الحطيئة ☐ حاتم الطائي.

**(٢) التروبوسفير:** ☐ حمض أميني ينشأ من تحلل البروتين مائيًا ☐ الطبقة السفلى من الغلاف الجوي.

**(٣) بديع الزمان الهمذاني:** ☐ كاتب عربي مؤسس فن المقامة في الأدب العربي ☐ راوية ولغوي عربي اشتهر بكتابه «الأصمعيات».

**(٤) حجر الفلاسفة:** ☐ حجر خيالي اعتقد أصحاب الكيمياء القدامى أنه قادر على تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب أو فضة
☐ حجر يُقسمُ عنده الفلاسفة في أثينا القديمة.

**(٥) تريم:** ☐ مدينة قديمة من أشهر مدن حضرموت في اليمن
☐ قرية أسسها الثموديون في وادي الدواسر في المملكة العربية السعودية.

**الاسم:** ________ **المدينة:** ________ **ص.ب:** ________ **هاتف:** ________

**العنوان:** ________ **الدولة:** ________ **الرمز البريدي:** ________ **ناسوخ:** ________

■ **نأمل من الإخوة الذين يشاركون في المسابقة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني حسب أوراقهم الثبوتية ليسهل على الفائزين صرف مكافآتهم.**




## شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها خلال ٤٥ يوماً من بداية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد ......).

## طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وهكذا إلى الفائز الثامن.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

## مضاعفة جوائز المسابقة

استجابة لرغبات عدد كبير من الإخوة القراء المتابعين للمسابقة والتي عبروا عنها من خلال الرسائل الكثيرة التي ظلت ترد إلى المجلة، ولإتاحة فرص الفوز بالجوائز لعدد أكبر منهم، فقد تمت مضاعفة عدد هذه الجوائز ابتداءً من العدد ٢٩٦ لتصبح على النحو الآتي:

| | |
|---|---|
| الجائزة الأولى: | ١٠٠٠ ريال. |
| الجائزة الثانية: | ٧٠٠ ريال. |
| الجائزة الثالثة: | ٥٠٠ ريال. |
| الجائزة الرابعة: | ٤٠٠ ريال. |
| الجائزة الخامسة: | ٢٥٠ ريالاً. |
| الجائزة السادسة: | ١٥٠ ريالاً. |
| الجائزة السابعة: | (اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل). |
| الجائزة الثامنة: | مجموعة من أعداد الفيصل وبعض إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. |

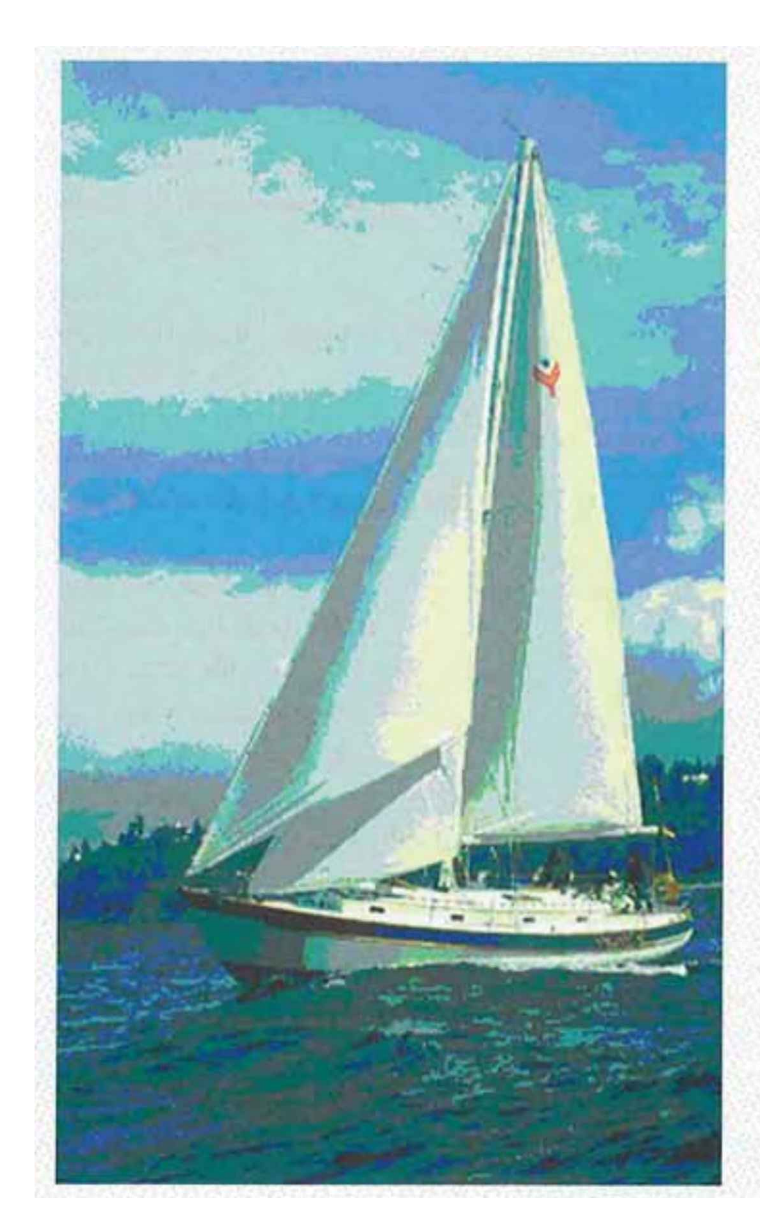
ولا يخفى على القارئ المتابع أن الجوائز المستحدثة هي الرابعة والخامسة والسادسة والثامنة.
والفيصل، مع شكرها لكل الإخوة الذين يشاركونها الرأي في تطوير أبوابها، تأمل أن تكون عند حسن ظنهم دوماً، مع تمنياتنا حظاً وافراً لجميع القراء الأعزاء.

عنوان المجلة:

ص.ب( ٣ ) - الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية. هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

# صراع السفينة

**زينة آل علي المالكي**
الطائف ـ السعودية



كأني...
وقد عادَ رجعُ السؤال بألف علامهْ...
وهذا الفضاء استَحالَ همومًا تنوحْ
دوارٌ تَخطَّفني فغدوتُ كظلِّ سحابهْ
فلَمْلَمتُ ذاتي ومهّدت للعمر كي يستريحْ
أخافُ صراع السفينهْ..
إذا استوطن الموجُ قلبي الجريحْ
وصارت نجاتي عصيّهْ..
وألفيتُ نفسيْ بدون ملامحْ
أخافُ الظلام يقيمُ مأتمهُ
في جبين الصباحْ...
فكيفَ إذا طال عمرُ النهايهْ
ولمّا يحن بعد وقتُ الروّاحْ
تأملتُ روحي...
وما صنعَتْهُ ظنوني...
فحرَّرتُ صوتي من الإستغاثهْ
وأسلمتُه لشجون الرياحْ...

# أجزاء من قصيدة الأفراد

**فيصل أكرم**

**الرياض - السعودية**

-١-

أمّي تحبُّ الماء في عيني غزيراً
وأبي يحبُّ أصابعي منزوعة الأظفار
قال مسكونٌ بذات الهمّ: تعرفني..؟
فقلتُ: أقول إنّ الأرض تجمعنا
ويدفعنا الطريقُ إلى سلالات القطار
ندور في الحلقات، معتبرين أنّ جراحنا
انفتحتْ.. إذا انغلقت مدينةٌ واحدٍ منا
وذابت في الحصار..
يقول: لا
فأقول: قلتَ الرّمل يا أمّي يضمك، والحنان
أبي / وجثّته الرمال،
الماء في كفي، ويدفعني الزمان إلى السؤال:
ألمْ أكن أولى بهذا الرمل يحملني،
وأحمله فضاءً.. مثل جفنٍ لا يهبُّ مع الغبار؟

***

الجيش قام.. الجيش عاد
وأنت وحدك ، والمطاعم، والبلادُ
ماذا إذا ما عاد طفل
تحت ركبته الرصاصة والرّمادُ..؟
ويقوم فيك الطفلُ عصفوراً يغنّي
حول مائدةٍ يغنّي
ثم يفتح نصفَ كفك كي يشير إلى السوادْ...؟
الجيش قام
والجيش عاد..
وأنت مقصور على دور الضحيّة،
واستلام دفاتر الشهداء، تقبلها.. ويقبلك العنادْ.

***

عصماءُ هذي الأرضُ، والرّوحُ اعتصامْ
كلُّ ما في الأرض من تعبٍ.. كلامْ
وحدها الأسماءَ، نكتبها ونمشي خلفها
ونعود ننسى أنها اللغةُ الحلالْ،
فهل يفسّرها لنا الفعلُ الحرامْ..؟
عصماءُ هذي الأرض، في أقوالها
عصماءُ هذي الأرض، في أحوالها
عصماءُ، نكتبها على الأصداف.. واللغةُ احترامْ.

***

ما جئت من خلف الهوى
أو جئتَ من قفص الطيور..
ما كنتُ مطموراً هنا
أو كنتَ في قمم النسور..
وحدي، كما الأفراد، أحيا
كي أجرّب كلّ شيء..
كي أغطّي كلّ شيء، بالتغاضي، والتفادي، والنداء
ولا يجرّبني غطاء.. غير أبواب القبور.

-٢-

ماذا تجرّب إن أتيتَ،
ولم تجد أحداً سواك..؟
ماذا تجرّب إن رأيتَ،
ولم يرك أحدٌ هناك..؟
ماذا، وهذا أنت فيه
ومنك قد خرجتْ يداك..؟
من أين تفتح جرحك الممتدّ
في جسد التراب،
وأنت وحدك.. والغياب؟
العذاب.. هو العذاب
والكتابة، رغم أنك خارجٌ منها
ستبقى في الكتاب..
هل سوف يفهمك التراب..؟

***

هُزمتْ على يدك الأماني
لا تقل: هذا زماني..
لا تقل: قد كان يحملني طويلاً،
من ضلوعي،

ثم في ظهري رماني..
هزمتَ على يدك الأماني
من قبل أن تأتي بمفردة الحياة
وأنت تعرف: سوف تقتلك المعاني
قل إذا: ما تلك أوثتي، ولا هذا مكاني..

***

لقصيدة الأفراد عورتُها
ودرعُ الماء شفافٌ
وسيف الموج جرّاف
وهذا الملح أبيض، مثل ثوب العيد
مثل نصاعة الروح العفيّة في الوريد
قصيدة الأفراد يكتبها التفرُّدُ والحذرُ
صيفًا تجيءُ.. إذا المطرْ
قد فزّ منك، وعاد فيك قصيدةً تشفيك
من تبديل لونك بالهواء.. قصيدة تكفيك.

***

أسماءُ أهلكَ مثل إسمكَ،
والفراتُ هو الفرات..
النيلُ مألوفٌ لديكَ،
وأنت مجهولُ الصفات..
ستمرّ يومًا،
فوق خطّ خارج من رمش عينك،
ثم تشعر أنك الحيران في كل الجهات..
أسماءُ أهلكَ مثلُ إسمكَ، في الحروف وفي الظروف
فهل ستنفعك العظاتُ..؟
ستقول: ما قد عاش فينا،
قد أمات الصمتَ فينا.. ثم ماتْ.

- ٣ -

بالماء، لا أكثرْ
طالتْ خيوطُ الرّيح.. كي تمتدّ روحي
بالماء لا أكثرْ
سقطتْ قبابُ القلبِ وانبسطتْ جروحي
بالماء، لا أكثرْ
في كل عام: كلّها الدنيا بخير، طالما
في كل ماء دمعةٌ وطريقةٌ وطريقُ
فمتى يكون لكل أغنيةٍ حريقُ..؟
بالماء، لا أكثرْ

سيعود فينا الجدولُ الملتفُّ حول كؤوسنا
ويعود يطمعُ، كلّما اقتنع البريقُ..

***

نمشي إلى الأوقات، في كل احتمال
لا نسير لغير ما سارت إليه..
وكل فرد في معيّته الدقائقُ
كلُّ فرد تحت جبّته الحقائقُ
قد نرى..
في كلّ شوط منظرا
وقد نرى..
كلّ الكبائر ساكنات في دقائقنا اللواتي
قد فجعناها، ونطلبُ أكبرا..
أفبعد أن حلّتْ على دمنا الرّمايةُ بالرّصاصة
لا نرى..؟
تمشي بنا الأوقاتُ، في كل احتمالِ
لا تسير لغير ما سرنا إليه،
فلا تؤخّرْنا قليلاً.. أو تقدّمْنا عليه.

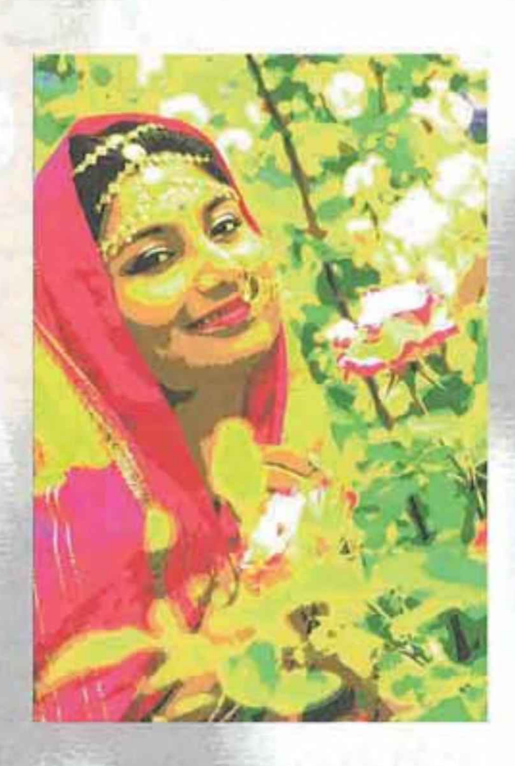
***

يخضرُّ في اللفتات وجهُ التربةِ الأولى
وينقبض الضبابُ..
يخضرُّ فيكَ الدربُ والأبوابُ..
لكنّما المسحوب من جفنيكَ يفترُّ ابتهاجًا
بالندى، في لحظتين
وتُقفل الأسبابُ
يفترُّ فيك هلالُكَ الفضيُّ مبهورًا
بأبّهةِ البراح، وبالمدى، والنجمتين
فتَخلع الأثوابُ:
هل في يديك مثوبةٌ؟
هل في يديك عقابٌ؟
غرّدْ إذًا.
غرّدْ إذا يتعلم التغريد منك غرابُ
غرّد إذًا..
غرّدْ فلن تنفكَ فيكَ رقابُ
فاليوم يومكَ، إن وقفتَ، هناك: أنتَ سحابُ
واليوم يومكَ، إن جلستَ، هنا: فأنت سرابُ
غرّدْ إذًا..
غرّدْ إذًا..

# تَضَارِيسُ الهوى

**محمد أحمد الشَّامي**
صنعاء - اليمن

لستَ أدري حُبَّها كيفَ انغَرَسْ؟
في فؤادي جارِيًا مَجْرَى النَّفَسْ
أوْمَضَ الحُبُّ فأَزْجَى سُحُبي
باعِثًا للشَّوقِ مِنْ قَلْبِ الحَدَسْ
بالعُيَيْنَيْهَا التي تَأسِرُني
بسَنَا السِّحْرِ الَّذي عُمْري افْتَرَسْ
عَصَفَتْ أمْواجُها لَحْنَ الهَوَى
ثائرَ الأَنْواءِ يَحْمِيهِ الحَرَسْ
تَخْدَعُ الشيطانَ لوْ سَاحَ بها
مَا تمنَّى أنَّهُ فيها غَطَسْ
نَفَثَتْ أسْحَارَهَا حتَّى مَضَى
يلْهثُ الوجْدانُ مِنْ بين الهَوَسْ
أحْرقتْ كلَّ قَنَاديلِ القُوَى
وأتَتْ ترْجُوْ مِن الليلِ القَبَسْ
ليتها تدْري بِبَلْوَى حُبِّها
ليتَ ذاتَ البينِ لوْ كانَ انْعَكَسْ
أيَّ حُبٍّ أقْتَنيْهِ داخلِيْ
ينْزِعُ السلوى، ويهْديني الغَلَسْ!
مُهْجتي تنْتَظِرُ القُرْبَ كذا
أصْبحَ القلْبُ إلى النَّجْوى أمَسْ
دمْدَمَ الشَّوقُ ثناياها وكَمْ
تَلِفَتْ، مِنْ بعْدِ مَا الحُبَّ الْتَبَسْ
كلَّما رفَّ جناحاهُ هَمَى
مَرْتَعُ النَّبْعِ، وفي قلبي هَمَسْ:



سيِّدي، حبُّكَ كَمْ مِنْ زهْرَةٍ
بين نيرانِ الصَّحارى قدْ غَرَسْ
جَثَمَ الحُبُّ على الحُزْنِ - وما
زالَ - حتَّى الحُزْن في حُبِّي انْغَمَسْ
صرتُ ألْوي حيرتي في زفْرتي
كيفَ رنَّ الحُبُّ في قلبي الجَرَسْ؟!
ما ظننْتُ السَّهْمَ يهْوي فجْأةً
مثلما تَعْدُوْ على الريحِ الفَرَسْ
يا تضاريسَ الهَوَى هيَّا اخبِري
مُهْجتي، كيفَ لها الحُبُّ اخْتَلَسْ؟

# داء وشفاء

## المرّار بن المُنْقِذ العَدَويّ*

عجبٌ خولةُ إذْ تُنكِرُني
أم ترى خولةُ شيخًا قد كَبِرْ!

ما أنا اليومَ على شيءٍ مضى،
يا ابنةَ العمِّ، تولّى بِحَسِرْ(١)

قد لَبِستُ الدهرَ من أفنانِهِ
كلَّ لونٍ حَسَنٍ منه حَبِرْ(٢)

وتَعَلَّلْتُ، وبالي ناعمٌ،
بغزالٍ أحورِ العينينِ غِرْ(٣)

راقَهُ منها بياضٌ ناصعٌ
يُونِقُ العينَ وضافٍ مُسْبَكِر(٤)

وإذا تضحكُ أبدى ضِحْكُها
أُقْحُوانًا قَيَّدَتْهُ ذا أُشُر(٥)

لو تَطَعَّمْتَ به شَبَّهْتَهُ
عَسَلًا شِيبَ به ثلجٌ خَصِر(٦)

صَلْتَةُ الخدِّ، طويلٌ جِيدُها،
ناهدُ الثَّدْيِ ولمّا يَنكسِر(٧)

فهي هيفاءُ هضيمٌ كَشْحُها
فَخْمَةٌ حيثُ يُشَدُّ المُؤتزَر(٨)

تَطأُ الخزَّ ولا تُكْرِمُهُ
وتُطيلُ الذَّيْلَ منه وتَجُر(٩)

عَبِقَ العَنْبَرُ والمسكُ بها،
فهي صفراءُ كعُرجونِ العُمُر(١٠)

وهيَ لو يُعْصَرُ - من أردانِها -
عَبِقُ المسكِ لكادت تنعصِر

صُورةُ الشمسِ على صورتِها
كلما تَغْرُبُ شمسٌ أو تَذُرّ(١١)

تَرَكَتْني ليسَ بالحيِّ ولا
مَيِّتٍ لاقى وفاةً فقُبِر

يسألُ الناسُ: أحُمّى داؤهُ
أم به كانَ سُلالٌ مُسْتَسِر(١٢)؟

وهي دائي، وشفائي عندَها
مَنَعَتْهُ فهو ملويٌّ عَسِر(١٣)!

### الهوامش

* الشاعر هو المرّار بن منقذ العدويّ بن عبد بن عمرو بن صُديّ بن مالك بن حنظلة من زيد مناة بن تميم.

والمرّار بن المنقذ العدويّ شاعر أموي من أهل نجد كانت بينه وبين جرير عداوةٌ ومُهاجاة، ولكنه لم يثبت لجرير، وقد ردّ عليه جرير ردًا قبيحًا.

كان المرار بن المنقذ العدوي شاعرًا قليل الغريب رائق الأسلوب ظاهر المعاني على الرغم من أنه جاهليّ المنحى في أغراضه. وهو شاعر غزلٌ من الطبقة الأولى.

للمرار بن المنقذ العدويّ قصيدةٌ مقصورةٌ على الغزل أبياتها خمسة وتسعون بيتًا منها الأبيات السابقة:

١. أنا لست حزينًا على شيء مضى من عمري.

٢. قد عرفت جميع ضروب الحياة وتمتعت بأحسنها.

٣. وتمتعت كثيرًا وبالي هادئ بفتاة سوداء العينين غريرة معجبة بنفسها غير مجربة «صغيرة السن».

٤. يونق: يعجب. ضاف مسبكر: شعر وافٍ طويل.

٥. أقحوان: أسنان. قيدته: حزته بإبرة ثم وضعت عليه إثمدًا (كحلًا) ليحلك لونه. فعلت ذلك بلثتها في الأغلب.

٦. تطعمت به: ذقته. شيب: مزج. خصر: بارد.

٧. صلتة الخد: منجردة الخد، خدها طويل أملس غير مترهل. ناهد: مرتفع. لم ينكسر ثديها بعد لأنها صغيرة السن.

٨. هيفاء: ضامرة. هضيم كشحها: خصرها نحيف. فخمة حيث يشد المؤتزر: ضخمة الأوراك.

٩. غنية مترفة تجعل الخز «الحرير» موطئًا لها وفرشًا لأرض بيتها. وإذا لبست حريرًا جعلته طويل الذيل.

١٠. عرجون العمر: قرط بلح السكر، لونه أصفر جميل، والعرب تحب اللون الممزوج بصفرة.

١١. ذرت الشمس: أشرقت.

١٢. السلال: السل. مستسر: مختفٍ.

١٣. ملوي: ممطول، أي أسألها دواء لدائي فتعدني ولكن لا تفي.

[الأدب العربي لعمر فروخ، ٥٩٦/١، ط٤، دار العلم للملايين - بيروت، ١٩٨١م].

# المنزل

**آندريه مورو**
**ترجمة: محمد رجب**
**المحلة الكبرى - مصر**

قالت:

- منذ سنوات خمس - وقد ألمّ بي مرض عضال - لاحظت أنه يعاودني حلم بعينه كل ليلة. رأيت نفسي أسيرُ في الريف وعن بعد لمحت منزلاً أبيض منخفضًا وفسيحًا، تحوطه أيكة من أشجار الزيزفون. إلى يسار المنزل مرعى وافر تحده أشجار الحور التي تتطاول في السماء وتتمايل في دلال لتعلو فوق أشجار الزيزفون ويحجبها عن ناظري من يشاهدون المنظر عن بعد.

أسير منجذبة إلى ذلك المنزل الشبيه بالقصر. عند المدخل بوابة بيضاء، أجتاز رواقًا بديعًا تظلله الأشجار على الجانبين. ثمة ورد وأزهار ورياحين وشقائق نعمان حين أمد يدي لأقطفها تذوى في الحال. وينتهي الرواق أخيرًا إلى درابزين ودرجات سلم قليلة وإلى الباب المصنوع من خشب البلّوط...

في مواجهة المنزل مرج واسع أخضر به حوض كبير يحوي أزهار البنفسج وأورادًا حمراء وبيضاء تضفي روعة وبهاء على البساط الأخضر.

المنزل مبني بالصخور البيض ومسقوف بألواح إردواز زرقاء. لكم تلهّفت على دخول المنزل. لم يجاوبني أحد فأصبت بخيبة أمل بالغة؛ فقد دققت الجرس طويلاً وناديت صائحًا، وفي النهاية صحوت من نومي..

هكذا كان حلمي ولقد تكرر كثيرًا، نفس المشاهد بغير تعديل أو تغيير. الطريف أنني حين كنت أصحو لا أقدر على تذكر تفاصيل الحلم. فجأة راودتني فكرة جريئة لم أقدر على دفعها: أن أنطلق في إجازة الصيف بسيارتي الصغيرة وأقضي الإجازة في جولة بحثًا عن المنزل..!

بالطبع لن أزعجكم بسرد تفاصيل رحلتي، فقد طفت بنورماندي وتورين وبواتو من غير أن أظفر ببغيتي. حين عدت إلى باريس في أكتوبر لاحقني الحلم طيلة الشتاء.

عندما قدم الربيع واصلت رحلتي في الريف المحيط بباريس. ذات يوم كنت على تل قرب أورليان وإذا شعور طاغ يغمرني.. فالبقعة برغم أني لم أزرها - بدت مألوفة لي... وها أنا أشاهد قمم أشجار الحور تتمايل مزهوة في الفضاء..!



أخيراً عثرت على منزل حلمي.. قدت سيارتي مقتربة من المكان. ها هي البوابة البيضاء والباب المصنوع من خشب البلوط.

فارقت السيارة وعدوت مسرعة إلى السلم أقفز الدرجات.

وأدق الجرس.. انفتح الباب عن خادم بوجه كئيب تملؤه التجاعيد.. يرتدي الخادم جاكتًا أسود حين رآني بحلق في وجهي في ذهول دون أن ينطق بحرف! قلت له:

- عفوًا، لي طلب غريب نوعًا. إنني لا أعرف أصحاب المنزل فهل يأذنون لي في معاينته والفرجة عليه؟..

- إن المنزل مهجور يا سيدتي ولقد فوّضوا إليّ عملية البيع..

- المنزل مهجور وخال؟ يا له من حظ! لكن لماذا هجره أصحابه؟

- لأنه مسكون يا سيدتي..!

صحت فيه:

- مسكون؟ ألا يزال الفرنسيون في الريف يعتقدون في الأشباح؟

- إنني يا سيدتي لم أصدّقهم إلى أن التقيت الشبح يتجول في الحديقة كل ليلة..

في ذهول صحت وأنا أحاول أن أغتصب ابتسامة:

- يا لها من حكاية مضحكة..!

في عتاب ولوم قال الرجل:

- عليك يا سيدتي ألا تسخري من الحكاية؛ فلم يكن ذلك الشبح سواك..!



**فوزية العلوي**
**القصرين ـ تونس**

أما قبل:

هي أشيائي التي تعرفني، هي المتحدثة الصامتة. هي السامرة الفرحة الباكية الناشجة الحالمة.

هي الملتفة على أسرار عمرنا القديم. هي الشاعرة بحرقي وتباريحي وانكساراتي، هي التي شهدت جذلي وطربي وغضبي واهتزاز الزمان في راحتي. هي التي تنأى عن التشابه والتماثل، هي القائمة في الذاكرة رموزاً ومنارات ضوء. هي ظلي في زمن بلا ظل

ooo

السّرير: باهظ الاتساع، يشكو غياب سيّده، والإزار الذي بدا مترهلاً أغرى العناكب أن تتسلق عليه بنسج لعابها.

الإطار المذهب: فيه أبي، عيناه نجمتان، شفتاه قابضتان على لحظة مفلتة، أمي وحدها تكون أدركتها.

الأغطية الصوفية: تبالغ أمي في لفّها، وتسكن طياتها حبوب النفطلين. تحلم ذات شتاء أن يضج البيت كما كان، ويداخله الفرح وتُبسط الأغطية كلّها على الغائبين الذين تركوا حفراً في القلب وما عادوا.

الستائر: طارت عصافيرها!

النوافذ: ماذا يقول خشبُها وقد تشرّب الأمطار الأخيرة؟ ينشُجُ أو يئزُ أو يحلم بأن ينفتح على احتمالات النسائم المثقلة برائحة الصنوبر والصفصاف، لكن كم هو شحيح ربيع هذا العام!

هذر الكؤوس الجافة المقلوبة على رؤوسها متواصل في طبق النحاس الذي جلبه أبي قبل مولدي ذات عيد. متى تقول نمتلئ بالروزاطة؟ متى تُقبلنا تلك الشفاة الوالهة؟

الإبريق، ذاك، فقد صولة الغليان وأبّهة السمر فأحكم غطاءه على رأسه وأغمض عينيه يحلمُ بحقول الشاي البعيدة ويصطنع النوم.

الفازة(١)، تلك تحتفظ بها أمي للّيل مُظلم تحدبُ عليها حديقة عمرها، رفيقة سمرها السري، وشاهدة شهقاتها السعيدة. تلفُ عجزها البلوري الأخضر في قماشة من صوف، وتحافظ قدر الإمكان على أنبوب الإضاءة فيها وتغتاظ إن أساء إليه الذباب.

الخزانة: مغلقةٌ على أسرارها، تُرسلُ إذا انفجرت روائح اللوبان والشمع والمخاب وعود الأراك والأوراق القديمة وعلبة ماء زمزم المرصودة ليوم لا مناص منه. تسرعُ أمي كأنما تخافُ أن تفرّ عطورها وتبقى الأثواب بلا ذاكرة. تُحكِمُ رصُ بابها بركبتها وتعرك فيها المفتاح لتدُسّه كابنها في صدرها.

مازالت حريصة كعادتها كلّ خريف على وضع حبّات السفرجل بين ثنايا الثياب بعد أن تشكّها طولاً وعرضاً بحبات عود القرنفل، يتلصص أبناء إخوتي وأخواتي وهم يقتحمون حجرتها.

تقدحُ عيونهم، وأنوفهم الصغيرة مفتوحة مناخرها كالظباء، تبحثُ عن مصدر الرائحة، تطردهم أمي برفق، ليس هناك سفرجل، هي رائحته العالقة في الخزانة من العام الماضي. ولكنهم إذا قدم المساء وتحفزوا للذهاب، هرولت وراءهم بالسفرجلة وهي تقطّعها قطعاً غير متجانسة، وتهبهم كلاً على قدر حظه، وتقبّل رؤوسهم وأيديهم وتمسح مخاط بعضهم بطرف فستانها.

بندقية الصيد: التي روعت الحجل والسمان وأرانب السهوب البعيدة، مكتومة الصوت تلك، معلّقة على الجدار جنب الصورة، جعبتها إلى السقف وزنادها نسي الكلام. رغم ذلك لا تنسى عمتي أن تلمّعها، وأن ترسل أمامها وأمام الصورة في الإطار تنهيدة طويلة. توصي أمي التي ليست في حاجة إلى وصاياها أن لا تفرط فيها، وتعد بها أخي الغائب في مدن السحاب، ذاك الذي لا يزور البلدة إلا معزّيًا ثم نسي حتى الأحياء.

جلود الخرفان: في الأضاحي مازالت أمي تجمعها على الرغم من كثرة السجاجيد الاصطناعية والبسط والكراسي والأرائك. تغسلها، تبسطها بمهارة على الأرض، تدقّها بالمسامير، ترش عليها الملح ومسحوق العرار وقشرة الرمان،

حتى إذا جفت أعادت غسلها ومشّطتها، فإذا تنعمت ولان صوفها برمتها بأناقة لتضيفها إلى الرصيد المحفوظ في الغرف الكثيرة الصامتة. لأحمد نطع ولابنه أمجد نطعان. ونطع لعلي ولابنه خلدون نطع وللغائب في مدن الثلج نطع الكبش ولزوجته الفرنسية إذا قدمت ما شاءت من الأنطاع أمّا نحن البنات عمارة الغير، فلا نصيب لنا.

آنية النحاس: لها فضل تنظيفها هي الأخرى، إبريق الوضوء، مرش الزهر، المطفلة، سطل الحمّام إبريق الشاي. «الزُزْوَة»(٢)، تعرّضها أمي جميعًا للشمس، تفركها بالرماد والليمون حتى إذا برقت بعد غبش أراقت عليها الماء وجففتها، وطفقت تقلّبها آنية آنية وتعجب من إتقان صنعتها، وتذكر تواريخها، ثم تزمّ شفتيها في حسرة المتذكّر. رمضان قادمٌ وله هيبته وقد يجتمع الأعزّاء كما وعدوا وحتمًا ستدللهم بأوانيها النفيسة، لكنهم لا يجتمعون.



الكانون: أنيس الشتاء الصامت، ملتفٌ على حُرقه، ملتحفٌ برماد الاصطبار، تصفّر الريح في ثقوبه فيزأر ويضجّ الفحم، يتطاير الشرر هنا وهناك، يسري الأحمر في قلب الكتل المتراكمة السوداء. تحلق شرارات خفيفة الزرقة متماوجة البياض ويزدهي الجمر. تسرع إليه الأكفّ، تتلاقف الأصابع الماهرة ما اشتعل هنا وهناك لتعيده إلى وسط الكانون. تتدافع الركب والمناكب، تمتد الأقدام الصغيرة التي تخلّصت من جواربها بحثًا عن دفء محتمل، تُقذف حفنة من ثمر البلوط في قلب الأتون بعد أن تكون الأضراس قد ضغطت على الحبّات حبة حبة وبقرتها، ولكن هذا لا يمنع بعضها من الانفجار فيهتز المجلس ويسري الضحك الممزوج بهلع أبيض، وترتمي الأكف تبحث عن البلّوطة الضائعة. ذيل الملعقة المعفّر بالرماد يواصل جولته بين الجمر يتتبع الحبّات الضالة. يتأكل الجمر يتكاثف الرماد يتقدم الليل، الحكاية تسري والسمر منهمرٌ، حتى إذا تثاءب الكانون وبات الدفء وهمًا، هبّت الأجذاع لتتراص في المَخادع والزمنُ مُبهجٌ كأننا ملوك الأرض.

المهراس: زغاريده كانت تملأ الحيّ كم احتفت بها حبوب البن والفلفل الأسود والكمون! وحبّ الصنوبر ندقه ناعمًا بالسكر ونكوّره ونزدرده كأنما بلا حلوق! تطاردُ يدُ المهراس اللوز المنزلق على الأرضية الناعمة، ولا تترك العظم إلا بعد أن تشجّهُ على المخ العالق في التجاويف ذاك الذي كم حاولنا أن ندركه بألسنتنا فلم نفلح وبالخنصر فلم نفلح وبذيل الملعقة فلم نُفلح. والفلفل المشوي مازالت أمي تدقه في المهراس مع الثوم وتضيف إليه الطماطم التي تبقرها بأصابعها في الصحن ثم تفعمه بزيت الزيتون. وترش عليه الملح لنأكل.

متلصّص هذا الغربال: يطلُّ علينا من عيونه الكثيرة ولا يحجُب الشمس. له إخوة من جنسه لكنّ الأدوار مختلفة. عمتي تعرفها جميعًا لذلك تصنع من القمح الأعاجيب ونحرص ألاّ نعير الغربال إلا لثقة في الحي، وتطلب مني أن أكتب اسم أبي على كلّ طارة بالطلاء الأزرق فتمتعض أمي، وتقول: «الغرابيل للنّساء» تلك جلبتها أنا من المهدية عام ولدت رقيّة أختي ابنتها البكر. فتنهرها عمتي قائلة: «لا يليق بك وأنت زوجة أخي أن يعرف القاصي والداني اسمك».

الغرابيل دوّارةٌ، هاتفة بغيرها، يتجمع الخشن من الحب المجروش في الوسط. يتكوّم في شكل دائرة. تجمعها يد حاذقة، تضعها على اليمين في جفنة النحاس. يواصل الغربال رقصه على الوظاف. ينهمر الدقيق ناعمًا كالماء بعضه لخبز «الملاوي» وبعضه للعصيدة، وبعضه للمحمص الشتوي. ونحن كالجراء النزقة نأكل فلا نشبع، ونهتز من الغبطة والحياة لا ريب فيها.

**الهوامش**

١. قنديل يضاء بالنفط.

٢. آنية من نحاس لصنع القهوة.

# الغذاء النباتي قد يكون الحل



أكتب إليكم معقبًا على مقال نشر في مجلتكم الغراء «الفيصل» في العدد ٣٠٣ بعنوان «الغذاء النباتي قد يكون الحل» للأستاذ أحمد محمد خليل.

بداية لا أحد ينكر أهمية الأغذية النباتية في إمداد الجسم بالطاقة والبروتين والفيتامينات والعناصر المعدنية، وفي الوقاية من كثير من الأمراض بسبب احتوائها على مواد كيماوية مهمة Phytochemi-cals على رأسها مضادات الأكسدة Antioxi-dants، بالإضافة إلى احتوائها على الألياف. وقد سبق لي أن كتبت مقالاً نشر في العدد ٣٠٣ يوضح أهمية بعض الأغذية النباتية، ولكني لم أكن أبداً متحيزًا ضد الأغذية الحيوانية، كما فعل الأخ الفاضل/ أحمد محمد خليل في مقالة «الغذاء النباتي قد يكون الحل». ولما لم يصلكم رد على هذا المقال من أحد المتخصصين حتى الآن، وقد مر عليه نحو خمسة أشهر، وحتى لا نترك القارئ الكريم في حيرة من أمره بين الغذاء النباتي والغذاء الحيواني، وجدت لزامًا عليّ وإنصافًا للحق أن أعرض عليكم وجهة النظر الأخرى التي توضح أهمية تناول الأغذية الحيوانية دون إسراف إلى جانب الأغذية النباتية.

- يقول الكاتب: إن النباتيين Vegetarians في الولايات المتحدة وحدها يبلغ عددهم نحو عشرة ملايين شخص، وقد يكون هذا صحيحًا، ولكن الثابت أيضًا أن الأمريكيين من أكثر شعوب الأرض استهلاكًا للحوم الحمراء، إذ يبلغ ما يستهلكونه في العام أكثر من ١٤ بليون كيلوجرام (كجم) من اللحوم الحمراء (أبقار - أغنام - خنازير) ويقدر ما يستهلكه الفرد الواحد في العام بنحو ٥٩ كجم، علمًا أن متوسط استهلاك الفرد من اللحوم الحمراء في مصر لا يتجاوز ١٠كجم، ولا يفوق الأمريكان في استهلاك اللحوم الحمراء سوى سكان الأرجنتين ونيوزيلندا وأورجواي.

- يقول الكاتب: «إن كثيرًا من أبطال السباق الطويل وكمال الأجسام، ورفع الأثقال كانوا من المفضلين للأغذية النباتية، وإن الاقتصار على تناول الحبوب والخضار أدى إلى إظهار قدرات استثنائية بين الرياضيين بلغت ثلاثة أضعاف أولئك الذين تناولوا الأغذية الحيوانية». كل هذه نتائج واستنتاجات فردية تتنافى مع المنطق العلمي

السليم. أما الثابت علميًا منذ عشرات السنين فإن الإنسان البالغ يحتاج يوميًا إلى نحو ٣٥جم من البروتين الحيواني كحد أدنى - قد يقل عن ذلك في بعض الدول الفقيرة، ولكن جميع المنظمات الدولية توصي بألا يقل عن ذلك، وهذا ليس نوعًا من الترف أو الرفاهية، وإنما ضرورة حتمية؛ لأن البروتين النباتي بروتين غير كامل Incomplete Protein فتنقصه بعض الأحماض الأمينية الضرورية Essential amino acids اللازمة لتخليق بروتين الجسم، فمثلاً بروتين الذرة Corn منخفض في محتواه من الليسين Lysine والتربتوفان Tryptophan ومرتفع في المثيونين Me-thionine، أما الفول Beans وبقية البقوليات فعلى العكس تحتوي على كثير من الليسين وقليل من المثيونين؛ لذلك يجب تناول وجبات تحتوي على كلا النوعين في الوقت نفسه حتى يكمل بعضها بعضًا، هذا بالإضافة إلى أن البروتينات النباتية صعبة في الهضم؛ لأن الجزء المحتوي على بروتين بها يكون مغلفًا بالسليولوز وسكريات متعددة أخرى لا تستطيع القناة الهضمية تكسيرها.

وهذا لا يعني أن التغذية على البروتينات النباتية غير مفيدة، وإنما معناه أنه يجب استهلاك كميات كبيرة منها للحصول على الحد الأدنى من الأحماض الأمينية المطلوبة يوميًا، فمثلاً ٨ أوقيات (نحو ٢٢٧جم) من اللحم الأحمر كافية لإمداد الجسم باحتياجاته اليومية من البروتين. وبالموازنة على أساس الوزن فقط يحتاج الإنسان إلى أن يأكل نحو ١ كجم من الذرة لاستيفاء القدر نفسه من البروتين مع نشوء عيب آخر وهو ارتفاع السعرات الحرارية في الغذاء الأخير (النباتي) بما يفوق حاجة الجسم. واللحوم من أفضل المواد في درجة هضمها إذ يتم هضم ٩٧٪ من الدهن، و ٩٦٪ من البروتين الموجود في اللحم.

واللحوم مصدر ممتاز للحديد Iron وكلنا يعرف أهمية الحديد في بناء الهيموجلوبين الذي ينقل الأكسجين في الدم. ويتميز الحديد الموجود في اللحوم بأنه يوجد في صورة هيم Heme، وهو النوع الأسهل والأسرع امتصاصًا. واللحوم مصدر جيد لمجموعة فيتامينات B المركب، وأهمها الثيامين B1 الذي يحافظ على الجهاز الدوري والعصبي ويساعد الجسم على تخزين الطاقة وإطلاقها، والريبوفلافين B2 الضروري للنمو والبيرودوكسين B6 الذي يساعد على المحافظة على الأعصاب والجلد، وفيتامين B12 الذي يحافظ على كرات الدم الحمراء، والنياسين B9 الذي يمنع البلاجرا والكبد من اللحوم التي تتميز بارتفاع محتواها من فيتاميني A,C، إذ يحتاج الجسم إلى فيتامين A للرؤية الجيدة وسلامة الأنسجة، وكذلك فيتامين C اللازم لسلامة اللثة والأنسجة والوقاية من الأمراض.

وبالنسبة إلى الألبان ومنتجاتها فهي غذاء متكامل؛ وذلك لاحتوائها على البروتين والدهن والكربوهيدرات والفيتامينات والعناصر المعدنية. وباختصار فاللبن يحتوي على أحماض دهنية قصيرة السلسلة وهي أسهل في الهضم من الدهون النباتية (معامل هضم دهن اللبن ٩٧٪ بالنسبة إلى الإنسان). ويساعد الدهن الموجود في اللبن على امتصاص الكالسيوم لأن اللبن هو المصدر الأساسي للكالسيوم، فالكميات التي يوصى بتناولها يوميًا من الكالسيوم يمكن الحصول عليها من نصف لتر تقريبًا من اللبن. بينما يتم الحصول على الكمية نفسها من تناول أكثر من ٦كجم من الخضراوات. ومن المعروف أن الكالسيوم ضروري للنمو وبناء العظم والأسنان والقيام بعدد من الوظائف الحيوية المهمة في الجسم والحماية من

هشاشة العظام لدى كبار السن (الفيصل العدد ٢٧٩). واللبن هو الغذاء الوحيد في الطبيعة الذي يحتوي على اللاكتوز، ويعدّ اللاكتوز غذاءً مهمًا للمخ؛ لأنه يحتوي على الجلاكتوز الذي يدخل في تركيب المخ والأعصاب. فلا عجب إذن أن يأتي ذكره في القرآن كإحدى المعجزات التي خلقها الله: وإنَّ لكم في الأنعام لَعِبْرةً نُسْقِيكُمْ مما في بُطونِهِ من بين فَرْثٍ ودَمٍ لَبَنًا خالِصًا سائغًا للشاربين. النحل: ٦٦.

- ينتقل الكاتب إلى نقطة أخرى يعتقد أنها تدعم حجته فيقول: «ألم تر أن الفيلة والأبقار... إلخ كلها آكلات أعشاب فكيف استطاعت النمو إلى أحجام ضخمة قوية دون الاغتذاء بحيوانات أخرى» وفي هذا مغالطة كبيرة لأن الله سبحانه وتعالى خلقها وجعلها مؤهلة للقيام بهذا العمل «كل ميسر لما خلق له» من أجل خدمة الإنسان أكرم خلق الله. فالمعدة في الحيوانات المجترة Ruminant Animals، كالأبقار والجاموس والأغنام معدة مركبة Compound Stomach تتركب من أربعة أجزاء يحتوي أحدها (الكرش Rumen) على ملايين بل بلايين الأحياء الدقيقة (بكتريا وبروتوزوا) قادرة على هضم السليولوز والاستفادة منه في النمو وبناء البروتين والمنتجات الأخرى من فيتامينات وأحماض دهنية وغيرها ويعود كل ذلك بالنفع على الحيوان العائل Host Animal في علاقة تكافلية بينه وبين تلك الكائنات الدقيقة.

- يقول الكاتب «ولما كان إنتاج اللحوم باهظ التكاليف من الناحية التجارية إضافة إلى انخفاض معدلات تحويل البروتين النباتي إلى بروتين حيواني، فإن من المفضل الانتفاع بمحتوى النباتات المأكولة في تغذية الإنسان مباشرة». ولمناقشة هذه الجزئية أحب أن أورد بعض الحقائق المهمة:

- إن الأرض التي تستخدم لرعي الحيوانات غالبًا لا تصلح لزراعة المحاصيل الحقلية وإنها - من دون رعي الحيوانات عليها - تصبح عديمة القيمة، علمًا أن ٤٠٪ من مساحة اليابسة تندرج تحت هذه النوعية من الأراضي (أراض جافة أو صخرية أو منحدرة، فقيرة بصفة عامة والمناخ إما حار جدًا وإما رطب جدًا).

- إن الحبوب التي تستخدم في تغذية الحيوانات ذات نوعية رديئة تختلف عن تلك التي تستخدم في تغذية الإنسان.

- تتغذى الحيوانات ببقايا المحاصيل والمنتجات الثانوية، مثل كسب بذرة القطن، وكسب فول الصويا وغيره، علمًا أن كل ١ كجم يتم إنتاجه من القطن يكون مصحوبًا بأكثر من ١كجم من بذرة القطن، ولا يمكن الاستفادة من هذه المخلفات إلا في تغذية الحيوانات المجترة بها.

- تغذية حيوانات اللحم بالحبوب تأتي في مرحلة التسوية النهائية Finishing وليس طوال حياة الحيوان ويقدر ذلك بنحو ٢٥٪ فقط من مجموع ما يستهلكه في حياته.

- إن النسبة بين ما يستهلكه حيوان اللحم من البروتين النباتي الذي يمكن استخدامه في تغذية الإنسان والبروتين الحيواني الذي ينتجه هي ٦، ١:٣ هذا بالإضافة إلى أن الحيوان قد قام بتحسين نوعية البروتين الناتج.

وفي النهاية فلم أجد خيرًا من هذه الآية الكريمة من سورة النحل لأختم بها حديثي: *والأنعامَ خَلَقَها لكمْ فيها دِفْءٌ ومَنافعُ ومنها تأكلون ولكم فيها جَمالٌ حينَ تُريحون وحينَ تَسْرَحون وتَحْمِلُ أثقالَكُمْ إلى بَلَدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشِقِّ الأنفس إن رَبَّكُم لرَؤوفٌ رحيمٌ.* النحل: ٥ - ٧. صدق الله العظيم.

**د. مسعد مسعد شتيوي**

**كلية العلوم الزراعية - جامعة قناة السويس**

**العريش - مصر.**

رحلة
في كتاب

# التعاون الاقتصادي العربي بين القطرية والعولمة

مراجعة: وليد نذير عتمة
الرياض ـ السعودية

عقدت في العاصمة الأردنية خلال الفترة من ١٠ إلى ١١ أبريل/نيسان عام ١٩٩٩م، ندوة حول «التعاون الاقتصادي العربي بين القطرية والعولمة» نظمها كل من منتدى الفكر العربي وجمعية رجال الأعمال الأردنيين ومؤسسة عبدالحميد شومان، والمؤسسة العربية، وذلك لعرض التجربة الاقتصادية للعمل العربي المشترك وتقويمها، ووضع تصورات لمواجهة التحديات التي تفرضها شروط العولمة، واعتماد اقتصاديات السوق، والتوجه إلى الخصخصة.

وشارك في الندوة نخبة من ذوي الاختصاص العرب، ناقشوا في أربع جلسات الاقتصاد العربي وعلاقته بالتطورات العالمية، والإصلاحات الاقتصادية العربية للقطاعين العام والخاص، وإمكانات التعاون الاقتصادي العربي، وبرامج التصحيح وإعادة الهيكلة. وأنه من الصعب أن ننتقل من المحلية إلى الإقليمية، ومن الإقليمية إلى العولمة في ظل غياب النظرة القطرية والنظرة الكمية والنوعية.

وتطرق الكتاب إلى التجارة الإلكترونية والتجارة الفضائية، وتعرف موقع عالمنا العربي من العولمة، وتأثيرها في العمل المشترك، وأن ظاهرة العولمة تزامنت مع الانحدار الواضح في الاقتصادات العربية، مما يفرض على العرب إيجاد أجوبة عن تحديات المستقبل، ومعالجة الاختلالات، والحرص على التوازنات الكلية، للوصول إلى مضامين العمل التنموي لمواجهة مستلزمات العولمة، وهذا يتطلب من كل دولة عربية إعادة تأهيل هياكلها الإنتاجية، والحد من التدخل الحكومي في العملية الإنتاجية، والانفتاح على السوق المالي العالمي بتحسين بيئة الاستثمار المحلية، وتشجيع التعاون الثنائي العربي بتطبيق اتفاقية المنطقة الحرة العربية، ووجود الإرادة السياسية العربية التي تسمح لرجال الأعمال ورؤوس الأموال العربية بالتنقل بين أقطار الأمة من أجل مصالحها. والأمل

التعاون الاقتصادي العربي بين القطرية والعولمة
تأليف:
نخبة من المتخصصين
عمّان: ٢٠٠٠م، ٢٠٤ص.

أن تسهم الندوة في تيسير سبل التواصل والاستقرار والتحليل لكل جديد في هذا العالم، بما تطرحه من أفكار ودراسات، والتقريب بينه وبين ما هو قائم بمجتمعاتنا ضمن معطياتنا وفي حدود إمكاناتنا. وإن التعاون الاقتصادي العربي سواء أكان محدوداً بالقطرية والتزاماتها، أم كان متأثراً بالعولمة واستحقاقاتها، قد أصبح لا يتحمل التأجيل في زمن تتسارع فيه التحولات العالمية.

وطالب المناقشون في الندوة إيجاد الأرضية المناسبة لتعاون اقتصادي عربي حقيقي، وتعزيز التكامل المشترك بين الأقطار العربية وصولاً إلى إقامة كتلة اقتصادية يقدر ناتجها السنوي المحلي بنحو (٦٠٠) مليار دولار، وستقوم بالضرورة على إثر ذلك صناعات كبيرة قادرة على مواجهة التكتلات الاقتصادية الدولية، وتعزز فرص حصولها على امتيازات تتمتع بها داخل منظمة التجارة العالمية. وهنا يأتي إنشاء منطقة التجارة العربية الحرة الكبرى ليواكب توجهات الانفتاح والعولمة. وتطرقت الندوة إلى موقع الاقتصاد العربي في ظل التطورات الاقتصادية، والتجمعات العالمية من خلال أحوال الأقطار العربية اقتصادياً، وتوصيف الأوضاع العالمية المعاصرة، والضرورات العربية والتوجهات.

### أولا: أوضاع الأقطار العربية اقتصادياً

يمثل عدد سكان الوطن العربي ٥٪ تقريباً من إجمالي سكان العالم، ومساحته ٢ر١٤ مليون كيلو متر مربع، ولا تزيد عليها مساحة الاتحاد الروسي (٧ر١٦ مليون كيلومتر) التي تمثل ١٠٪ تقريباً من إجمالي مساحة اليابسة إلا بقليل. والسكان والرقعة من العناصر الأولى التي يستخدمها البنك الدولي في قياس حجم الاقتصاد. وتطرق الكتاب إلى ما حققه العرب في النصف الثاني من القرن العشرين وهو الاستقلال السياسي.

أ - البيئة والموارد الطبيعية، والجهود المبذولة لوقف التصحر وتوسيع الرقعة الخضراء، ومشكلة زحف العمران وزيادة السكان، وشحّ المياه العذبة وضرورة التوصل إلى تقنية تهبط بتكلفة تحلية مياه البحار، كاستخدام الطاقة الشمسية في هذا المجال.

وتحدث عن الطاقة والثروة المعدنية لدى العرب اللتين تمثلان ٥ر٢٧٪ من إنتاج النفط في العالم و١٣٪ من إنتاج الغاز الطبيعي، وأن الدراسات تشير إلى توافر احتياطي في المعادن المهمة.

ب - السكان وقوة العمل:
تنحصر قوة العمل في السكان الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٦٥ سنة، فقد ارتفع عددها من ٦٧ مليوناً في عام ١٩٨٧م إلى ٨٨ مليوناً في عام ١٩٩٦م بزيادة قدرها ٧ر٣١٪ بينما زاد حجم قوة العمل على المستوى العالمي بنسبة ١٧٪. ويلاحظ أن الزيادة في نسبة السكان العرب تساوي ٤ر٢٦٪ في العقد الأخير من القرن العشرين، بينما كانت نسبة زيادة سكان العالم ١٥٪ فقط.

ج - الناتج القومي الإجمالي: ارتفع الناتج القومي لمجموع الدول العربية من ٣٧٨ مليار دولار في عام ١٩٨٧م إلى ٧ر٥٧٩ مليار دولار في عام ١٩٩٦م أي بنسبة ٣ر٥٣٪. بينما كان مجموع الناتج على مستوى العالم في الفترة نفسها ٥ر٧٦٪. إن التغير في نصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي والتفاوت الشديد بين متوسط دخل الفرد في اليمن

**الأسباب التي أدت إلى إخفاق التجارب السابقة في مجال التعاون الاقتصادي العربي، هي: غياب الإرادة السياسية، واختلاف النظم، وعدم فعالية المواثيق والالتزامات العربية، وانعكاس الخلافات السياسية على العلاقات الاقتصادية، والمصالح الشعبية، والضغوط الخارجية، وضعف الإعداد الفني**

الذي يقدره البنك الدولي بمبلغ ٣٨١ دولاراً في عام ١٩٩٦م، بتراجع ٤٤٩ دولاراً في السنة السابقة و١٩٤٩٣دولاراً في الكويت. ولكن لا يجوز أن تكون الأرقام الخام مضللة. فالأقطار التي يتجاوز نصيب الفرد فيها من الناتج القومي الإجمالي ١٠٠٠٠ دولار لا يزيد عدد سكانها على ٩ر٥ ملايين نسمة أي ما يعادل ٣ر٢٪ من إجمالي سكان الأقطار العربية. وبقية الأقطار العربية في تصنيف البنك الدولي ضمن الدول المنخفضة الدخل، وبعضها في الشريحة الدنيا في متوسط الدخل.

د ـ المصنوعات (التصنيع): من المقلق هو وضع الصناعة التحويلية وموازنة إنتاجها بالمصنوعات، وبما توافر من بيانات إحصائية، نجد أن «القيمة المضافة» من الصناعة التحويلية منسوبة إلى الناتج المحلي الإجمالي في عام ١٩٨٧م راوحت بين حد أدنى ٣٪ في سلطنة عمان، وحد أقصى في مصر ٣ر٢٣٪، وبعد عشر سنوات نجد أن الحد الأدنى كان ٨ر٥ في السعودية والحد الأعلى مرة أخرى في مصر ٣ر٢٤. وللتصنيع أهمية خاصة لمستقبل التنمية العربية ترجع إلى محدودية إمكانات الزيادة في الإنتاج الزراعي بسبب القيود الطبيعية على مقوماته: الأرض الصالحة للزراعة، والمياه المتاحة، وقوة العمل الكبيرة، ومعاناة الملايين من البطالة.

هـ ـ التجارة الخارجية: لا تمثل الصادرات العربية (بما فيها النفط والغاز الطبيعي) وقيمتها ١ر١٧٤ مليار دولار عام (١٩٩٥م) إلا ٧ر٢٪ من إجمالي الصادرات العالمية، وإذا استبعدنا تصدير المواد الأولية ينكمش الرقم كثيراً.

أما قيمة الواردات فكانت في نصف السنة المشار إليها ٣ر١٦٦ مليار دولار. وعلى أية حال يمثل إجمالي واردات الأقطار العربية ٨ر٢٪ من الإجمالي العالمي، وهذه النسبة متواضعة جداً.

و ـ التنمية البشرية: في عالم اليوم ليس للأمي مكان، فتقدم تقنيات الإنتاج يقتضي عاملا مؤهلاً؛ ومعدلات الأمية في الأقطار العربية رهيبة، فقد بلغت ٩ر٤٢٪. أما معدلها على مستوى العالم فهو ٧ر٢٩٪ فقط.



وقف التصحر وتوسيع الرقعة الزراعية من التحديات التي تواجه الإرادة العربية

## ثانياً: وصف الأوضاع العالمية المعاصرة

**أ ـ الأسباب والعوامل المساعدة:**

تشكّل العالم المعاصر خلال تغيرات متعددة ومتسارعة في نصف القرن الآخر، فما كادت الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها حتى انقسم العالم معسكرين متناقضين: المعسكر الاشتراكي الذي يضم أوسع الدول أرضاً (الاتحاد السوفيتي) وأكثرها سكاناً (الصين)، والدول التي تحلقت حولها، والمعسكر الرأسمالي الذي يضم أوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية وكندا واليابان وعدداً من الدول الصغيرة، وما يعنينا هنا اعتماد

قطبي المعسكرين على تطوير أسلحة الدمار الشامل، وتكديس ما يكفي لتدمير الكرة الأرضية، والإنفاق بلا حدود على البحث العلمي والتطوير التقاني (التكنولوجي) للأسلحة. ولقد ولدت الرأسمالية الغربية في الحروب، من حرب المئة عام إلى حرب الثلاثين عاماً إلى حرب السنوات السبع إلى الحربين العالميتين، وظلت الحرب أمراً معتاداً حتى كان في كل حكومة وزارة حرب.

وكان من بين نتائج الحرب العالمية الثانية حركة التحرر الوطني في أرجاء العالم الثالث، وإزاء إصرار شعوبه على الاستقلال أصبحت تكلفة الإبقاء على الحكم الاستعماري أو الاحتلال العسكري باهظة إلى حدٍّ دفع الرأسمالية العالمية إلى التخلي عنها والاكتفاء بالسيطرة الاقتصادية، والتحول من مرحلة الإمبريالية «تكوين الإمبراطوريات» إلى مرحلة جديدة، هي الكونية أو ما اصطلح على تسميتها بـ «العولمة» وجعل كوكب الأرض كله سوقاً مالية.

**ب ـ الظاهرة الجديدة:**

ـ الشركات المتعددة الجنسية:

وهي الشركات الكبرى التي تغزو أجزاء كثيرة من الكوكب، ففي عام ١٩٩٧م كانت كبرى تلك الشركات هي «جنرال موتورز» بإجمالي إيرادات في تلك السنة بلغت ١٨٤٫٤ مليار دولار، وكانت الشركات الاحتكارية حتى غداة الحرب العالمية الثانية تركز نشاطها في مجال محدد تسيطر على سوق منتجاته، أما الشركات الكوكبية فإنها تنشط في عدة مجالات ليس بينها صلة واضحة، ولا يقتصر نشاطها على دولة معينة فهي تسعى إلى الانتشار في أكبر عدد ممكن من الأقطار. وهذه الشركات تمتص مدخرات البلد الذي تستقر به، فهي إذا دخلت في شركة مملوكة لها سرعان ما تحاول بيع أكثر أسهمها لأهل البلد، وتغطي الشركة التابعة التمويل الجاري من بنوك هذا البلد. مثل فروع البنوك الأمريكية في مصر اقترضت من الجمهور مئات الملايين من الجنيهات عن طريق إصدار سندات، وتختار هذه الشركات كوادرها دون أولوية خاصة لجنسية معينة، وإنما باختيار الأفضل، مع إتاحة فرص التدريب والتأهيل، ومن يبرز يرق إلى (الكادر) الدولي للشركة، مما يغذي التفاني في العمل، والاهتمام الدائم بالبحث والتطوير، فتلك الشركات وليدة الثورة التقانية (التكنولوجية). ومن هنا كان إنفاقها الواسع على البحث والتطوير في معاملها أو بالتعاقد مع الجامعات ومراكز البحث العلمي والتقاني (التكنولوجي).

ـ الاقتصاد الكوكبي:

إن فوضى المعاملات المالية تهدد الاقتصاد الكوكبي، وليس الاقتصاد العالمي؛ لأن دور العالم يفيد كل البشر الذين يعيشون على هذا الكوكب، أما الاقتصاد الكوكبي فيعبر عن واقع انتشار الشركات المتعددة الجنسية وتشابك المصالح بينها عبر الحدود.

> ما نشهده من تقلص سلطة الدولة القومية أمر خطير على الشركات الكوكبية التي تستغني عن الكثير من خدمات الدولة ومؤسساتها

ـ تراجع سلطة الدولة القومية:

الدولة القومية التي تقوم على وحدة الأمة وسيادتها ظاهرة حديثة، وكان السائد قبلها ممالك، أي دول تحكمها أسرة مالكة، فنقول الدولة الأموية والعباسية والعثمانية.. إلخ، وكانت أول دولة قومية الولايات المتحدة عند نشأتها في عام ١٧٧٤م. ولذلك فإن ما نشهده من تقلص سلطة الدولة القومية أمر خطير على الشركات الكوكبية التي تستغني عن الكثير من خدمات الدولة ومؤسساتها، وفيما يلي عرض لتلك الظاهرة:

أ ـ الأمن الداخلي: تعتمد الشركات المتعددة الجنسية في الحفاظ على أموالها والعاملين فيها على نظم أمن خاصة مزودة بأحدث تقنيات الحماية، والشركة التي تخشى اضطراب الأحوال في دولة

ما تنسحب منها إلى دولة أخرى.

ب ـ البريد والاتصالات: اعتماد شركات بريد خاصة تنقل الرسائل من الباب إلى الباب بأقصر وقت ممكن.

ج ـ القضاء: النظم القضائية الأنجلوسكسونية تقر مبدأ الصفقة خارج المحكمة، حتى القضايا الجنائية، إذ تتصالح النيابة مع المتهمين نظير اعتراف المتهم، وتنهي النزاع بين طرفي القضية. ومثال ذلك الصفقة التي عقدتها شركة التبغ الأمريكية، وقضية التعويض التي رفعها مرضى السرطان، على أساس أن التدخين كان سبب إصابتهم. وتم إسقاط تلك القضية بالتبرع بمليارات الدولارات لعلاجهم.

د ـ القوات المسلحة: لم تعد الرأسمالية الكوكبية في حاجة إلى جيوش، وتنحصر أهمية القوات المسلحة في ما تحققه من أرباح من الإنفاق العسكري، وتحمل الدولة الجزء الأكبر من تكاليف البحث والتطوير.

هـ ـ النقود: مع انتشار التعامل بالشيك، تمكنت البنوك من إيجاد المزيد من النقود التي تسمى أحيانًا نقود الودائع أو النقود الكتابية، وظهرت النقود التي تصدر بعيدًا عن رقابة البنك المركزي في البلد المضيف، وأخيرًا ظهر التعامل «ببطاقات الائتمان».

و ـ الإنفاق الاجتماعي: اتخاذ إجراءات لتحسين أوضاع الطبقات الشعبية بنظم التأمينات الاجتماعية (شاملة التأمين الصحي وإعانات البطالة العارضة).

ز ـ سلطة اقتصادية لا تقابلها سلطة سياسية: فليس بوسع أي دولة من الدول الداخلة في الكوكبة أن تنسحب لتشابك المصالح المتزايدة خلال حدود الدول.

ـ التركز والتهميش: إذ يقابل تعاظم الثروة في السلطة إفقارًا وتهميشًا لأغلبية البشر، فمنطق الكوكبة؛ من لا ينتج غذاءه لا يستحق الحياة، أي إن أي دولة في العالم الثالث لا تكتسب القدرة التنافسية لتكون طرفًا في اقتصاد الكوكب ستهمش.

ـ أيديولوجية السوق: وصفت الرأسمالية تاريخيًا «باقتصاد السوق»؛ لأن المنتج الرأسمالي ينتج لمستهلك غير معروف مقدمًا، ومن ثم يكون السوق وسيلة البيع، وفيه يتحدد الثمن وكميات المبيعات.

## ثالثًا: الضرورات العربية والتوجهات

إن على العرب مضاعفة الجهد لتعويض ما فات، وتعزيز وضعهم في عالم الكوكبة، الذي يقوم على أساس البقاء للأصلح، وإن العرب مدعوون للعمل على تحقيق التكامل الاقتصادي الذي يحقق تقدمًا وتحسنًا في مستوى المعيشة، وزيادة في فرص العمل، وتقليلاً من حجم الفقر.

**مهمة الدولة أصبحت تتمثل بتحقيق توازن بين الاستفادة من العولمة وتوفير بيئة اجتماعية واقتصادية تتسم بالأمان والاستقرار لأكثر الفئات ضعفًا**

ـ التنمية التكاملية: إن تراكم المزيد من الوشائج بين الاقتصادات المشاركة يجعل تلبية كل من الطلب والعرض على السلع والخدمات وعناصر الإنتاج فيها الخيار الأول أمام صانعي القرار الاقتصادي؛ لأنه يعظم الربح والمنفعة، ومن ثم تتجه الفعاليات الاقتصادية، في اتجاه أسواق الأقطار المشاركة في التكامل دون عزلها عن حركة التجارة العالمية، والشركات العربية هي الأداة الفعالة في تحقيق التنمية التكاملية.

ـ الإطار القانوني: كما أن للدولة دورًا أساسيًا في تشييد البنية الأساسية المادية، فلابد أن توفر أيضًا البنية الأساسية لدعم التعاون والتقارب في أنشطة القطاع الخاص العربي والقطاع الأهلي (أو المدني) بكل مكوناته، ولابد أن ندرك أن الوصول إلى التكامل المنشود يستغرق وقتًا، وليس هذا الوقت فترة انتظار دون عمل، وإنما فترة عمل دؤوب يزيل العقبات ويفتح باب التعاون.

وتناول الكتاب دور القطاع العام في الدول العربية في ضوء المتغيرات والمستجدات الاقتصادية والعالمية، وما شهده من تغيرات أساسية في العقدين الأخيرين، وظهرت هذه التغيرات بشكل واضح في عقد التسعينيات، وتناول الدور الجديد للدولة أو القطاع العام، ومدى تأثير الدولة العربية في هذا التطور العالمي، وأهم المستجدات العالمية التي أدت في مجملها إلى تغير دور القطاع العام، ومدى نجاح بعض الدول في قراءة مضمونات هذه المستجدات والتفاعل معها، وتجنب بعض الآثار السلبية الناتجة منها، وتطرق بإيجاز إلى بعض التطورات في الدول العربية، مثل تخلي القطاع العام تدريجيًا عن أسلوب التدخل المباشر في إقامة المشروعات الإنتاجية والاستيراد والتصدير، وتقوية دور الدولة في سن التشريعات الاقتصادية المتناسبة مع المعايير الدولية، وعدم تضخيم جهاز القطاع العام، والتوجه إلى القطاع الخاص في إيجاد فرص عمل. وتعرض لدور القطاع الخاص والمجتمع المدني في التنمية البشرية في ضوء المتغيرات والمستجدات العالمية، وتسخير أساليب الحكم لخدمة التنمية البشرية، وأن عناصر الحكم هي الدولة والقطاع الخاص والمجتمع المدني، وأن النمو الاقتصادي وسيلة لتحقيق التنمية البشرية المستديمة وتنمية القدرات في مؤسسات الحكم، وهي الهيئات التشريعية والقضائية والانتخابية، وإدارة القطاعين العام والخاص، واللامركزية، ودعم الحكم المحلي، ومنظمات المجتمع المدني، هي النبع الذي يتولد منه العمل الاجتماعي.. وأخيرًا الدولة، التي تضطلع بتوفير الخدمات العامة، وتهيئة بيئة مستقرة وفعالة للنشاط العام والخاص، وتم التطرق إلى السياق العالمي والتحول من الاقتصادات الخاضعة للسيطرة المركزية إلى اقتصادات السوق.

ومهمة الدولة أصبحت تتمثل بتحقيق توازن بين الاستفادة من العولمة وتوفير بيئة اجتماعية واقتصادية تتسم بالأمان والاستقرار لأكثر الفئات ضعفًا، كما أن العولمة تخضع الدول لقدر أكبر من التمحيص، مما يؤدي إلى تحسين أداء الدولة وجعل السياسات الاقتصادية أكثر اتساما بالمسؤولية، ثم تحدث عن التطورات العالمية من حولنا، وتطرق إلى استنتاجات ومقترحات برنامج الخصخصة والارتباط ما بين الخصخصة والعولمة، وأنهما تطورا بالوتيرة نفسها في العالم العربي. ثم التكامل الاقتصادي العربي، وتحقيق التنمية الحضارية الشاملة بأبعادها السياسية والاقتصادية والتقانية (التكنولوجية) مع المحافظة على التراث الموروث، وما عوائق مسيرة التكامل الاقتصادي العربي وفرص نجاحه؛ وذلك بالإصلاحات الاقتصادية ووجود المؤسسة المالية العربية، ودورها المتزايد في تمويل الصادرات وضمانها مثل: صندوق النقد العربي، والمؤسسة العربية لضمان الاستثمار، والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، وتطور أنظمة المعلومات دوليا (الإنترنت) وقواعد وشبكات المعلومات التجارية العربية التي ساهمت في حل مشكلة ضعف المعلومات التجارية. وتعرّض الكتاب للإصلاحات الاقتصادية في المغرب وتونس. واعتماد كل منهما إصلاحًا للنظام المالي يرمي إلى تعبئة الادّخار، وتحسين فعالية استخدام الموارد المالية المتاحة، وضمان الاستقرار المالي. وقد أمكن لهما تحقيق تقدُّم مهم في عدد من المجالات، مما جعل المؤسسات العالمية ترى تجربتهما جديرة بالاهتمام. كما تطرق إلى الإصلاح الاقتصادي والخصخصة «التجربة المصرية»، والإصلاحات الجذرية التي تم بموجبها التحول تدريجيًا من اقتصاد توجهه القرارات الحكومية في إطار التصنيع الحكومي إلى اقتصاد تقوده آليات السوق، وألقى الضوء على الظروف العالمية الجديدة التي فرضت ضرورة التحول إلى اقتصاديات السوق، وكذلك الظروف المحلية التي فرضت عمليات هذا التحول،

والإجراءات التي اتبعت في التجربة بمراحلها، إذ يعدُ تحويل المشروعات العامة إلى الملكية الخاصة (الخصخصة) إحدى ركائز هذا الإصلاح. وتفصيل مراحل التجربة وإجراءات تنفيذها، والعقبات التي واجهتها، وكيفية التغلب عليها، وتقويم النتائج التي حققتها، والتحولات من العالمية إلى العولمة، ومعالجة الاختلالات، وإصلاح نظام الصرف الأجنبي، ومعالجة التضخم وعجز الموازنة العامة للدولة، وتحرير التجارة، وأسعار الفائدة والزراعة. ثم كيف يتم تنفيذ برنامج الخصخصة المصري، والخطة الزمنية، وإجراءات البيع للشركات، والعقبات التي اعترضت تنفيذ البرنامج، وكيف تمت مواجهتها.

مما تقدم يتضح أن كلاً من برنامج الإصلاح الاقتصادي والخصخصة يتقدم في تحقيق الأهداف الحقيقية، وأن التوقف عند هذا الحد لا يكفي لضمان استمرار النمو.

كما تعرض الكتاب للإصلاحات الاقتصادية في الأردن في ظل انخفاض معدلات النمو الاقتصادي في السنوات الأخيرة عن مدى نجاح برامج التصحيح الاقتصادي وإعادة الهيكلة التي تبنتها الحكومات الأردنية المتعاقبة منذ عام ١٩٨٩م، والتي توقف تنفيذها عام ١٩٩٠م بسبب حرب الخليج، ثم عاودت تطبيقها عام ١٩٩٢م حتى انتهت آخر برامجها مع نهاية عام ١٩٩٨م، وتعدّ الإصلاحات ضمن البرامج الموضوعة بالتعاون مع البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي جزءاً من الجهود المبذولة في الأردن في إطار إصلاحي شامل يُعدّ النقلة الاقتصادية النوعية المرجوة. ثم تحدث عن الأحوال الاقتصادية للأردن في منتصف الثمانينات نتيجة هبوط أسعار النفط، وانحسار حوالات العاملين في الخارج والمعونات والمساعدات من دول الخليج، ثم عن الإنجازات التي تحققت منذ عام ١٩٨٩م، حين انخفضت نسبة الديون الخارجية، وتقلّص الإنفاق الحكومي، وأبرمت الاتفاقات لإعادة جدولة الديون الخارجية وزيادة فترات استحقاقها، والإصلاحات في الإدارة الجمركية، وقناعة الحكومة بأن سياسات العولمة والخصخصة والتحرير الاقتصادي تؤدي إلى إدارة



البترول لا يزال من أهم مصادر قوة العرب

عجلة الاقتصاد، ولذا شكلت لجنة وزارية برأسها رئيس الوزراء للنظر في التشريعات الاقتصادية، وقانون تشجيع الاستثمار. وقانون الشركات والجمارك والمنافسة (منع الاحتكار) وحماية الإنتاج الوطني، والاتفاقات الدولية كالمشاركة مع الاتحاد الأوربي، واتفاقية استثمار مع الولايات المتحدة، والانضمام لمنظمة التجارة العالمية، وبرنامج الإنتاجية الاجتماعية، مثل برنامج إعادة هيكلة صندوق المعونة الوطنية وتوسيع خدماته، وتنمية المشروعات الصغيرة، وبرنامج دعم التدريب والتشغيل وتطوير البنى التحتية. وتطرّق الكتاب إلى تنمية القدرة

الاقتصادية التنافسية العربية في زمن العولمة، وإمكانات التعاون الاقتصادي العربي (الإجراءات العملية في الأوقات الراهنة)؛ وذلك من خلال الأوضاع الراهنة وواقع التعاون الاقتصادي العربي، وأثر الأوضاع الدولية في رسم التعاون الاقتصادي العربي المطلوب، والشروط الأساسية لنجاح أي تعاون عربي، وتحديد المسار وتصحيح الخلل في التجارب السابقة، والتزام الجوانب السياسية، والإجراءات العملية الممكنة مثل إنجاح منطقة التجارة العربية الحرة الكبرى وتوسيع القاعدة الإنتاجية لتنمية التبادل السلعي والخدمي والاستثمارات البينية، وإيجاد الشركات العربية المتعددة الجنسية مستفيدة من التطور التقني، وأن الاقتصاد العربي لا يتحقق بتوقيع اتفاقات فحسب، أو بمراسيم وإجراءات قانونية، وإنما هو إرادة سياسية أولاً تقررها الحكومات، وهو بناء يشارك المنتجون والعمال والمستثمرون في إتمامه لبنة بعد لبنة.

وتحدّث الكتاب عن أسباب أساسيات التعاون الاقتصادي العربي: إجراءات عملية وتنمية التعاون الاقتصادي العربي في ظل الأوضاع الراهنة، وتشجيع القطاع الخاص على تطوير التبادل التجاري بين الأقطار العربية، وإنشاء المشروعات الاستثمارية المشتركة وتنميتها.

وناقش الكتاب المعطيات الضرورية لقيام التعاون الاقتصادي العربي، وأن التعاون الناجح يرتكز على المقومات الاقتصادية المحلية والقطرية، مثل الموارد الطبيعية، والمرافق الأساسية، والمهارات البشرية، والقوانين والأنظمة الرسمية ومدى ملاءمتها للاقتصاد الحر، وتمازج العناصر الاقتصادية، والأنظمة المحلية لتعزز جدوى اقتصادية تحقق عائداً مجزياً للأطراف المعنية بمختلف هوياتها من شركات وأفراد ومجتمع ثم المنطقة كلها. وتحدّث عن حصيلتنا الوطنية وثرواتنا الطبيعية التي حبانا الله بها، وتراثنا الديني وقيمنا الإنسانية. ثم تطرق إلى إدراك أننا وصلنا إلى الدرك الأسفل في سلم التطور الإنساني، وأصبحنا عالة على الأمم المتقدمة نعطيها ثرواتنا بأبخس ثمن، ونستورد الخبز والإبرة والدواء والسلاح المتقادم، ونوقع عليه اتفاقات دولية نستعبد بها، ويستعبد بها أولادنا وأحفادنا.

وتطرق إلى الأساسيات الضرورية والإجراءات العملية الضرورية لإقامة التعاون الاقتصادي العربي وترسيخه، وإنشاء قاعدة معلومات شاملة للأقطار العربية تضع في متناول رجل الأعمال (المستثمر العربي) وصانع القرار، معلومات عن المنتجات الوطنية الصالحة للتصدير، ومواصفات تلك المنتجات وأسعارها، والفرص الاستثمارية المحلية، والقوانين والأنظمة المحلية، وأسماء الشركات والمؤسسات التجارية والصناعية والمالية والخدمية وعناوينها.

> على العرب مضاعفة الجهد لتعويض ما فات، وتعزيز وضعهم في عالم الكوكبة الذي يقوم على أساس البقاء للأصلح

إن أسباب التخلف العربي في هذا المضمار: منها ما هو سياسي، ومنها ما هو اقتصادي. ونوجز القول في أن متطلبات تحقيق التعاون الاقتصادي العربي تعوزها الإرادة السياسية التي تؤمّن القدرة على التخطيط لنجاحه. وإن أساس هذا التعاون لا يرتكز على رقعة جغرافية ومنطقة اقتصادية مشتركة فقط، بل جذوره تمتد إلى روابط القربى واللغة والتاريخ وتطلعات مستقبلية مشتركة. بغض النظر عن التطورات السياسية الآنية أو المرحلية. فالتكتل الاقتصادي العربي يرتبط ارتباطاً مباشراً بالبعد السياسي والثقافي للوجود العربي. فالنظرة الاقتصادية تعلمنا أنه كلما توسعت آفاق السوق توسعت فرص تطوير الكفاءة الإنتاجية، والحد النهائي لهذا المنطق أن يصبح العالم كله منطقة اقتصادية واحدة، مع وجود حسابات خاصة ببعض متطلبات النمو في الدول النامية، وهذه المقولة ذات أهمية خاصة في نطاق المسيرة الراهنة للعولمة،

ولاتزال أمام الدول النامية، ومن بينها الدول العربية، مرحلة انتقالية (على الرغم من التطورات المتسارعة في مسيرة العولمة الحديثة).

إن المنطق العقلاني للتعاون الاقتصادي العربي ينطلق من مبدأ الحفاظ على مصلحة مشتركة للدول العربية في نطاق العولمة السائدة، وغياب هذا التعاون يعني أن على كل دولة بمفردها أن تواجه تحديات الانخراط في اقتصاد عالمي منفتح، وتحدي التفاوض للتعاون مع كتل اقتصادية كبيرة. وإن الوحدة الاقتصادية العربية في الوقت الراهن لها مضمون في ظل مسيرة العولمة، هي القوة التفاوضية المنبثقة عن الوحدة تجاه الكتل السياسية الاقتصادية أو الدول الكبرى. وحول هذا الموضوع هناك ثلاث ملاحظات:

الأولى: تواجه الدول العربية التحديات المستقبلية على نموها الاقتصادي في ضوء التدني التدريجي منذ أول الثمانينيات في أهمية العامل النفطي بصفته محركاً أساسياً في الاقتصادات العربية، وما صاحبه من تباطؤ في النمو الاقتصادي الإجمالي وهبوط معدلات الاستثمار، وتدني معدلات تدفق المعونات الميسرة كذلك.

الثانية: أن قيام التكتلات الاقتصادية الكبيرة يتطلب من الدول العربية مواجهتها في كتلة اقتصادية واحدة، وليس كل دولة بمفردها.

الثالثة: أن قيام تكتل الاقتصاد العربي مهم جداً على صعيد التطورات السياسية في المنطقة، وأنه كلما توطدت الوحدة الاقتصادية نمت القوة التفاوضية السياسية للبلدان العربية فانعكست إيجاباً عليها في مواجهتها النزاعات الإقليمية، وفي مقدمتها النزاع العربي الإسرائيلي.

وخلاصة القول أن الإرادة السياسية في تبني قرار إنشاء منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى هي بداية الطريق، والوصول إلى نهايته بنجاح مرهون باستمرارية القرار السياسي للمضي في هذا الاتجاه.

كما ناقش الكتاب التعاون الاقتصادي العربي بين القطرية والعولمة، فإن ظاهرة العولمة أفرزت تركيزاً شديداً في القوى الاقتصادية، وأخذت هذه القوى تحكم سيطرتها على الاقتصاد العالمي، وتعيد صياغة قواعد التعامل الدولي والداخلي، بحسب مفهوماتها القائمة على البقاء للأفضل شعوباً ومنتجات. وأن المنافسة والقدرة على مواجهة العولمة هما عنوان المرحلة القادمة، وإن القوى التفاوضية تنتقل الآن من الحكومات إلى قطاع الأعمال.

ثم تحدث الكتاب بإشارات سريعة إلى الواقع الحالي للعالم العربي بالحقائق والأرقام، فالدول العربية «٢٢ دولة»، ناتجها المحلي عام ١٩٩٧م بحدود ٦٠٠ بليون دولار، ويبلغ متوسط نصيب الفرد منه ٢٢٦٩ دولاراً تقريباً مع تفاوت كبير من

**عناصر الحكم هي الدولة والقطاع الخاص والمجتمع المدني. والنمو الاقتصادي وسيلة لتحقيق التنمية البشرية المستديمة وتنمية القدرات في مؤسسات الحكم**

دولة إلى أخرى، إذ يصل هذا المعدل إلى ١٩ألف دولار في بعض الدول مقابل أقل من ٥٠٠ دولار في بعضها الآخر، ويعاني ما يزيد على ٤٠٪ من السكان الأمية، إلى جانب البطالة بأشكالها المقنعة التي تهدد طاقة جزء من سكان هذه الأمة.

إن الناتج المحلي لدولة مثل الدنمارك التي يعادل سكانها ٢٪ فقط من سكان العالم العربي، يمثل تقريباً ٣٠٪ من الناتج المحلي للعالم العربي، ودخل الفرد يزيد فيها على دخل ١٥ فرداً عربياً. أما ألمانيا التي يعادل سكانها ٣٠٪ من سكان العالم العربي، فإن ناتجها المحلي يعادل ٣٥٠٪ من الناتج المحلي للعالم العربي. أما حال مصارفنا، فالميزانية العامة للبنوك العربية مجتمعة تقارب ميزانية بنك تشيزمانهاتن، وتقل عن ميزانية بنك ديدتش في ألمانيا. هذا عدا عن حصتنا المتواضعة في التراكم المعرفي، واستعمال

التقانة (التكنولوجيا)، والإنفاق على البحث العلمي.
وعلى الرغم من أن فكر العمل العربي المشترك كان سباقاً، لكن السياسات القطرية أجهضته، فقد أقرت جامعة الدول العربية اتفاقية الوحدة الاقتصادية بين دولها في عام ١٩٥٧م، ودخولها حيّز التنفيذ عام ١٩٦٤م، وقيام مجلس الوحدة الاقتصادية العربية، وقرار إقامة السوق العربية المشتركة، إلا أن كل هذا تعرض لنكسات وسلبيات أدت إلى تعطيل مؤسسات العمل العربي المشترك، وتراجع عملية التكامل الاقتصادي العربي.

وتطرق الكتاب إلى الأسباب التي أدت إلى إخفاق التجارب السابقة في مجال التعاون الاقتصادي العربي، وهي غياب الإرادة السياسية، واختلاف النظم السياسية، وعدم فعالية المواثيق والالتزامات العربية، وانعكاس الخلافات السياسية على العلاقات الاقتصادية، والمصالح الشعبية، والضغوط الخارجية، وضعف الإعداد الفني، والإفراط في الحماية والتنمية القطرية المشتعلة، ودخول الدولة في النشاط الاقتصادي وسيطرتها عليه، ثم سياسة استبدال وإحلال المستوردات.

وإذا عجزنا عن بناء العالم العربي على أساس قومي بسبب تنامي النزعة الإقليمية، فلنعمل على إعادة بناء المجتمع العربي على أساس المنفعة والمصلحة المتبادلة، وإن المصالح المشتركة تؤدي إلى تعاون ينتهي إلى نوع من الوحدة الاقتصادية والسياسية.

وفي العالم العربي كانت الدوافع الأولية سياسية، فكانت النتائج عكسية، وبموازنة مشروع الوحدة الاقتصادية العربية مع مشروع الوحدة الأوربية، نجد أن الأول أسس على خلفية من وحدة العقيدة واللغة والتاريخ المشترك، والثاني على خلفية المصلحة الاقتصادية، ومع ذلك نجح الثاني وأخفق الأول نتيجة غياب الإرادة السياسية، ونجح الثاني بسبب وجودها، والإرادة السياسية تتوافر في العالم العربي عند وجود ديمقراطية حقيقية.

وفي ختام الكتاب لُخّصت الأفكار التي طرحت في الندوة، وهي:

- إن التعاون الاقتصادي العربي وسيلة أساسية للتفاعل الإيجابي مع العولمة وتحدياتها، والإسراع بمعدلات التنمية وتحسين القدرة التنافسية والتفاوضية.
- توفير مستلزمات النهوض للقطاع الخاص العربي، وتسهيل نشاطاته، وانتقال السلع والأفراد ورؤوس الأموال بين الدول العربية.
- تفعيل هياكل العمل العربي المشترك واتفاقياته، وتوفير الإرادة السياسية اللازمة للتعاون الاقتصادي.
- الشركات العربية المشتركة هي إحدى الأدوات الفاعلة لتحقيق التنمية التكاملية، والاستثمارات العربية البينية.
- زيادة وجود المنتجات العربية ومنافسة المنتجات الأجنبية.
- وجود نظام قانوني موحد ومرن، يحدد أوضاع الشركات العربية المشتركة.
- التفاوض الجماعي مع التجمعات الاقتصادية الخارجية، يقوي القدرات التفاوضية العربية.
- تطبيق البرنامج التنفيذي لمنطقة التجارة الحرة العربية الكبرى وفق الجدول الزمني المتفق عليه، ليكون التعاون الاقتصادي العربي وسيلة للتعامل مع العولمة، مما يتطلب تنسيق مواقف الدول العربية حيال اتفاقيات الشراكة مع أوربا، ومنظمة التجارة العالمية.
- توسيع القاعدة الإنتاجية في الدول العربية من أجل تنمية التبادل السلعي والخدمي.
- إنشاء بنك معلومات عربي يوفر المعلومات اللازمة للعمل العربي المشترك على مستوى القطاع الخاص.
- تطوير إدارة التنمية، وتفعيل الموارد البشرية، ركيزة الأنشطة الاقتصادية وتكاملها لمصلحة الأمة العربية.

# محمد المنوني

## شيخ الباحثين المغاربة في العصر الحديث

عبداللطيف بن محمد الجيلاني
المدينة المنورة - السعودية



يُعدَ الأستاذ محمد بن عبدالهادي المنوني من الشخصيات العلمية الرائدة التي رُزِئَت الأمة الإسلامية بفقدها في السنوات الأخيرة، فهو - رحمه الله - باحث لا يكل ولا يملّ، حَضَرَ بقوة في ميدان الكتابة والتأليف مدة مديدة تزيد على نصف قرن، وهو عاشق التراث الذي قضى ردحًا من عمره في خزائن المخطوطات، قيِّمًا عليها، ومُعَرِّفًا بما تحويه من نوادر وذخائر، وهو قبل ذلك وبعده نموذج للخلق الرفيع، والأدب الجم؛ ووفاء بحق هذا الرجل الفذ، وتخليدًا لمناقبه ومآثره، وما قدّمه من جهود مشكورة في سبيل خدمة العلم والدين كتبت هذه السطور في ترجمته، وقديمًا قال القائل: «من وَرّخ مؤمنًا فكأنما أحياه»(١)، وأعتقد أنني مهما اجتهدت هنا فلن أبلغ غايتي في التعريف بشخصية أستاذنا الكبير، فإبداعاته كثيرة، وعطاءاته غزيرة، ولا تسأل عن مآثره ومفاخره فإنها تنوء باستيعابها عشرات الصفحات، ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

### اسمه ونسبه ونسبته

هو الشريف الأستاذ السيد محمد بن عبدالهادي بن محمد بن الحسين المنوني الإدريسي الحسني، والمنوني نسبة إلى جده أبي الحسن علي بن منون دفين مكناس، وقد تكلم على هذا البيت الشهير الشيخ إدريس الفضيلي في كتابه الدرر البهية(٢)، والمترجم في كتابه: وثائق ونصوص عن أبي الحسن علي بن منون وذريته(٣).

### ولادته

كان مولده بمدينة مكناس - مقر أجداده مدة تزيد على ستة قرون - في ٢٤ شوال سنة ١٣٣٣هـ، الموافق ٤ أيلول/سبتمبر ١٩١٥م.

### طلبه للعلم

بدأ طلب العلم وسنه خمس سنوات، حيث أدخله والده الكُتّاب، وذلك في المحرم من سنة ١٣٣٨هـ، فتعلم مبادئ القراءة والكتابة، وشرع في حفظ القرآن

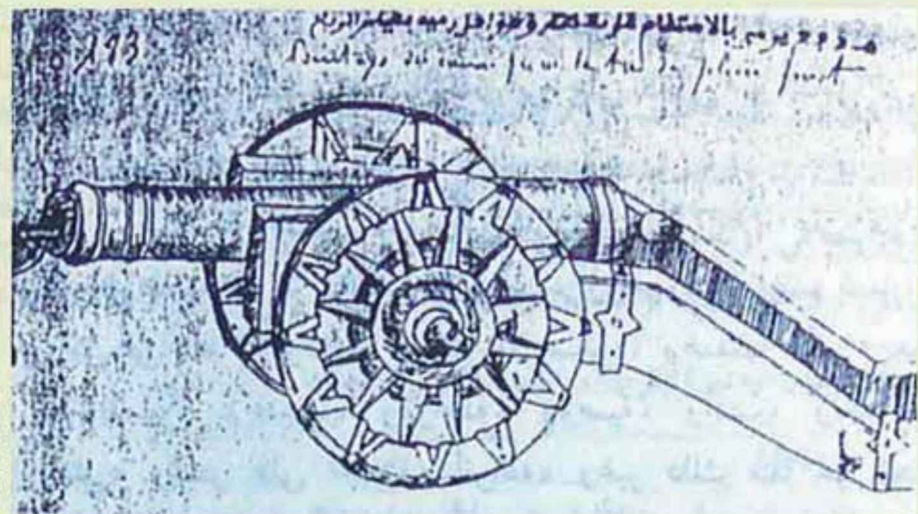
**اعتنى الشيخ المنوني منذ وقت مبكر من حياته بجمع الكتب، ولا سيما المخطوط منها، وساعده على ذلك اطّلاعه الواسع في مجال التراث، فكوّن مكتبة عظيمة**

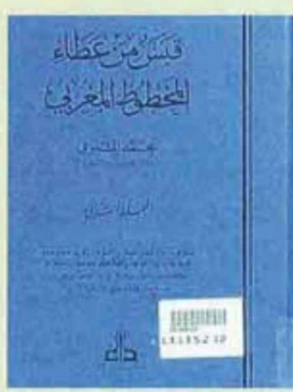
الكريم، إلى أن أتمّ حفظه وأتقن قراءته ورسمه برواية ورش في ثلاث دورات آخرها سنة ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م على يد شيخه المقرئ المتقن محمد بن سمية بن الطيب القبّاب الأندلسي (ت:١٣٦٥هـ)، ولما شذا في الكتاب صار والده - رحمه الله - يأخذه بحفظ المتون العلمية أيام الأربعاء والخميس والعطل، فصار يكتب في لوح بمنزله متن المرشد المعين إلى أن أتمّ حفظه، ثم سار على الخطة نفسها في حفظ الألفية لابن مالك إلى أن حفظها، ثم حفظ مجموعة من المتون الصغرى والكبرى والمتوسطة، منها الجُمَل للمَجْرَادي، والسلم للأخضري، والاستعارة للطيب بن كيران، والمقدمة الصغرى للسنوسي، وبعض الأرجوزة العاصمية، واللامية الزقاقية، ومختصر خليل، الذي استظهر منه خمسة أحزاب.

وحرص خلال دراسته بالكُتّاب على حضور بعض المجالس العلمية في وقت فراغه، مقتصراً في هذه المرحلة على درسين في الأسبوع: الأول عند الشيخ الفقيه المختار السنتيسي في المرشد المعين بالشرح الصغير للشيخ ميارة الفاسي والثاني عند شيخ الجماعة الفقيه محمد بن الحسين العرائشي في المقدمة الآجرّومية بشرح خالد الأزهري.

ثم تفرّغ للطلب بعد مبارحته الكُتّاب، وصادف في ذلك الزمن قيام نهضة تدريسية بمدينته مكناس، فكان المتعلم يمكنه أن يقرأ خمسة دروس أو أربعة - يوميًا - على أساتذة مُبرِّزين انتصبوا للتعليم مجّانًا، فدرس الشيخ المنوني - رحمه الله - على جمع كبير من الشيوخ بمكناس حتى سنة ١٣٥٧هـ، ثم رحل إلى فاس لمتابعة دراسته بكلية القرويين، وقد أحصى شيوخه الذين تلمذ لهم بمكناس وفاس فبلغ عددهم ٣٧ شيخًا في الترجمة التي كتبها لنفسه، كما بيّن الكتب التي درسها عليهم(٤)، ومن أشهر هؤلاء الشيوخ: الشيخ محمد بن الحسين العرائشي (ت:١٣٥١هـ) والشيخ محمد بن المبارك بن علي بن عبدالملك الهلالي (ت:١٣٧٢هـ)، والشيخ عبدالرحمن بن بناصر بريطل الرباطي (ت: ١٣٦٣هـ)، والشيخ محمد بن محمد بن عبدالقادر بن سودة المري (ت: ١٣٦٨هـ)، والشيخ الحسن بن محمد بن محمد حجاج العمراني الزرهوني (ت:١٣٦١هـ)، والشيخ محمد الجواد ابن عبدالسلام الصقلي الحسيني (ت:١٣٩٢هـ) وغيرهم.

وللشيخ المنوني إجازات عالية صحيحة في رواية الحديث النبوي من كبار المسندين في العالم الإسلامي، وهذه الإجازات مجموعة في «سفر الإجازات» الذي كان يسلمه لمستجيزيه عند إجازته لهم، ومن أبرز مجيزيه الشيخ محمد عبدالحي بن الشيخ عبد الكبير الكتاني الحسني، مؤلف «فهرس الفهارس والأثبات»، أجاز له في فاتح ربيع الآخر سنة ١٣٥٧هـ بفاس بعد





أحد رسوم كتاب «العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع» أورده المنوني في كتابه «قبس من عطاء المخطوط المغربي»

أن حضر دروسه الحديثية بالجامع الأعظم بمكناس، وبجامع القرويين، وجاء في نص إجازته: «أجيز حضرة الفاضل المذكور - أي الشيخ المنوني - ذي السعي المشكور، والعمل المبرور، بجميع ما لي من مرويات ومقروءات ومسموعات ومجازات من قريب من خمسمئة نفس ما بين رجال ونساء بالمغرب الأقصى والأوسط والأدنى والحجاز ومصر والشام والعراق واليمن والهند...»(٥)، كما أجاز مكاتبة الشيخ عيدروس ابن سالم البار العلوي الحضرمي في المحرم من سنة ١٣٥٧هـ، والشيخ عمر بن حمدان المحرسي خادم العلم بالحرمين الشريفين في ١٩ من المحرم سنة ١٣٥٧هـ، والشيخ محمد راغب الطباخ خادم السنة النبوية بمدينة حلب «سورية» في ٢٥ صفر سنة ١٣٥٧هـ، كما أجاز له الشيخ عبدالرحمن بن زيدان الحسني العلوي مؤرخ مكناس في ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٥٧هـ، والشيخ القاضي عباس بن إبراهيم التعارجي، مؤرخ مراكش في ٢٧ رمضان سنة ١٣٦٨هـ، والشيخ عبدالحفيظ بن محمد الطاهر الفاسي الفهري في ١٧ من ذي القعدة سنة ١٣٧١هـ، وغيرهم كثير.

### مؤهلاته

حصل الشيخ المنوني على الشهادة العالية من كلية القرويين بتاريخ ٢٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٢هـ الموافق ٢٨ حزيران/يونيو عام ١٩٤٣م، كما حاز على جائزة المغرب عام ١٩٦٩م، وجائزة الاستحقاق الكبرى عام ١٩٨٨م.

### نبوغ مبكر

ظهر الشيخ محمد المنوني في الساحة العلمية كاتبًا وباحثًا منذ وقت مبكر، قبل ما يزيد على ستين عامًا، فقد نشر أول مقال له بعنوان: «أول مدرسة أسست بالمغرب» وعمره يناهز العشرين عامًا، وذلك بصحيفة المغرب للثقافة المغربية، العدد ٨ ، ٣ ربيع الآخر سنة ١٣٥٧هـ/ ٢ حزيران/ يونيو عام ١٩٣٦م، ص١٢٠، ثمّ تلته مقالات وأبحاث أخرى متعددة، ثم صدر أوّلُ كتاب من تأليفه بعنوان: «العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين» عن معهد مولاي الحسن بتطوان عام ١٩٥٠م، وقد أثارت هذه الباكورة الأولى من المترجم موجة من الاستحسان والإعجاب في الأوساط العلمية آنذاك، وقد بلغ الإعجاب بالأديب عبدالله كنون (ت:١٤٠٧هـ) - رئيس رابطة علماء المغرب سابقًا - إلى حدّ أن كتب تقريظًا لهذا الكتاب، جاء فيه: «وصاحب هذا الكتاب عالم من علماء الشباب المثاليين، جمع إلى العلم والاطلاع النفس الزكية، والأخلاق الفاضلة، وقامت به صفة الباحث الصبور، والعامل الدؤوب، فلا جرم أن يجني أطيب الثمرات، ويحصل على أحسن النتائج، فإنما هي همّةٌ وإدراك،

واجتهاد ونجاح، وكأن الأقدار لما تطاولت فاغتالت عالم مكناس ومؤرخها وكعبة القصاد فيها المرحوم مولاي عبدالرحمن بن زيدان أرادت أن تعوض منه خلفًا صالحًا، وتبقي هناك على وارث جدير بسره هو الأستاذ محمد المنوني الذي يعدّ بحق مفخرة من مفاخر العاصمة الإسماعيلية - مكناس - في هذا الصدد، أما كتابه هذا فإنه غاية ما يدرك في هذا الباب، على الأقل في هذه المدة القصيرة التي أخرج فيها، ومع إعواز المصادر الكافية الذي يحسه كل من عانى هذه المباحث المتشعبة؛ لاسيما وقد سلك فيها نهجًا علميًا معبدًا قلما يتأتى لمن زجَّ بنفسه في هذا الميدان من الكهول والشبان، فهو عمل أدبي تام أو كاد أن يكون تامًا، وإنتاج علمي محرر قارب أن يكون خاليًا مما يلاحظ عليه سواء في مادته وأسلوبه أو في نظامه وترتيبه... وللمؤلف حسٌّ دقيق، ونظرة نافذة في تعليل الأمور، وتحقيق المسائل، والتنبه إلى الأخطاء التي وقع فيها بعض الكتّاب»(٦)، ثم قال في نهاية تقريظه: «وقد علم أن كتاب العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين... بلغ الغاية في الجودة والإتقان، يستحق عليه مؤلفه كل ثناء وشكر، فنهنئه من صميم الفؤاد على توفيقه ونجاحه، ونقدمه إلى الشباب المثقف والباحثين في التاريخ المغربي والحضارة الإسلامية كأحسن طرفة يقدمها صديق إلى صديق»(٧).

**الشيخ محمد المنوني عالم ضليع، وباحث مقتدر، ضرب في عدد من العلوم والفنون بسهم ونصيب، كالفقه وأصوله والتفسير والحديث والنحو والأدب، بَيْدَ أن همَّتَهُ اتجهت إلى تاريخ المغرب وحضارته، وعلم المخطوطات والوثائق**

### وظائفه

- عُيِّن في ٢٣ من ذي القعدة سنة ١٣٦٢هـ مدرسًا في القسم الابتدائي بالمعهد المكناسي أول افتتاحه، وكان يُدَرِّسُ السيرة والأدب وتاريخ المغرب والإنشاء، ثم دَرَّسَ في القسم الثانوي وأُسْنِدَ إليه تدريس الثمن الأول من المختصر الخليلي بشرح الدردير والأدب والعروض والنحو، واستمر في التدريس إلى نهاية السنة الدراسية ١٣٧٣هـ/٥٣ - ١٩٥٤م، وفي العطلة الصيفية لتلك السنة اعتقل الشيخ من طرف السلطات الفرنسية المحتلة، فاعتقل ابتداءً من ٨ آب/أغسطس عام ١٩٥٤م، وحكم عليه بالسجن والنفي من مكناس، كما فُصِلَ عن التدريس بالمعهد من آخر سنة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م إلى أن عاد إليه بعد استقلال المغرب ابتداءً من جمادى الأولى سنة ١٣٧٥هـ/كانون الثاني/ يناير عام ١٩٥٦م، وعند عودته صار يدرس الموضح لابن هشام على ألفية ابن مالك، وبلوغ المرام لابن حجر مع شرحه سبل السلام، علاوة على تدريسه للتاريخ والأدب، ومن كانون الثاني/يناير عام ١٩٥٩م عُيِّن مُفَتِّشًا لمادة التاريخ في ثانويات التعليم الأصيل، مُضافًا إلى ذلك مراقبة الدروس وتفتيشها بمعهد مكناس إلى الرابع من أيلول/ديسمبر عام١٩٦١م، وبعد هذا التاريخ التحق الشيخ المنوني بالعمل قَيِّمًا في الخزانة العامة بالرباط، ومن آذار/مارس عام ١٩٦٢م صَارَ مُشْرِفًا على قسم المخطوطات بالخزانة الملكية بالرباط مع ممارسة الأشغال المنوطة به بالخزانة العامة، وخلال ذلك عُيِّن أستاذًا بكلية الآداب بفاس، وظلّ يشتغل بها مدة عامين، ودرّس فيها تاريخ المغرب، ثم قام بإلقاء محاضرات في تاريخ المغرب وحضارته بالإذاعة المغربية بالرباط ثمانية أعوام، وفي ٢٥ حزيران/يونيو عام ١٩٧٠م عُيِّن رئيسًا لمصلحة المخطوطات في وزارة الثقافة والتعليم الأصلي إلى ٢٠ رمضان سنة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م ثم صدر مرسوم ملكي بعودته محافظًا للخزانة الملكية، وخلال ذلك ألقى محاضرات في دار الحديث الحسنية بالرباط في موضوع البحث في المخطوطات من جهة فهارسها، وأنواع الخطوط والمخطوطات، وفي كلية الآداب في التعريف بالمصادر العربية لتاريخ المغرب، وألقى

دروسًا في مدرسة علوم الإعلام بالرباط في موضوع طريقة فهرسة المخطوط العربي، إلى أن مُنحَ التقاعد من عمله الرسمي في سنة ١٤٠١هـ، وتقديراً لجهوده، وبقطع النظر عن الشهادات، صدر قرار ملكي بتعيينه أستاذًا للتعليم العالي مدى الحياة، كما أن له عضوية في عدد من المراكز والمؤسسات العلمية بالمغرب والجزائر وتونس والسعودية وباكستان وإنجلترا وإسبانيا.

### مكتبته

اعتنى الشيخ المنوني منذ وقت مبكر من حياته بجمع الكتب، ولا سيما المخطوط منها، وساعده على ذلك اطلاعه الواسع في مجال التراث، فكوّن مكتبة عظيمة زاخرة بنفائس الكتب والمخطوطات أطلق عليها مكتبة ابن غازي؛ تيمنًا باسم عالم مدينته مكناس أبي عبدالله محمد بن أحمد بن غازي العثماني المكناسي (ت: ٩١٩هـ) صاحب الفهرس الموسوم بـ: «التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والنّاد»، وقد سَعَتْ وزارة الثقافة المغربية إلى شراء مكتبته وضمّها إلى الخزانة العامة، إلا أن ذلك لم يتمَّ، ولم يكن الشيخ ضَنينًا بالكتب التي بحوزته، بل كان يُيسّرُ للباحثين الوصول إليها، ويمدهم بما يشاؤون منها، وضَرَبَ في ذلك أروع المثل، وأذكر أنه سمح لمركز جمعة الماجد بتصوير ما يحتاج إليه من نفائس مكتبته، كما بَعَثَ معي قبل وفاته بعام أو عامين عند سفري من المغرب إلى السعودية بثلاث مخطوطات نفيسة من مكتبه لأسلمها للمسؤولين في مكتبة الحرم النبوي وقفًا مؤبدًا منه على المكتبة، وقد قمت بتسليمها لهم، وهي:

- الجزء الأول من جامع الترمذي، نسخة ترجع إلى القرن الثامن.
- شرح المناوي على ألفية العراقي في السيرة، نسخة مكتوبة في حياة المؤلف.
- مجموع يضم نصوص إجازات عدد من علماء المغرب.



ساعي البريد المغربي القديم من كتاب «مظاهر يقظة المغرب الحديث»

### علومه

الشيخ محمد المنوني عالم ضليع، وباحث مقتدر، ضرب في عدد من العلوم والفنون بسهم ونصيب، كالفقه وأصوله والتفسير والحديث والنحو والأدب، وعنده مشاركة في علم الإسناد وتعلق بالطلب، بيْدَ أن همَّتَهُ اتجهت إلى تاريخ المغرب وحضارته وعلم المخطوطات والوثائق فتخصص في ذلك بحيث صار فيه أوحد زمانه، وفريد أوانه، ويشهد لذلك بحوثه الماتعة الحافلة في إبراز تاريخ المغرب في شتى عصوره، وكذلك بحوثه في الكشف عن نفائس المخطوطات التي تزخر بها الخزائن المغربية؛ والذي خالط الشيخ المنوني وعَرَفَهُ لا بدّ أن يَنْبَهِرَ بذاكرته القوية، وقد رأيت من سرعة استحضاره للمعلومات أيّام شيخوخته ومرضه ما أثار إعجابي، فضلاً عما كان عليه أيام شبابه وكهولته، وعندما كنت في طور إعداد رسالتي للماجستير عن الحافظ ابن رشد السبتي استفهمت

الشيخ في عدد من الجوانب المرتبطة بحياة هذا الحافظ الكبير، فكان يرشدني - رحمه الله - إلى فوائد عزيزة، وفرائد نفيسة تتصل بموضوعي، ويحيلني إلى المصادر ذاكرًا الجزء والصحيفة أحيانًا، وإن كان المصدر مخطوطًا ذكر لي مكان وجوده، بل رقمه في بعض الأحيان، كل ذلك من ذاكرته التي كانت تشتعل توقدًا وذكاء.

كما كان الشيخ عالمًا بأحوال عصره، وتاريخ علماء بلده، فقد كان على علم بجميع التطورات التي شهدها العصر الحديث، ذاكرًا تفاصيلها وجزئياتها، لا تكاد تغيب عنه شاذة ولا فاذة، أما أخبار شيوخه وأقرانه من علماء البلاد العربية عامة، وعلماء المغرب على وجه الخصوص، فقد كان مستحضراً أخبارهم، عارفًا بأحوالهم، مُطّلعًا على تراثهم، بحيث يُعدُّ في ذلك مرجعًا شفهيًا لا يُستغنى عنه، وكم أفادَ منه الباحثون في هذا الباب، فهذا الأستاذ الشيخ محمد بن الفاطمي السلمي الشهير بابن الحاج يقول في خاتمة كتابه: «إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين» معترفًا بالجميل للشيخ المنوني في ما أمده به من إفادات ساعدته على صنْع تراجم علماء المغرب المعاصرين، يقول:

«أرى دَيْنًا في ذمتي، وأمانة في عنقي، أن أجزي جزيل الشكر الوافر، وموفور الثناء العاطر، لكل من ساعدني وأعانني أدبيًا على إخراج هذا الكتاب التاريخي الهام، وأخص بالذكر العاطر من بينهم الأخ الشريف، الأستاذ المنيف، الأديب العلامة المؤرخ البحاثة سيدي محمد بن عبدالهادي المنوني الذي طوقني بإحسانه، وعطائه ومعونته، وأمدني جزاه الله خير الجزاء بعناصر بعض تراجمه ومواده اللازمة لتشييد هيكله وبنايته مؤملاً أن يجازيهم الله تعالى على حسن صنيعهم، وجميل إسعافهم، وأن يعظم أجرهم، ويضاعف مثوبتهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم»(٨).

وبالجملة فالرجل راسخ القدم في التاريخ المغربي وعلم المخطوطات والوراقة، قلّ أن ترى العيون مثله، وهو شيخ الباحثين في المغرب بلا مدافع، وكبير المسندين في عصره بلا منازع.

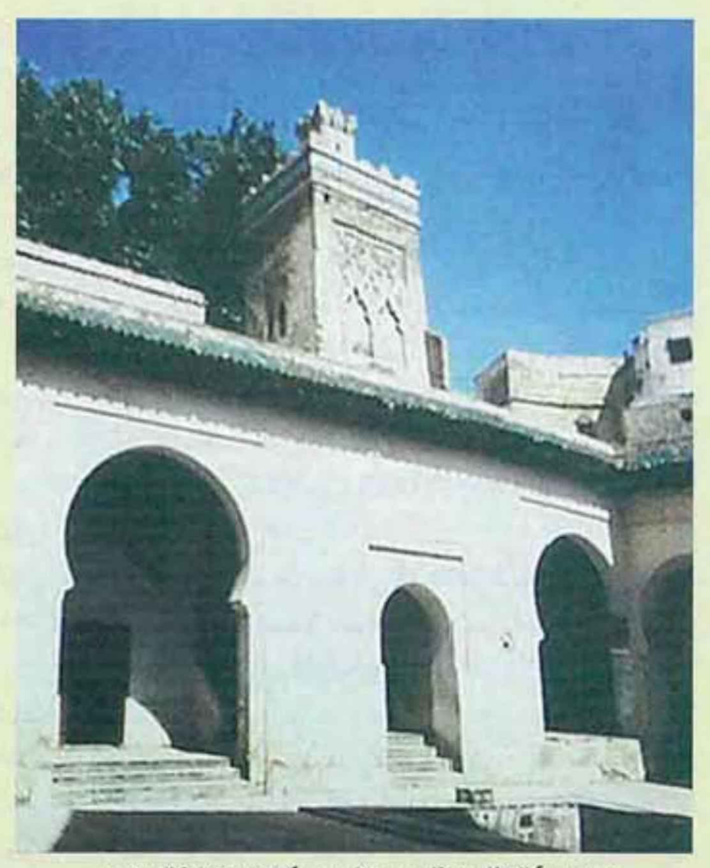
## أخلاقه وصفاته

كان الشيخ محمد المنوني - رحمه الله - عنوان أخلاق كريمة، وسجايا رفيعة، وكان صالحًا خيِّرًا عفيف النفس، كريم الطباع، لطيف المعاملة، جميل العشرة والملاقاة، وكان - رحمه الله - من التواضع بحيث لا يَرى لنفسه قدراً، ولا يَعُدُّ لها خطراً، كان غاية في التواضع عن رِفْعَة، بعيدًا عن الرياء والسمعة، محببًا إلى تلامذته ورُوَّاده، لا يعرف سوى العلم والتعليم، والاستفادة والإفادة.

**من أبرز السمات التي ميزت الشيخ محمد المنوني من علماء جيله سمة الباحث، فقد كان باحثًا بكل ما تحمله هذه الكلمة من مدلول، فهو ذو تصانيف جليلة، وأبحاث بديعة حفيلة، نشر عشرة كتب، وما يناهز مئة وثمانين بحثًا في المجلات تناول فيها عدة قضايا**

وكان له - رحمه الله - حافلة أسماها سفر الإجازات يجيز بها أهل العلم، فعَظُمَ الاحتياج إليه في السنين الأخيرة لكبر سنه، وعُلُوِّ سَنَده، فترى الوافدين عليه من شتَى أقطار الأرض، يستقبلهم ويُرحِّب ويُدْنيهم ويُقرِّب، ويقابلهم بكل تواضع وهضم للنفس، بحيث يُخيَّلُ إليك أنه هو المستجيز لا المجيز.

كما كان - رحمه الله دائمًا في استقبال الطلبة والباحثين، يدُلُّهم على أبكار الفوائد، وأخاير الفرائد، لا يُفرِّقُ بين طالب وآخر، دَيْدَنُهُ بَذْلُ العلم ونشره، حتى كان يحلو لبعض الأساتذة أن يطلق عليه: «عُكّازُ الباحثين الكسالى»؛ لكونهم يجدون عنده الحلول للمشكلات والصعاب التي تواجههم في بحوثهم، فكم من باحث استعصى عليه العثور على موضوع مناسب لرسالته فوجد عند الشيخ ضالّته، وكم من باحث أشكل



بهو مدرسة الصفارين بفاس من كتاب «ورقات عن حضارة المرينيين»

عليه السير في بحثه، ففتح الشيخ أمامه الطريق من جديد، وكم، وكم!!!.

وهكذا بذل الشيخ محمد المنوني نفسه وعلمه ووقته للطلبة، وفتح أمامهم أبواب داره، وقد رأيته لا يفْتُرُ ولا ينقطع عن بذل العلم، مع أن سن الثمانين قد أبلت بدنه، وانهكت قواه، ولا شك أن ذلك قد تطلب منه صبراً وجلداً، لا يتحمله إلا من وفقه الله تعالى لمرضاته.

### تصانيفه وأبحاثه

لعلّ من أبرز السمات التي ميّزت الشيخ محمد المنوني من علماء جيله سمة الباحث، فقد كان باحثًا بكل ما تحمله هذه الكلمة من مدلول، فهو ذو تصانيف جليلة، وأبحاث بديعة حفيلة، نشر عشرة كتب، وما يناهز مئة وثمانين بحثًا في المجلات تناول فيها قضايا الإسلام والتعليم والتاريخ والوراقة (علم المخطوطات وصناعته) والفهرسة، والوثائق، والسيرة النبوية، والتراجم، واللغة، والأدب، والفنون، والعمارة، والتعريب، وقد ذكر مسْرَدًا بعناوين مؤلفاته وبحوثه في آخر الجزء الثاني من كتابه: «المصادر العربية لتاريخ المغرب»(٩)، مع استدراكٍ وملحقٍ لها في آخر كتابه: «ورقات عن حضارة بني مرين»(١٠)، ويضاف إلى ذلك مواد قيمة أسهم بها في موسوعة: «معلمة المغرب»، كما شارك ببحوث قيمة في عدد من الندوات داخل المغرب وخارجه.

**وأشير هنا إلى بعض مؤلفاته:**

- العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، صدر له ثلاث طبعات، أولاها عام ١٩٥٠م عن معهد مولاي الحسن بتطوان.
- ركب الحاج المغربي، صدر عن معهد مولاي الحسن بتطوان عام ١٩٥٣م.
- مظاهر يقظة المغرب الحديث، صدر الجزء الأول منه عن مطبعة الأمنية بالرباط عام ١٩٧٣م، ثم صدر عن دار الغرب الإسلامي ببيروت في سفرين عام ١٩٨٥م.
- وثائق ونصوص عن أبي الحسن علي بن منون، صدر عن المطبعة الملكية بالرباط عام ١٩٧٦م.
- ورقات عن حضارة بني مرين، صدر عن كلية الآداب بالرباط عام ١٩٨٠م، ثم صدرت له طبعة أخرى عن الكلية نفسها عام ١٩٩٦م في مجلد ضخم.
- المصادر العربية لتاريخ المغرب، سفران عن كلية الآداب بالرباط، صدر الأول عام ١٩٨٣م، والثاني عام ١٩٨٩م.
- تاريخ الوراقة المغربية، صدر عن كلية الآداب بالرباط عام ١٩٩١م.

وآخر كتبه وشيك الصدور عن دار الغرب الإسلامي

بعنوان: «قبس من المخطوطات المغربية» في ثلاثة مجلدات، بما يقارب ١٤٠٠ص، وقد جمع فيه مقالاته التي تتصل بالتراث المغربي.

**ومن أبرز بحوثه المنشورة في المجلات والدوريات ما يأتي:**

- مقاصد التشريع الإسلامي، نشر بمجلة دعوة الحق، العدد الثامن، السنة الثانية، ذو القعدة ١٣٧٨هـ - أيار/مايو ١٩٥٩م، ص٢٦ - ٣٣.

- طابع الإسلام بين الأديان، نشر بمجلة دعوة الحق، السنة: ١٧، العدد ٨، شوال ١٣٩٦هـ - تشرين/أكتوبر ١٩٧٦م، ص٨٧ - ١٠٦.

- تلاوة القرآن بالترجيع والنغم، نشر بمجلة المنهل، المجلد: ٥٣، العدد ٤٥١، الربيعان ١٤١٢هـ - أيلول وتشرين الأول/سبتمبر وأكتوبر ١٩٩١م، ص٨١ - ٨٤.

- مدخل إلى تاريخ القرويين الفكري، نشر بالكتاب الذهبي لجامعة القرويين، عام ١٩٦٠م، ص١٨٢ - ١٨٧م.

- منهجية التعليم في الإسلام، نشر بمجلة دعوة الحق، السنة: ١٧، العدد الأول، ١٩٧٨م، ص ١٣ - ١٧.

- تاريخ المصحف الشريف بالمغرب، نشر بمجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، الجزء الأول، المجلد: ١٥، عام ١٩٦٩م، ص ٣ - ٤٧.

- صحيح البخاري في الدراسات المغربية، نشر بمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء الثالث، المجلد ٤٩، عام ١٩٧٤م، ص ٥٠٠ - ٥٤٩، ولهذا البحث ذيل وتكملة منشوران بمجلة دعوة الحق، السنة: ١٧، العدد: ٢و٣ (مزدوج)، عام ١٩٧٥م، ص١١٣ - ١١٥.

- كتاب الشفا للقاضي عياض من خلال رواته ورواياته ومخطوطاته الأصيلة، نشر بمجلة المناهل، العدد: ٢٢، عام ١٩٨٢م، ص٣٠٥ - ٤٢٣.

- مواقف مغربية ضد الحملات الصليبية، نشر بمجلة دعوة الحق، السنة: ١٣، العدد: ٣، عام ١٩٧٠م، ص٥٠ - ٦١.

- مؤلفات مغربية في الصلاة والتسليم على خير البرية، نشر بمجلة دعوة الحق، السنة: ١٨، العدد: ٤، جمادى الأولى - أيار/مايو ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص ٢٠ - ٣١.

- ترجمة فقيد الإسلام محمد المدني بن الحسني، نشر بمجلة دعوة الحق، العدد العاشر، السنة الثالثة، صفر - تموز/يوليو ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

- مؤرخ مكناس ابن زيدان، نشر بمجلة دعوة الحق، السنة العاشرة، العدد الأول، رجب - تشرين الثاني/نوفمبر ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ص٩٣ - ٩٩.

- محمد السائح في منهجية تدريسه للحديث، ومن خلال أوضاعه المنوعة، نشر بمجلة دعوة الحق، السنة: ١٧، العدد الخامس، ص١٠٨ - ١١٤.

- شيوخ ابن حزم في مقروءاته ومروياته، نشر بمجلة المناهل، العدد السابع، ذو القعدة - تشرين الثاني/نوفمبر ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص٢٤١ - ٢٦١.

- حل مشكلة تتصل






أغلفة ثلاثة كتب من تأليف المنوني



من معالم مدينة مكناس مسقط رأس المنوني

باسم مؤلف الروض المعطار وعصره، نشر بمجلة المناهل، العدد العاشر، ذو الحجة ـ تشرين الثاني/نوفمبر ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م. ص٣٦٧ ـ ٣٧٢.

ـ ترجمة ابن بطوطة، نشر بدعوة الحق، السنة:١٩، العدد الخامس، رجب ـ أيار/مايو ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص١٣ ـ ٢٠.

ـ صداقة أربعين سنة مع مؤرخ فاس عبدالسلام بنسودة، نشر بمجلة المناهل، العدد: ٢٠، ص١٩٥ ـ ٢٠٥.

ـ عبدالله كنون أديبًا ناقدًا مؤرخًا، ومحققًا للمخطوطات وناشرًا، طبع بمجلة دار النيابة.

ـ أضحية العيد في أدب الغرب الإسلامي، نشر بمجلة المناهل، العدد الخامس، ١٩٧٦م، ص ٢١٦ ـ ٢٢٧.

ـ التخطيط المعماري لمدينة مكناس عبر أربعة عصور، نشر بمجلة الثقافة المغربية، العدد:٧، ١٩٧٢م، ص ٢١ ـ ٥٦.

ـ حضارة وادي درعة من خلال النصوص والآثار، نشر بمجلة دعوة الحق، السنة:١٦، العددان ٢ و ٣، ١٩٧٣م، ص١٣٠ ـ ١٦٣.

ـ ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي، نشر بمجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، المجلدان: ١١ و ١٢، ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤م، ص ٣٢٩ ـ ٣٥٨.

ـ ترجمة مغربية لفهرس الإسكوريال، نشر بمجلة البحث العلمي، العدد السادس، ١٩٦٥م، ص ١٦ ـ ٢٣.

ـ الكناشات المغربية ودورها في الكشف عن الدفائن التاريخية، نشر بمجلة المناهل، العدد الثاني، ١٩٧٥م، ص١٩٦ ـ ٢٣٢.

ـ أربع وثائق علوية ضد بدع الشورة والأفراح أيام

السلطان محمد الرابع، نشر بمجلة دعوة الحق، السنة: ١٤، العدد الثالث، ١٩٧١م، ص ٥١ ـ ٥٩.

ـ إحياء علوم الدين في منظور الغرب الإسلامي أيام المرابطين والموحدين، نشر بمجلة كلية الآداب بجامعة الحسن الثاني ـ عين الشق، العدد الثالث، ١٩٨٦م، ص ١٤٥ ـ ١٥٨.

كما أنجز الشيخ المنوني عدداً من الكشافات والفهارس للمخطوطات الموجودة ببعض الخزائن المغربية منها:

ـ فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة بالرباط ـ قسم الكتاني، الجزء الأول، مرقون بالآلة الكاتبة.

ـ منتخبات من نوادر المخطوطات بالخزانة الحسنية بالرباط، مطبعة فضالة، ١٩٧٨م، ويستوعب ٢٥٢ مخطوطاً ووثيقة.

ـ دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروت، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٨٥م.

ـ مكتبة الزاوية الحمزية، نشر بمجلة تطوان، العدد الثامن، ١٩٦٣م، ص ٦٧ ـ ١٧٧.

ـ مخطوطات مغربية في علوم القرآن والحديث، نشر بمجلة دار الحديث الحسنية بالرباط، العدد الثالث، ١٩٨٢م، ص ٥٣ ـ ١٢٢.

ـ الخزانات المغربية من خلال ما تتوفر عليه من مصادر لتاريخ المملكة العربية السعودية، نشر بمجلة المنهل السعودية، العدد:٤٧٧، ١٩٩٠م، ص ١٣٧ ـ ١٤٤.

ـ لمحة عن تاريخ الخزائن الملكية بالمغرب الأقصى، نشر بمجلة دعوة الحق، العدد: ٢٢٨، ١٩٨٣م، ص٨ـ١٧.

## وفاته

توفي الأستاذ محمد بن عبدالهادي المنوني بمدينة الرباط قبل منتصف الليل من يوم السبت ١٧ جمادى الأولى من سنة (١٤٢٠هـ)، الموافق ٢٨ آب/ أغسطس عام ١٩٩٩م، وصُلّي عليه بالجامع الكبير بمكناس عقب صلاة العصر من يوم الأحد، ودُفن بمقبرة جدّه أبي الحسن علي بن منون حسب وصيته، وقد شُيِّعت جنازته في موكب مهيب شهده جمع غفير من الناس يتقدمهم وزير الثقافة وعامل صاحب الجلالة على مدينة مكناس وباشا المدينة وأعيان البلد، وتأسّف الجميع على فقده، وأتبعوه ثناء جميلاً، وكان أهلاً لذلك، رحمه الله تعالى.

وإذْ قد بلغ بي القلم هذا المقام لا أنسى أن أُذكّر نفسي وجميع تلاميذ الشيخ الفقيد ممن يروي عنه بطريق الإجازة بكلماته في ختام نص الإجازة التي تشرفت وتشرفوا بحملها عنه مُوصيًا ودَاعيًا، إذ قال: «راغباً منه ـ أي من تلميذه المجاز ـ ألاّ ينساني من دعواته، في خلَواته، وجلَواته، في محياي ومماتي، ودُنْيايَ وآخرتي، والله سبحانه يُبَلِّغُهُ من العلم والعمل به غاية مُبتغاه، ويسلك بي وبه والمسلمين أحسن المسالك، ويختم لنا جميعاً بالحسنى، ويجعلنا من أهل المقر الأسنى، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين، قاله بفمه، ورقمه بقلمه، المستغفر لمولاه، وراجي عفوه وستره ورضاه: محمد بن عبدالهادي بن محمد المنوني المكناسي ولادة ونشأة وقراراً...»(١١). فالله أسأل أن يُسْبِلَ عليه وابل مغفرته، ويَسْكُبَ عليه شآبيب رحماته، وأن يسكنه الفردوس الأعلى من الجنة، إنه تعالى على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

## المراجع والهوامش

١ـ انظر الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي ص٥٤.
٢ـ الدرر البهية ٢/١٧٨.
٣ـ وثائق ونصوص ص ٥٢ ـ ٥٦، نشر المطبعة الملكية.
٤ـ الحياة التعلمية والتعليمية وما إلى ذلك، للمترجم ص ٤ ـ ٢٧.
٥ـ سفر الإجازات، لمحمد المنوني ص٩.
٦ـ العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ـ كلمة تصدير للأستاذ عبدالله كنون ص ٤ ـ ٦.
٧ـ المرجع السابق ص٧.
٨ـ إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين ص ٥٠٢.
٩ـ من منشورات كلية الآداب بالرباط، ١٩٨٩م.
١٠ـ من منشورات كلية الآداب بالرباط، طبعة ثانية، ١٩٩٦م.
١١ـ نصّ الإجازة التي ناولنيها الشيخ ـ رحمه الله ـ والمؤرخة ليلة الأربعاء ١٧ ربيع الآخر سنة ١٤١٦هـ ص٢.

# الملف الثقافي

توثيق تاريخ الدرعية

مؤتمر مؤسسة الفكر العربي

الجامعة العربية
وحقوق الملكية الفكرية

الروائي الياباني
كينزابورو اوي
ينتقد سياسة أمريكا وبريطانيا

ندوة الجاليات الإسلامية
في الغرب

إعلان جوائز الدولةالتقديرية
في مصر وجائزة البابطين للإبداع

رحيل العريض وكابانا والقط



**خاتمة المطاف**

الحواس
والجمال

## تاريخ الدرعية



من معالم الدرعية

شرعت دارة الملك عبدالعزيز في تنفيذ مشروع توثيق تاريخ الدرعية بتوجيه من صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض رئيس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز ورئيس اللجنة التنفيذية العليا لتطوير الدرعية.

ويهدف هذا المشروع إلى توثيق تاريخ الدرعية وإعداد معلومات تاريخية موثّقة عنها من حيث نشأتها وتطورها وتاريخها وآثارها ودراسة معالمها، وتوثيق المواقع الجغرافية والمزارع والأودية والشعاب، ودراسة الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعمرانية فيها.

وستغطي المرحلة الأولى من هذا المشروع دراسة الدرعية منذ إنشائها من سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م حتى الوقت الحاضر، وسيعتمد المشروع على عدد من المصادر التاريخية مثل الكتب والدوريات والمراجع التاريخية ، الوثائق المحلية والخارجية، إلى جانب المقابلات الشخصية مع كبار السن والمعاصرين والرواة من الرجال والنساء لتسجيل رواياتهم عن الدرعية، كما سيتم تصوير الآثار التاريخية والشعاب بشكل يوثّق واقع المنطقة.

ودعا الأمير أحمد بن عبدالله بن عبدالرحمن محافظ محافظة الدرعية الذي يقوم بمتابعة وتنفيذ هذا المشروع في حديث لأبناء المنطقة إلى التعاون مع اللجنة لتوثيق الدرعية، مشيراً إلى أن الدور الأول منوط بهم لأن التوثيق الحقيقي هو المعايشة.

## الأمير سلمان رئيساً فخرياً لمؤسسة الجاسر الخيرية



الأمير سلمان بن عبد العزيز

وافق صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض على تولي الرئاسة الفخرية لمؤسسة حمد الجاسر الخيرية تقديراً لمآثر الشيخ العلامة حمد الجاسر التي أغنت الساحة الثقافية. وأعرب سموه في خطاب تلقاه رئيس مؤسسة حمد الجاسر الخيرية عن تمنياته من الله سبحانه وتعالى لهذه المؤسسة بالتوفيق والنجاح وتحقيق ما تصبو إليه من أهداف وغايات.

## نشاطات مؤسسة الفكر العربي

من المقرر أن تعقد «مؤسسة الفكر العربي» برئاسة صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل رئيس مجلس الأمناء مؤتمرها الأول في القاهرة في الفترة من ٢٧ إلى ٢٩ أكتوبر/تشرين الأول القادم برعاية الرئيس المصري حسني مبارك، وسيتناول المؤتمر عشرة محاور هي: «نحو علاقة عادلة بين العرب والغرب والقوى العالمية»، و«ماذا لو فشل خيار السلام؟»، و«أسباب فشل التكامل الاقتصادي العربي»، و«التعليم العربي بين الواقع والمستقبل»، و«قضايا الشورى والديمقراطية - رؤية مستقبلية»، و«الديانات السماوية والهوية العربية»، و«المعالجات الإعلامية للقضايا العربية»، و«متى يصبح العرب منتجين للتقنية؟»، و«إسهام المرأة في الفكر العربي»، و«اللغة العربية وروح العصر».

وكان صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل رئيس مجلس أمناء المؤسسة قد قام بجولة عربية زار خلالها عدداً من البلاد العربية شملت كلاً من اليمن، والبحرين، وقطر، ولبنان، ومصر، والجزائر، وتونس التي وقع فيها اتفاقية تعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الإلكسو) وهي أول اتفاقية تتم بين منظمة الفكر العربي والمنظمة العربية، كما


الأمير خالد الفيصل

قلد المدير العام للإلكسو الدكتور المنجي بو سنينة الأمير خالد الفيصل الميدالية الذهبية الممتازة للثقافة العربية، وترمي هذه الزيارات إلى لقاء قادة هذه الدول ومفكريها لبحث سبل التعاون بين «مؤسسة الفكر العربي» والحكومات العربية، ودعوة القادة العرب لحضور مؤتمرها الأول في القاهرة، وقال سموه: انه وجد تجاوبا من الدول العربية والمفكرين والمثقفين العرب للمشاركة في مؤتمر القاهرة الأول.

وأكد الأمير خالد أن مؤتمر القاهرة يستهدف تأسيس نمط جديد للحوار العربي يتسم بالموضوعية والتحضر في لغته وآلياته، من خلال الدراسات التي سيقدمها نخبة من المفكرين العرب والغربيين المتخصصين لبحث القضايا العربية سواء الداخلية أو ما يتعلق بعلاقتنا مع الآخرين، وينتظر أن يشارك في المؤتمر عدد من رؤساء الدول ونحو ٦٠٠ إلى ٧٠٠ من المثقفين والمفكرين العرب، وقد ضمت القائمة الأولية للمشاركين عددا من المثقفين والمفكرين العرب والأجانب، من بينهم: الدكتور أحمد جويلي (مصر)، والدكتور أحمد الضبيب (السعودية)، وأصيلة الحارثي (عمان)، والطيب صالح (السودان)، والدكتور إيريك رولو (فرنسا)، والدكتور جون ووتر بري (أمريكا)، والدكتور برهان غليون (سورية)، وجهاد الخازن (لبنان)، وصالح القلاب (الأردن)، والدكتور عبدالله الشملان (الكويت)، والدكتور عكرمة سعيد صبري (فلسطين)، ووزير الثقافة اللبناني الدكتور غسان سلامة، والدكتور محمد جابر الأنصاري (البحرين)، والدكتور منجي بوسنينة (تونس)، والدكتورة هدى محمد النعيمي (قطر).

وكانت المؤسسة قد عقدت مؤتمرها التأسيسي في القاهرة العام الماضي، وهي تتخذ من بيروت مقرا لها.

ومن جهة أخرى ينظم مركز الملك فهد الثقافي بالرياض محاضرة ثقافية لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير رئيس مؤسسة الفكر العربي، وذلك مع بداية الموسم الثقافي القادم للمركز، يتحدث خلالها سموه عن توجهات مؤسسة الفكر العربي ودورها في دعم الحركة الثقافية في الوطن العربي وتفعيلها والحفاظ على مكتسباتها.

وأوضح المدير العام لمركز الملك فهد الثقافي عبدالرحمن ابن محمد العليق أن المركز قد أنهى جميع الاستعدادات لانطلاقة الموسم الثقافي للمركز ١٤٢٣ـ ١٤٢٤هـ الذي سيشارك في إغناء فعالياته نخبة من الأدباء والمفكرين العرب، إلى جانب عدد من القطاعات الحكومية والخاصة التي تقدم ضمن أعمالها أنشطة ثقافية، وسيشتمل الموسم على عدد من الفعاليات الثقافية والتراثية والشعرية والفنون التشكيلية.

وأكد المدير العام لمركز الملك فهد الثقافي الأهمية التي تكتسبها هذه المحاضرة لكون الذي سيلقيها هو سمو الأمير خالد الفيصل، إلى جانب اهمية موضوع الأمسية الذي سيتناول «مؤسسة الفكر العربي.. أهدافها ـ دورها في خدمة الثقافة العربية وقضايا الوطن العربي في الداخل والخارج».

وأفاد أن المركز سيقوم بتوجيه الدعوات إلى عدد كبير من المسؤولين ورجال الثقافة والفكر والإعلام، والمهتمين بالحركة الثقافية بالمملكة لحضور هذه المحاضرة.

### حلقة علمية عن تقدير عمر المخطوط

اختتمت في معهد الفيصل لتنمية الموارد البشرية (أحد أجهزة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية) حلقة نقاش علمية في موضوع وسائل تقدير عمر المخطوط وتحديد موطنه الأصلي، وقد سعى المعهد من خلالها إلى التعريف بالمشكلة التي تواجه الباحثين وطلبة العلم لتقدير الفترات الزمنية للمخطوطات الخالية من التاريخ، والتحقق من مدى صحة التاريخ إذا ورد في المخطوط خشية أن يكون قد زيف لسبب ما مثل الانتحال والطعن وغير ذلك، إذ كثيرا ما يقع المتعاملون مع المخطوطات في حيرة كبيرة في كيفية تحديد تواريخها الأصلية. فقيمة المخطوط الحقيقية ليست في ما يحتويه من مادة فقط، وإنما قد يكون مرجعا مهما للحياة



بعض الدارسين في معهد الفيصل

الأدبية والثقافية والاجتماعية و الاقتصادية والسياسية للعصر الذي كتب به اعتماداً على نوعية الخط، وطريقة الكتابة، والورق والأحبار، والمؤلفين المعاصرين لاسم هذا المؤلف، وكذلك تحديد مواطنها الأصلية.

وقد حاول المشاركون في الحلقة الوصول إلى مقترحات تفيد في تأهيل العاملين في مجال المخطوطات بالمعرفة والخبرة المفيدتين، وشارك في إغناء هذه الحلقة مجموعة من الأساتذة ذوي الخبرة والمعرفة الواسعة في هذا المجال وهم: الأستاذ الدكتور عباس صالح طاشكندي ـ أستاذ المكتبات وعميد شؤون المكتبات بجامعة الملك عبدالعزيز، والأستاذ الدكتور يحيى محمود بن جنيد ـ الأمين العام لمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، والأستاذ صالح الحجي ـ رئيس قسم المخطوطات في عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود، والدكتور عبدالعزيز المشعل ـ أحد كبار المهتمين بهذا المجال، والدكتور عابد المشوخي ـ من قسم المكتبات والمعلومات بجامعة الملك سعود، والأستاذ عبدالله المنيف ـ رئيس قسم المخطوطات والنوادر بمكتبة الملك فهد الوطنية.

وتخلل الحلقة عدد من النقاشات المفيدة، وعرض لبعض النماذج والتطبيقات العملية، وقد أوصى المشاركون بهذه الحلقة بضرورة إنشاء فرق عمل للمتخصصين في هذا المجال المهم، وكونت لجنة لبحث ذلك.

### المخطوطات الموريتانية في مؤتمر دولي

بإشراف منظمة اليونسكو عقد في نواكشوط في موريتانيا في الفترة من ١٥إلى ١٧ صفر سنة ١٤٢٣هـ (٢٨ إلى ٣٠ أبريل/نيسان الماضي) «المؤتمر الدولي الأول حول المخطوطات الموريتانية» بمشاركة عدد كبير من المختصين والمهتمين بالمخطوطات من مختلف دول العالم، مثل فرنسا، وألمانيا، والجزائر، وتونس، ومركز جمعة الماجد في دولة الإمارات العربية المتحدة، ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض.

وقد تنوعت بحوث المشاركين في المؤتمر، وتناولت كل الجوانب المتعلقة بالمخطوطات من فهرسة وصيانة وحفظ ونشر وغيرها. ومن البحوث التي قدمت: «دليل فهرسة المخطوطات» (بالعربية والفرنسية)، و«فهرسة المخطوطات: الإشكالية والمنهجية»، و«بطاقة فهرسة المعهد الموريتاني للبحث العلمي»، و«صيانة المخطوطات»، و«الخط الموريتاني: نظرة في تاريخه»، و«الطرق والمباني الأساسية للمحافظة (المحيط ـ المباني والمخطوطات)»، و«توصيات فنية لإقامة مكتبة»، و«التقنيات الحديثة في معالجة المخطوطات والوثائق وترميمها وحفظها»، و«تكوين المتدخلين في مجال المخطوطات: إعداد القوى العاملة في مجال المخطوطات».

وختم المؤتمر أعماله بعدد من التوصيات منها:

ـ تكوين لجنة علمية مختصة، تجوب المدن والقرى الموريتانية للوقوف على حال ما بها من مخطوطات، وكتابة تقارير كاملة عنها، وأسماء مالكيها.

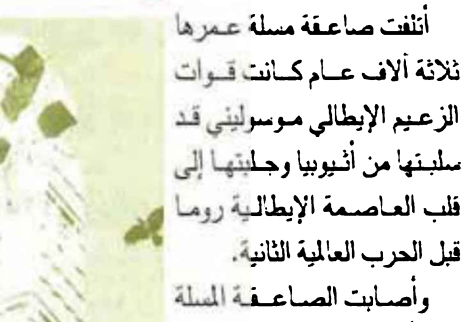
ـ التوصية بطباعة بضعة وثلاثين كتاباً موريتانياً مهماً لم تطبع من قبل.

ـ تدريب مجموعة من الموظفين على فهرسة المخطوطات، وحفظها، وترميمها، وقد اقترحت عدة أماكن لتدريبهم، وكان مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الأسلامية في طليعتها.

ـ اعتماد بطاقة فهرسة نموذجية لفهرسة المخطوطات الموريتانية خاصة بها.

وفي كلمة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية دعا الأستاذ عبدالعزيز بن فيصل الراجحي إلى ضرورة تحقيق كتب تراجم شنقيط وطبعها ونشرها خاصة في المشرق، وأن يكلف من يراه المؤتمر مناسباً لكتابة تراجم من لم يُترجم لهم، لأن كثيراً من أعلام شنقيط وعلمائها عمت شهرتهم آفاق شنقيط، بل جاوزتها إلى المغرب كافة، ولا يعرف لهم المشارقة ترجمة.

## رحيل إبراهيم العريّض



إبراهيم العريض

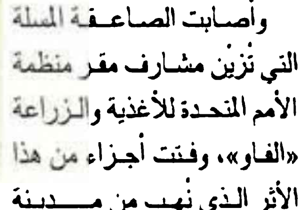
توفي في المنامة في الشهر الماضي الشاعر البحريني إبراهيم العريّض عن عمر يناهز ٩٤ عاماً. ويعد العريّض من أبرز شعراء البحرين، وظل اسمه مقروناً بحركة الشعر في البحرين والجزيرة عموماً، وكان يكتب بالعربية والأوردية والفارسية والإنجليزية. ولد العريّض في مدينة بومباي الهندية في عام ١٩٠٨م من أبوين عربيين، فأبوه تاجر اللؤلؤ الذي يرتبط اسمه بالتجارة في الهند، وأمه سيدة عربية عراقية من كربلاء ماتت وهو لم يكمل شهره الثاني، وبقي في الهند حتى بلغ الرابعة عشرة من عمره، وجاء إلى البحرين للمرة الأولى في عام ١٩٢٢م.

بدأ العريّض حياته العملية مدرساً للغة الإنجليزية في المنامة عام ١٩٢٧م، وتنقل في عدد من الوظائف في دوائر الجمارك، وإذاعة البحرين وإذاعة دلهي، وانتخب بعد عام واحد من الاستقلال عام ١٩٧٢م رئيساً للمجلس التأسيسي الذي وضع أول دستور للبحرين. ثم عُيّن سفيراً متجولاً، ثم سفيراً مفوضاً فوق العادة في وزارة الخارجية.

ترك العريّض عدداً من الآثار الأدبية المطبوعة والمخطوطة، وكان أول دواوينه الشعرية قد صدر عام ١٩٣١م بعنوان «الذكرى»، وطبع حينذاك في بغداد، ثم توالت إصداراته، فمنها: «العرائس» ١٩٤٦م، و«قبلتان» ١٩٤٨م، و«أرض الشهداء» ١٩٥١م، و«شموع» ١٩٥٦م، و«رباعيات الخيام»١٩٦٦م، وقد عدت ترجمته أفضل ترجمة للرباعيات بعد ترجمة أحمد الصافي النجفي، و«في هيكل الحب» وهو ديوانه الثاني بعد «الذكرى»، وديوان «كلباري (بالأوردو) ١٩٣١م، وSonnets (بالإنجليزية) ١٩٩٥م، و«وامعتصماه» مسرحية شعرية ١٩٣٢م، بالإضافة إلى عدد من المقالات والدراسات النقدية، منها: «الأساليب الشعرية» ١٩٥٠م، و«شعراء معاصرون» وهي دراسة تضم نحو عشرين دراسة حول عشرين شاعراً ١٩٥٠م، و«الشعر والفنون الجميلة» ١٩٥٢م، و«الشعر وقضيته في الأدب العربي الحديث» ١٩٥٥م، و«جولة في الشعر العربي المعاصر» ١٩٦٢م، و«فن المتنبي بعد ألف عام» ١٩٦٣م، و«الدراسات الفنية عند مترجمي الخيام» ١٩٩٨م، و«دراسات في الأدب والنقد».

نال العريّض عدداً من الجوائز والأوسمة والميداليات، وكانت البحرين قد كرمته قبل شهور عندما منحه ملك البحرين الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة وسام الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة من الدرجة الأولى، وأصدر أمراً في شهر فبراير/شباط الماضي بإطلاق اسمه على أحد الشوارع الرئيسة في العاصمة المنامة.

## الصاعقة والمسلة



المسلة

أتلفت صاعقة مسلة عمرها ثلاثة آلاف عام كانت قوات الزعيم الإيطالي موسوليني قد سلبتها من أثيوبيا وجلبتها إلى قلب العاصمة الإيطالية روما قبل الحرب العالمية الثانية.

وأصابت الصاعقة المسلة التي تزيّن مشارف مقر منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة «الفاو»، وفتت أجزاء من هذا الأثر الذي نُهب من مدينة أكسوم الحبشية عام ١٩٣٧م بعد أن ضمت إيطاليا أثيوبيا، وتناثرت نحو أربعين قطعة حجارة، من بينها كتل كبيرة، في الطريق من دون أن تصيب أحداً، وقد توقفت حركة المرور جزئياً خوفاً من عدم ثبات هذا النصب الذي يبلغ ارتفاعه ٢٤ متراً ويزن ٢٠٠ طن.

ويثور نزاع بين أثيوبيا وإيطاليا بشأن هذه المسلة المصنوعة من الجرانيت الأحمر على الطراز اليمني، والتي ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد. وتماطل إيطاليا في إعادة المسلة منذ عام ١٩٤٥م.

وفي العام الماضي قال مسؤول في وزارة الخارجية الإيطالية: إن هناك خطوات لإعادة المسلة إلى أكسوم، إلا أن وكيلاً لوزير الثقافة قال: إن أثيوبيا لا يمكنها ضمان حماية هذا الأثر، وخرجت أثيوبيا في الحال من حرب حدودية مع إرتيريا، وتقع أكسوم في أقصى شمال أثيوبيا بالقرب من الحدود الإرتيرية .

## نشرة جمعية المكتبات والمعلومات السعودية


غلاف النشرة

صدر في شهر أبريل/ نيسان الماضي العدد الأول من نشرة جمعية المكتبات والمعلومات السعودية، وهي نشرة ربع سنوية تصدر عن جمعية المكتبات والمعلومات السعودية، ويرغب القائمون على أمر هذه النشرة أن تكون وسيلة للتواصل بين المهنيين والباحثين المعنيين بأنشطة المكتبات والمعلومات، ومشتملة على كل الموضوعات والفعاليات المهنية والبحثية التي تدخل ضمن أنشطة المكتبات والمعلومات.

وتمثل هذه النشرة التي جاء صدورها مواكباً لافتتاح الندوة العلمية الثانية للجمعية بالتعاون مع مكتبة الملك عبدالعزيز تحت عنوان «المكتبة الإلكترونية: الواقع وتطلعات المستقبل» في ١٠ صفر ١٤٢٣هـ (الموافق ٢٣ أبريل/نيسان ٢٠٠٢م) في مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ملتقى لجميع المكتبيين لطرح أفكارهم وآرائهم ومناقشتها، كما يتيح لهم التعرف إلى الجديد في مجال المكتبات والمعلومات.

وقد أبرزت النشرة على صفحاتها خبر الاجتماع الخامس عشر الذي عقده مجلس إدارة الجمعية بحضور صاحب السمو الملكي الأمير عبدالعزيز بن سطام بن عبدالعزيز آل سعود العضو الفخري للجمعية، ومناقشة المجتمعين بعض المقترحات والرؤى المستقبلية التي طرحها سموه لتفعيل أنشطة الجمعية، كما قدمت نبذة من إنشاء جمعية المكتبات السعودية، بالإضافة إلى موضوعات أخرى منها: «مكتبي الإنترنت» للدكتور صالح المسند، و«لماذا جمعية المكتبات والمعلومات السعودية؟» للدكتورة نجاح القبلان، و«هل توجد إدارة نسائية في المكتبات السعودية؟» للدكتورة هند العروان، و«الجمعية والدور المطلوب» للدكتور محمد اللهيبي، و«التطلع إلى غد مشرق» للدكتورة فاتن بامفلح، وغير ذلك من الموضوعات التي ترتبط بالمكتبات والمعلومات.

وترحب نشرة الجمعية بإسهامات المكتبيين والباحثين وأفكارهم في كل مكان للمشاركة بأعمالهم من أجل إنجاح هذه النشرة وتواصلها.

العنوان:

ص.ب : ٧٥٧٢ الرياض ١١٤٩٥

هاتف: ٤٦١٠٦٨٠ ـ ناسوخ: ٤٦٢٤٨٨٨، تحويلة: ٦٠٣

## جائزة البابطين


عبد العزيز البابطين

اعتمد مجلس أمناء مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري في اجتماعه الثالث والعشرين منح الشاعر البحريني الراحل إبراهيم العريض الجائزة التكريمية للإبداع في مجال الشعر، وهي تمنح لواحد من الشعراء العرب الذين أسهموا بإبداعهم في إثراء الشعر العربي من خلال عطاء شعري مميز. وقال رئيس مجلس أمناء المؤسسة عبدالعزيز البابطين: إن الشاعر الراحل قد تم إبلاغه بهذا الاختيار قبل وفاته بخمسة أيام، فأعرب الشاعر العريض في رسالة بعث بها إلى المؤسسة قبوله بالجائزة واعتزازه بما تقدمه المؤسسة للشعر العربي من تكريم ودراسات واهتمام بهذا المجال.

وأعلن البابطين أن مجلس الأمناء اعتمد نتائج أعمال لجان التحكيم أيضاً، وقرر بالإجماع منح جائزة أفضل ديوان للدكتور عبدالله حمادي من الجزائر عن ديوانه «البرزخ والسكين»، وتبلغ قيمة الجائزة ٢٠ ألف دولار مع شهادة تقديرية وميدالية، وجائزة أفضل قصيدة منحت للشاعر أحمد بخيت من مصر عن قصيدته «وداعاً أيتها الصحراء»، وبلغت الجائزة عشرة آلاف دولار مع شهادة تقدير وميدالية، وجائزة الإبداع في مجال نقد الشعر للدكتور عبدالواحد لؤلؤة من العراق.

ونجري الاستعدادات لقيام الدورة الحالية الثامنة في البحرين في شهر أكتوبر/تشرين الأول القادم برعاية ملك مملكة البحرين الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة بالتعاون مع وزارة الإعلام البحرينية وهي باسم «علي بن المقرب

العيوني»، وستحتفي الدورة بشاعر الانتفاضة إبراهيم طوقان فضلاً عن الندوات والأبحاث المقدمة، إذ ستستضيف على مدى ثلاثة أيام أكثر من ٣٠٠ شاعر ومبدع عربي.

وتقرر أن تعقد الدورة التاسعة - وهي عن ابن زيدون - في مدينة غرناطة الإسبانية عام ٢٠٠٤م لتكون أول دورة للمؤسسة تقام خارج أقطار الوطن العربي، وذلك بهدف تشجيع التواصل والانفتاح على الخارج، ودخول رحاب العالمية من باب تراثي له أوشج الصلات التاريخية والأدبية مع الأمة العربية.

ويذكر أن مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري تم إشهارها عام ١٩٨٩م في القاهرة لتعنى بصورة أساسية بإثراء حركة الشعر العربي ونقده، وتشجيع التواصل بين الشعراء والمهتمين بالشعر من أجل الارتقاء به إلى المستوى الذي يتمناه الغيورون على التراث العربي الأصيل.

## احتراق متحف

تعرض متحف رجل الأعمال السعودي عبدالرؤوف خليل في جدة في الشهر الماضي لحريق هائل قضى على معظم مقتنياته الأثرية النادرة التي قُدر عددها بنحو ستين ألف قطعة تعود إلى مختلف العصور والحضارات، بعضها نادر لا يوجد له شبيه في أي متحف في العالم. فهناك قطع أثرية من العهد الآشوري والكلداني والبابلي والإغريقي والروماني والصيني والفرعوني والبيزنطي والسومري والعربي القديم، إضافة إلى قطع أثرية من فنون جنوب الجزيرة العربية ومئات القطع من الفنون الإسلامية من جميع مراحل التاريخ الإسلامي، وأعمال فنية كلاسيكية أصلية من فنون عصر النهضة الأوربية.

وقد تم إنشاء هذا المتحف قبل خمسة عشر عاماً إذ تم افتتاحه عام ١٩٨٦م، وتبلغ مساحته نحو ٥ آلاف متر مربع، ويتكون من أربعة أجزاء منفصلة بعضها عن بعض، وهي: بيت التراث العربي السعودي، وبيت التراث الإسلامي، وبيت التراث العالمي، ومعرض التراث العام.

وقد نال هذا المتحف سمعة طيبة، وزاره عدد من الشخصيات ورؤساء الدول، منهم الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا الذي قدم عرضاً لشراء بعض محتويات المتحف.





المتحف قبل الحريق وبعده

وهذا المتحف هو الثالث من مجموعة متاحف عبدالرؤوف خليل، ومازال لديه متحفان آخران أطلق على أحدهما اسم متحف التراث والتحف المنزلية، وعلى الآخر مدينة الطيبات، ويضم كل من هذين المتحفين آثاراً قيمة ونادرة.

## تكريم عبدالرحمن بدوي

أقامت لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة المصري احتفالية علمية لتكريم المفكر المصري الدكتور عبدالرحمن بدوي، وذلك بحضور محمود أمين العالم مقرر اللجنة، ومشاركة عدد من أساتذة الفلسفة بجامعة القاهرة، منهم الدكاترة: محمود رجب، وحسن حنفي، ومسعيد توفيق. تحدث في الاحتفالية الدكتور حسن حنفي متناولاً الجانب الإسلامي في فكر الدكتور بدوي، وعدد جهوده الكبيرة في هذا المجال والتي أثمرت ١٦٠ كتاباً، وأكد الدكتور حنفي في كلمته: «إن الاحتفال بفيلسوف أو تكريمه لا يكون بكيل المديح، وإنما بقراءته قراءة نقدية، وإلقاء الضوء على جوانب التميز في فكره والإنجازات التي حققها»، ووصف الدكتور حنفي

الدكتور بدوي بالفيلسوف الشامل.


عبدالرحمن بدوي

تحدث في الندوة كذلك الدكتور سعيد توفيق الذي انتقد مذهب الدكتور بدوي واتجاهه وأعماله، وذلك من خلال عرضه لأفكار الدكتور بدوي التي وردت في رسالتيه للماجستير والدكتوراه حول مشكلة الموت في الفلسفة المعاصرة والزمان الوجودي، وقال: إن ثلاثة أرباع الرسالة التي قال: إنها تشكل مذهبه تناولت مشكلة الموت عند هايدجر، وكذلك الحال في رسالة الدكتوراه، وقال الدكتور سعيد: «إن بدوي امتلك قدرة كبيرة على القراءة والكتابة الموسوعية حتى وإن كان كثير منها منقولاً، وربما نحن الآن في حاجة إلى مثل عبدالرحمن بدوي، وفي هذه الحالة سنتجاوز عما نسميه المنقول؛ لأننا في حاجة إليه أكثر من ذي قبل، لأن هناك تراجعاً ملحوظاً في الثقافة المصرية عما كانت عليه في عهد بدوي»، وعلق الدكتور رجب على ذلك بقوله: إن آلة الفلسفة لها فائدتها، وهي في حقيقتها السلم الذي كان العرب القدماء يطلقونه على منطق أرسطو الذي كان منهجاً وآلة للتفكير.

وذكر الدكتور محمود أمين العالم في مداخلته: أن تمرده هو ثمرة تلمذته على فكر بدوي، وأن الوجودية أصبحت بفضل راعيها الأكبر في مصر - عبدالرحمن بدوي - تياراً فكرياً مستمداً من تاريخنا الروحي العربي - غير الأصولية الأوربية. وأشار العالم إلى أن النقد ليس مجرد النقاط بعض النقاط من هنا وهناك.

## الجامعة العربية و(الويبو)

أعلن المستشار هشام يوسف المتحدث الرسمي باسم الأمين العام لجامعة الدول العربية أن هناك مشاورات تجري بين الأمانة العامة للجامعة العربية والمنظمة العالمية للملكية الفكرية (الويبو) لإعداد برامج تعاون مشتركة فيما يتعلق بالتوعية بقواعد الملكية الفكرية في العالم العربي، ويأتي هذا التعاون في إطار اهتمام الجامعة العربية بالمسائل المتعلقة بالملكية الفكرية والالتزام بالنهوض بثقافة إبداعية على أساس من الاحترام لهذه الحقوق.

وأعلن المتحدث الرسمي أن السيد عمرو موسى الأمين العام لجامعة الدول العربية كان قد ناقش خطة عمل مشتركة بين الجامعة ومنظمة الملكية الفكرية مع مدير المنظمة الدكتور كامل إدريس خلال الزيارة التي قام بها مؤخراً إلى مقر المنظمة في جنيف.

وتشمل خطة العمل المشتركة عقد اجتماع لعمداء الكليات العربية المعنية بمشاركة من جانب مختصين في الملكية الفكرية لبحث كيفية تطوير كفاءة تدريس المسائل المتعلقة بالملكية الفكرية في الكليات المعنية بمختلف الجامعات العربية وتحديثها ورفعها، كما أن العمل على التوعية بقواعد الملكية الفكرية لن يكون مقتصراً على المرحلة الجامعية، وإنما سيمتد ليشمل مختلف المراحل التعليمية.

## كينزابورو اوي ينتقد سياسة أمريكا وبريطانيا


كينزابورو اوي

أعلن الروائي الياباني كينزابورو اوي الحائز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٩٤م في أثناء تسلمه جائزة وسام جوقة الشرف الفرنسية في طوكيو مؤخراً، أن روايته الأخيرة ستكون آخر عمل يكتبه في حياته على الأرجح، وقال الروائي الياباني: إن قبول هذا الوسام من الرئيس شيراك لم يتم بسهولة و«إذا كنت أقبل اليوم هذا الوسام من الرئيس الذي بدأ ولاية جديدة، فلأنني أتوق إلى رؤية فرنسا تؤدي دوراً مختلفاً، وتختار نهجاً مختلفاً عن نهج بوش - بلير، في إزالة الأسلحة النووية».

وانتقد أوي في حواره العام مع شخصيات مثل نعوم تشومسكي أو إدوارد سعيد الاتجاه الذي أعطاه الرئيس الأمريكي جورج بوش ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير للعلاقات الدولية منذ اعتداءات ١١ سبتمبر/أيلول الماضي في الولايات المتحدة الأمريكية، وقال: «إذا كان نشاطي الأدبي وتعبيري الاجتماعي أساس فكري وأخلاقي فإنه يكمن في معارضتي لوضع الأسلحة النووية في العالم... هذا ما ألزمني منذ ٧ سنوات بمعارضة استئناف التجارب النووية الذي دعا إليه الرئيس جاك شيراك».

وبعدّ هذا الروائي الياباني الذي تأثر بالأدب والثقافة الفرنسيين واحداً من ملايين اليابانيين الذين جرحهم قرار الرئيس الفرنسي عام ١٩٩٥م باستئناف التجارب النووية في جزر مورورروا جنوب المحيط الهادي.

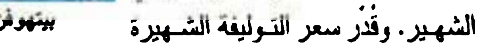
وكانت حياة أوي قد تأثرت كثيراً بالقنبلتين النوويتين اللتين ألقيتا على اليابان عام ١٩٤٥م، وهو يعدّ من أهم الروائيين المعاصرين في اليابان، وله عدد من المؤلفات منها: رواية «مسألة شخصية» الصادرة عن دار الآداب، و«علمنا أن نتجاوز جنوننا»، وهو مجلد يحتوي على أربع روايات صغيرة، وهو أيضاً مترجم إلى العربية وصادر عن الدار نفسها.

## سمفونية بيتهوفن التاسعة



بيتهوفن

أفادت دار المزادات العلنية «سوذبيز» أن التوليفة الأصلية لسيمفونية بيتهوفن التاسعة بيعت مؤخراً بمبلغ ٣ر١ مليون جنيه إسترليني «نحو مليوني يورو» محطمة بذلك كل الأرقام القياسية لأحد أعمال هذا المؤلف الموسيقي الشهير. وقدّر سعر التوليفة الشهيرة التي وضعها لودفيغ فان بيتهوفن (١٧٧٠ - ١٨٢٧م) في الأساس بما بين ١٥٠ و ٢٠٠ ألف جنيه إسترليني «٢٤٠ إلى ٣٢٠ ألف يورو» على ما أفاد ناطق باسم دار المزادات. وهذه النسخة الأولية لهذه السمفونية التي تعدّ أحد معالم الموسيقى الكلاسيكية نُظّمت قرابة عام ١٨١٨م، أي قبل ست سنوات من أدائها للمرة الأولى علناً عام ١٨٢٤م. وأوضح الناطق أن التوليفة عرضتها للبيع مؤسسة لم يكشف عن اسمها تعنى بتعليم الموسيقى في كل أنحاء العالم. ولم يكشف أيضاً عن اسم الشاري.



## مومياء جديدة في الواحات البحرية

كشفت البعثة الأثرية المصرية بالواحات البحرية غرب وادي النيل في مصر عن مومياء لأحد أفراد الأسرة السادسة والعشرين التي يرجع تاريخها إلى نحو ٢٥٠٠ عام.

وقال فاروق حسني وزير الثقافة: إن «التابوت الذي وضعت فيه المومياء لم يفتح من قبل وقد عثر عليه بمقبرة على عمق اثني عشر متراً أسفل منطقة سكنية بمدينة البويطي بالواحات».

وقال زاهي حواس رئيس البعثة والأمين العام للمجلس الأعلى للآثار: إن التابوت المصنوع من الحجر الجيري عثر عليه مغلق الإحكام بمادة الجبس، وأضاف: «أن رحلة التابوت بدأت بقطعة من محاجر «طرة» تم نقله عبر النيل.. وصولاً إلى الواحات براً بواسطة الزحافات»، ثم أن الفحص بالأشعة الذي خضعت له المومياء الملفوفة بقماش الكتان كعادة التحنيط في العصر الصاوي للأسرة السادسة والعشرين يكشف عن وجود عدة تمائم تسمح بدراسة تفاصيل الديانة المصرية خلال ذلك العهد. ويرجح حواس أن هذه المقبرة «تعود إلى أحد أفراد أسرة حاكم الواحات البحرية بادي إيزيس الذي أعطت مقبرته المكتشفة في العام الماضي اسماً جديداً للواحات البحرية هو «الواحات الراسخة» إضافة إلى اسمها المعروف قديما وهو الواحات الشمالية».

وقد كشفت البعثة في المنطقة ذاتها عن مقبرتي زوجة هذا الحاكم ووالده ومن المنتظر العثور على مقبرة أخيه ضمن ستة عشر فرداً من العائلة التي حكمت الواحات في عهد الأسرة السادسة والعشرين (من ٦٧٢ قبل الميلاد حتى ٥٢٥ قبل الميلاد) في عهد الملك واح إيب رع وأحمس الثاني.

## وفاة كميل كابانا

توفي الوزير الفرنسي السابق ورئيس معهد العالم العربي في باريس كميل كابانا عن عمر يناهز ٧١ عاما. وكان كابانا، وهو من مواليد ١١ سبتمبر/ايلول عام ١٩٣٠م، قد تولى رئاسة معهد العالم العربي عام ١٩٩٥م بعد أن تولى عدة مناصب وزارية. وكان أيضاً عضوا ديغوليا جديداً في مجلس الشيوخ ومساعداً لرئيس بلدية باريس والسكرتير العام لمدينة باريس مع جاك شيراك.

من جهة أخرى، توفي مدير صحيفة «لوموند» الفرنسية من عام ١٩٦٩م إلى عام ١٩٨٢م، جاك فوفيه في مستشفى باريسي عن عمر يناهز ٨٧ عاما، وكان فوفيه قد قصر حياته بأكملها في مجال الإعلام.

## آثار عراقية

أبرم العراق وبريطانيا اتفاقا يقضي برصد الآثار العراقية المسروقة داخل الأراضي البريطانية وإعادتها، ويتضمن الاتفاق استعادة العراق ما يزيد على ٢٢٤ قطعة أثرية تم العثور عليها في أسواق بيع التحف في بريطانيا من قبل السلطات البريطانية، ولا تعرف الكيفية التي تم بها إبرام هذا الاتفاق بين البلدين اللذين لا يقيمان علاقات دبلوماسية منذ حرب الخليج في عام ١٩٩٠م.

وكانت البعثة الأثرية الألمانية التي تنقب آثار مدينة الوركاء «الاسم الحديث لموقع أوروك القديم» اكتشفت مدينة أثرية متكاملة بدورها وشوارعها وأسوارها وقنواتها، ونشبه المدينة المكتشفة إلى حد كبير الملحمة الأسطورية «جلجامش» في كونها تقسم ثلاثة أقسام، يمثل الأول المنازل وطبيعة بنائها، ويمثل الثاني المعبد والحدائق وطريقة تنسيقها، ويضم الثالث مراكز لجيش المدينة وتدريباته العسكرية.

يذكر أن الهيئة العامة للآثار والتراث العراقية كانت قد تسلمت في شهر مايو/أيار الماضي من بريطانيا، عن طريق وزارة الخارجية، قطعتين أثريتين سرقتا قبل عشر سنوات، وكانت «الفيصل» قد أشارت إلى ذلك في عددها الماضي.

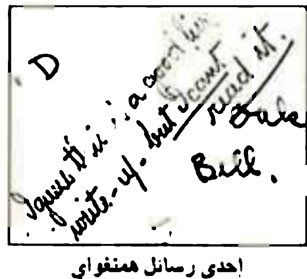
وتتهم بغداد جنودا أمريكيين بعد حرب الخليج بسرقة آثار من موقع أور الذي تعود آثاره إلى العهد السومري (٢٥٠٠ ق.م)، كما تتهم شبكات خارجية بتمويل هذه السرقات، وتمتد قائمة الاتهامات العراقية لتشمل دبلوماسيين وموظفين في الأمم المتحدة.

## رسائل همنغواي

على الرغم من كثرة ما نشر من دراسات عن الكاتب الأمريكي إرنست همنغواي إلا أنه مازالت هناك مئات الألوف من كلماته التي لم تنشر بعد أو تدرس من قبل، وتعكف اليوم مجموعة من الباحثين على دراسة كنز أدبي كبير وطبعه يضم آلافا من خطابات همنغواي منها ما لم يرسله أبدا على الرغم من أنها ليست المرة الأولى التي تجري فيها دراسات حول مراسلات همنغواي التي وصفها هو من قبل بأنها فاضحة ولا تحفظ سرا.

فقبل عقدين من الزمان نشر كاتب السير الذاتية كارلوس بيكر كتابا يضم نحو ٦٠٠ خطاب له، إلا أن هذا الرقم لا يمثل عشر ما كتبه همنغواي من خطابات. يقول جوزيف ديفالون - أستاذ الإنجليزية المتقاعد بجامعة ماركيوت - إن بعض النقاد الذين كتبوا سيرا ذاتية عن همنغواي حاولوا دائما البحث عن شخصية الرجل في رواياته، على الرغم من أن الخطابات تستطيع أن تقدم لنا ما هو أكثر مما قدمته الروايات. وتشرف على المشروع ساندرا سبانير الأستاذة بجامعة بن ستيت بالتعاون مع مؤسسة إرنست همنغواي وعائلته. ويقدر الباحثون عدد الخطابات الموجودة في المكتبات وبحوزة الهواة في العالم نحو ١٠ آلاف خطاب. وتقول سبانير: إنه لا أحد يعرف شيئا عن تلك المراسلات الموجودة بحوزة الأفراد والمجموعات الصغيرة وإن جزءا من مهمة المشروع هو البحث عن هذه الخطابات.






إحدى رسائل همنغواي

وسترأس سبانير فريقا دوليا من الباحثين ستكون مهمته الأولى تجميع الخطابات وقراءتها تمهيدا لنشرها. ومن المتوقع أن يستغرق المشروع عدة سنوات وستصدر الخطابات في نحو ١٢ مجلدا.

ويعلق جيمس بلاث - أستاذ اللغة الإنجليزية بجامعة إلينوي الكاتب المتعاون مع رابطة «تذكروا إرنست همنغواي»، على قيام زميلته سبانير بهذه المهمة بقوله: إنني أحسدها على الكنز الذي تبحث عنه، والذي يبدو لي بمنزلة منجم فحم، إنها تنقب في الظلام الدامس لكن هناك عددا من الكنوز التي تستطيع العثور عليها.

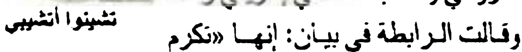
ويعتقد بلاث أن هذه المراسلات قد تكون غير مفيدة لدارسي الأدب الذين يحاولون المطابقة بين الحياة الواقعية لهمنغواي وشخصياته الروائية ومواقفه الإبداعية، ولكنها

مفيدة في سياق آخر؛ فهي وسيلة لإعادة إحياء العلاقات مع همنغواي، خاصة أن عدد من عاصروه وما زالوا على قيد الحياة أصبح محدوداً. وميزة الخطابات أنها تشبه بصمة الإصبع التي لا تتغير وتعكس الحالات المختلفة للأديب ونزعاته، بالإضافة إلى أنها ترسم صورة للعلاقة بين العمل الإبداعي والحياة الخاصة. وسيكون هذا المشروع - كما يقول بلاث - مفيداً جداً أيضاً للذين سيفكرون في كتابة سير ذاتية في المستقبل، وسيجد الباحثون كل ما يلزمهم بدءاً من مرض همنغواي الذهني الذي أدى به إلى الانتحار عام ١٩٦١م حتى مراسلاته الرقيقة مع أطفاله وزوجته.

وتذكر سباينر المشرفة على المشروع أن هناك عدداً من الرسائل التي كتبها همنغواي في لحظات الغضب واحتفظ بها حتى يأتي الوقت المناسب، فخطابه الذي أرسله للسناتور جوزيف مكارتني، الذي يدعوه فيه للمجيء إلى كوبا للقتال يوضح كم كان همنغواي متأثرا بالحالة الشعبية العامة.

وهناك مراسلات أخرى تتناقض تماماً مع صفة العنجهية التي ارتبطت كثيرا بهمنغواي، فبعضها - كما تقول سباينر، رقيق وودود جداً ويوضح مدى دعم همنغواي للمرأة وتأييدها في حياته، وهو ما يتعارض مع الصورة المعروفة عنه كرجل مغال في إحساسه بذكورته. وتضيف سباينر موضحة «أن عددا كبيراً من الناس أحبوا همنغواي وجعلوه بطلاً لهم. وهناك أيضا عدد كبير كرهوه، وكانوا يرون أنه حتى لا يستحق القراءة، واستنكروا الارتباط به. لكن المفاجأة أن الجميع سيكتشفون كم كان همنغواي متناقضا أكثر مما عرف عنه».

## نيجيري يفوز بجائزة السلام



تشينوا أتشيبي

فاز الروائي النيجيري تشينوا أتشيبي صاحب روايتي «مضى عهد الراحة» و«الأشياء تتداعى» بجائزة السلام التي تمنحها رابطة ناشري وبائعي الكتب الألمان تقديراً لدوره كروائي وكاتب أخلاقي إفريقي رائد. وقالت الرابطة في بيان: إنها «تكرم تشينوا أتشيبي بحسبه أحد أقوى الأصوات في إفريقية في أدب القرن العشرين همّه الوحيد هو إشاعة السلام في منطقة يعصف بها نزاع ثقافي دائم».

وسيتسلم أتشايبي، البالغ من العمر ٧١ عاماً، الجائزة وقيمتها ١٥ ألف يورو في معرض فرانكفورت السنوي للكتاب في أكتوبر/تشرين الأول المقبل، ويعيش أتشايبي في الولايات المتحدة الأمريكية، ويعتمد على كرسي متحرك منذ تعرضه لحادث سير عام ١٩٩٠م.

## ندوة الجاليات الإسلامية في الغرب



جانب من إحدى الندوات

نظمت كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية في بيروت سلسلة من المحاضرات والندوات حول «الجاليات الإسلامية في أوربا الغربية - مشكلات التأقلم والاندماج»،

ففي محاضرة بعنوان «الجالية الإسلامية في الغرب ومسؤولياتها في المجتمع الغربي» تعرض الدكتور محمد توفيق رمضان الأستاذ بكلية الشريعة، في جامعة دمشق للأوضاع الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية للإنسان في المجتمعات الغربية. ثم تطرق إلى حال الإنسان العربي المهاجر في المجتمعات التي يفد إليها، وأشار إلى أن المسلم ليس نسخة مكررة عن البيئة التي كان يعيش فيها، بل يجب أن يكون صورة عن الإسلام الذي أمره الله أن يلتزمه. وأكد أن على المسلم أن يقدم نفسه إلى المجتمعات التي يعيش فيها من خلال هويته الإسلامية بصورة صحيحة وصادقة.

وخلص د. رمضان إلى أن أول مسؤول عن تشويه صورة الإسلام والمسلمين في نظر الآخرين هم المسلمون أنفسهم، عندما تتناقض أقوالهم مع أفعالهم، ويحملون اسم الإسلام ولكنهم في تصرفاتهم وأخلاقهم على نقيض ذلك.

وألقت الدكتورة سهى ناجي الفاروقي من معهد الدراسات الإسماعيلية بجامعة دورهايم في لندن محاضرة بعنوان «المجتمعات الإسلامية البريطانية ـ لمحة عن حياتهم وأصولهم وبعض اهتماماتهم الحالية»، عرضت فيها للوجود الإسلامي في بريطانيا التي يشكل المسلمون ٥٪ من تعداد سكانها، وتقارب أعدادهم مليوني نسمة، ويتكلمون قرابة مئة لغة، ولهم جذور في ٥٦ بلداً تقريباً.

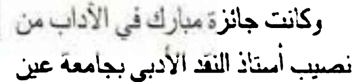
كما ألقى الدكتور تيم نيبلوك من جامعة إكسترا في إنجلترا محاضرة بعنوان «المسلمون في بريطانيا: الشخصية المجتمعية والدولة البريطانية»، استهلها ببداية تاريخية عن علاقة بريطانيا مع العالم الإسلامي قسمها ثلاث حقب.

الحقبة الأولى: من بداية القرن السادس عشر حتى أوائل القرن الثامن عشر، وكانت مرحلة القوة الملاحية عند المسلمين الذين استطاعوا المس مباشرة بالملاحة الإنجليزية، ووصلوا حتى شواطئ بريطانيا.

والحقبة الثانية: بدأت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر مع التوسع الاستعماري البريطاني.

الحقبة الثالثة: وهي الحاضرة التي انتهت فيها السيطرة الاستعمارية بينما صارت العلاقة مع المسلمين مسألة مركزية للمجتمع الإنجليزي، وصار الأمر موضع إعادة دراسة للعلاقات بين الجميع بعد أحداث ١١أيلول / سبتمبر بصورة خاصة.

## جوائز الدولة التقديرية في مصر


عبدالقادر القط

أعلنت في مصر مؤخراً أسماء الفائزين بجوائز الدولة التشجيعية والتقديرية في الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، والعلوم الاقتصادية والقانونية، وجوائز مبارك، وجوائز التفوق في هذه الأفرع الأربعة للعام الحالي ٢٠٠٢م.

وكانت جائزة مبارك في الآداب من نصيب أستاذ النقد الأدبي بجامعة عين شمس الدكتور عبدالقادر القط الذي تفوق على الناقد اللغوي الدكتور شوقي ضيف، ولم يعرف القط خبر فوزه بهذه الجائزة، لأنه كان في غيبوبة حين إعلان النبأ، وتعد جائزة مبارك في الآداب أكبر جائزة في مصر، وتبلغ قيمتها ١٠٠ ألف جنيه. وحصل على الجائزة في الفنون الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة الأسبق متفوقاً على الفنان عادل إمام الذي كان مرشحاً لهذه الجائزة، وفاز بجائزة العلوم الاجتماعية الدكتور عاطف صدقي رئيس الوزراء المصري الأسبق.

كما تم إعلان جوائز الدولة التقديرية التي تبلغ قيمة الجائزة فيها ٥٠ ألف جنيه، إذ فاز بها في الآداب كل من الناقد محمد عناني، والشاعر فاروق جويدة، والروائي علاء الدين الديب، وفاز بجائزة الفنون كل من الدكتور مصطفى عبدالمعطي، والنحات أحمد عبدالوهاب، وتم حجب الجائزة الثالثة.

وفي العلوم الاجتماعية فاز الدكتور حسنين ربيع أستاذ التاريخ نائب رئيس جامعة القاهرة، والدكتورة فوزية عبدالستار رئيسة اللجنة التشريعية السابقة بالبرلمان، وفاز بجائزة التفوق، وقيمتها عشرون ألف جنيه في الفنون، الكاتب أسامة أنور عكاشة، والناقد سمير فريد، وفي الآداب: الكاتب محمد جلال، وحجبت الجائزة الثانية، وفي العلوم الاجتماعية الدكتور عبدالباسط عبدالمعطي، والدكتور عبدالهادي الجوهري، والدكتورة ليلى كرم الدين.

وفاز بجوائز الدولة التشجيعية في الآداب، وقيمتها عشرة آلاف جنيه، الكاتبان: مي التلمساني، ومنتصر القفاش، وفي الغناء الأوبرالي إيمان مصطفى عبدالدايم، وفي الطبعة الفنية الدكتور أحمد رجب منصور، وفي الخدع السينمائية هاني حليم أحمد، وفي الإخراج المسرحي أشرف زكي علي، وفي أدب الأطفال ناصر إبراهيم مصطفى العزبي، وفي شعر العامية الشاعر رجب الصاوي، وفي أدب التراجم الدكتور عبدالناصر هلال، وفي التراث النقدي الدكتور جميل عبدالمجيد، وفي علوم المكتبات الدكتور شريف كامل شاهين، وفي العلوم السياسية الدكتور أحمد وهدان، وفي فلسفة القانون الدكتور حسن عبدالحميد محمود.

## رحيل عبدالقادر القط

توفي في القاهرة في منتصف الشهر الماضي الدكتور عبدالقادر القط الناقد وأستاذ الأدب العربي عن عمر يناهز ٨٦ عاماً، وقد جاءت وفاته بعد أسبوع واحد من فوزه بجائزة مبارك في النقد الأدبي التي تعد أكبر جائزة أدبية في مصر،

وقد جاء الإعلان عن ذلك وهو في غيبوبة صراعه الأخير مع مرض السرطان.

ولد الأديب الراحل في بلقاس بمحافظة الدقهلية سنة ١٣٣٥هـ/١٩١٦م، ونال درجة الليسانس الممتازة من قسم اللغة العربية في كلية الآداب في جامعة القاهرة عام ١٩٣٨م، ثم نال درجة الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٥٠م، وعمل في التدريس في جامعة عين شمس منذ عدة سنوات، وشغل منصب رئيس قسم اللغة العربية بين عامي ١٩٦١م و١٩٧٢م، كما عمل عميداً لكلية الآداب.

وكان للدكتور عبدالقادر القط دور كبير في الحياة الثقافية في مصر من خلال دفعه عجلة الفعل الثقافي والإبداعي نحو آفاق أرحب وأعمق، ويذكر له في هذا الشأن قدرته على إشاعة جو الحوار الصحيح، وتشجيعه المواهب والتيارات الشعرية الجديدة على الرغم من اختلافه معها.

ويحسب له أنه كان يمثل همزة الوصل في العلاقة بين الكتّاب والشعراء والمؤسسة الثقافية الرسمية التي تبوأ عدداً من المناصب فيها، كان آخرها عضوية المجلس الأعلى للثقافة، ورئاسة لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة في مصر، كذلك كان الراحل عضواً في إدارة اتحاد الكتّاب في مصر، ولجان المجلس الأعلى للفنون والآداب، ثم لجان الترشيح لجوائز الدولة التقديرية في الأدب، ومجلس إدارة الجمعية الأدبية المصرية، ورأس تحرير عدة مجلات ثقافية وأدبية وهي: الشعر، والمسرح والسينما، والمجلة، وإبداع.

ونال الأديب الراحل عدداً من الجوائز منها: جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي بالاشتراك في عام ١٩٨٠م، وجائزة الدولة التقديرية في مصر عام ١٩٨٤م، وجائزة مبارك للآداب في عام ٢٠٠٢م.

ومن أشهر مؤلفاته: فن المسرحية، والاتجاه الوجداني في الشعر المعاصر، وحركات التجديد في العصر العباسي، و الأدب العربي المعاصر، وكلمة وصورة، وله عدد من الترجمات في أدب وليم سارويان ووليم شكسبير.

### عسيلان رئيساً لنادي المدينة المنورة الأدبي

عُيّن الدكتور عبدالله بن عبدالرحيم عسيلان عضو مجلس الشورى، أستاذ النقد الأدبي في جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية (سابقاً) رئيساً لنادي المدينة المنورة الأدبي خلفاً لرئيس النادي الراحل الشاعر محمد هاشم رشيد، وبهذا التعيين ينتهي تكليف الدكتور محمد العيد الخطراوي رئيساً للنادي بالوكالة، ويمارس مهام منصبه الجديد نائباً للرئيس.





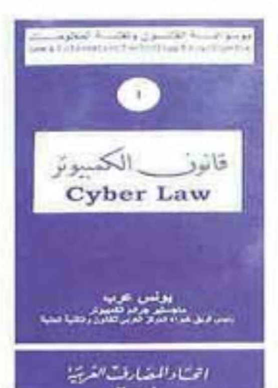
عبدالله عسيلان

وقال عسيلان: إن نادي المدينة المنورة سيواصل مسيرته التي بدأها وحافظ عليها المرحوم هاشم رشيد ، وقال عسيلان عن الخط الذي انتهجه سلفه في تفعيل الأدب النسائي بأروقة النادي المدني: إن المدينة تتوفر على عدد ليس بالقليل من ربات الثقافة والأدب، اللاتي أثبتن أن أدب المرأة له وجوده وله حضوره الذي يستحق كل عناية وتقدير.

ولد عسيلان بالمدينة المنورة في سنة ١٣٦٢هـ، وتخرج في كلية اللغة العربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ونال درجة الماجستير والدكتوراه في الأدب والنقد من جامعة الأزهر في مصر.

وشغل عددا من المناصب العلمية والأكاديمية، فعمل مدرساً في المعهد العلمي في المدينة المنورة سنة ١٣٩٠هـ، ومعيداً في كلية اللغة العربية في الرياض في سنة ١٣٩٣هـ، وأستاذاً في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة ١٣٩٨هـ، ثم عميداً لشؤون المكتبات في جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية سنة ١٤٠١هـ، وأستاذاً في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة ١٤٠٧هـ، كما عيّن عضواً في مجلس الشورى في ٣ربيع الأول سنة ١٤٢٢هـ.

ولعسيلان عدد من النشاطات الأكاديمية والأدبية إذ أشرف على أكثر من ٢٥ رسالة دكتوراه وماجستير، كما تقلد أمانة جائزة المدينة المنورة مدة عامين، وكان عضواً في هيئة تحرير دورية ملف (العقيق) الصادرة عن نادي المدينة المنورة الأدبي، وعضواً في هيئة تحرير دورية (الجذور) الصادرة عن النادي الأدبي في جدة، ورئيساً لتحرير دورية مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، وكان عضواً في عدد من المجالس العلمية والجمعيات العلمية والخيرية ، وله أكثر من ٢٠ كتاباً، وأكثر من ٨ بحوث ودراسات.



**عــرب، يونس/ قــانون الكمبيوتر.. الكويت: اتحاد المصــارف العــربيــة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ٥٠٣ص (موسوعة القانون وتقنية المعلومات؛ ١).**

التقنية.. المعلومات.. القانون، محاور ثلاثة بقدر تفاعلها ترتسم صورة العوالم الجديدة للتطور والنماء، وبقدر تلبية كل منها لاحتياجات المحور الآخر ونمائه وتحولاته يتحقق الوجود الحيوي لكل منها مستقلة، ووجودها الحيوي لها مجتمعة، ويتحقق للدولة والمجتمع القدرة على العيش والنماء في عصر تحكمه القيم التي أفرزتها هذه المحاور الثلاثة.

وفي هذا الكتاب نقف على محتوى تقنية المعلومات وعناصرها ومفهوماتها وإشكالاتها، فيعالج القسم الأول ثورة المعلومات ووسائل تقنية المعلومات، الحوسبة والاتصالات وشبكات المعلومات والوسائط المتعددة والإنترنت، ونطل على ملامح العالم الإلكتروني وإفرازاته، ليحقق هذا القسم مدخلاً للقسم التالي من الكتاب. ونقف فيه على أثر تقنية المعلومات في القانون وما أدت إليه من خلق فرع قانوني تنتمي إليه طائفة موضوعات متعددة (حماية البيانات، جرائم الكمبيوتر، الملكية الفكرية للمصنفات الرقمية، التجارة والبنوك الإلكترونية وغيرها) وما يجمعها أنها خلقت تحديات قانونية، واستوجبت قواعد جديدة بفعل اتصالها بتقنية المعلومات.

**عبدالمحسن، عبدالراضي محمد/ مشكلة التأليه في فكر الهند الديني.. الرياض: دار الفيصل الثقافية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ١٣٤ص.**

تعد الهند بخصوصيتها الحضارية والفكرية، وبما توافر لها من ديانات موغلة في القدم، ودرس فلسفي عريق، وفكر ديني غني بالمذاهب والآراء مجالاً خصبا للدراسات الموازنة التي قلت فيها الكتابات العربية أو كادت تندر.



وتأتي هذه الدراسة لتسد جانباً من حاجة المكتبة العربية لمثل هذا النوع من المؤلفات المتخصصة التي تتناول بالفحص النقدي قضية الألوهية في الفكر الديني الهندي عبر تاريخه القديم والمعاصر.

وإذا كانت طبيعة الموضوع الذي تعالجه الدراسة تمثل ضرورة دينية وفكرية، فإن التخصص العلمي الدقيق للمؤلف، ومنهجيته في المعالجة وجدة النتائج التي انتهى إليها، لتمثل بعدا إضافيا لقيمة الكتاب.

وتضمن هذا الكتاب ثلاثة مباحث رئيسة: تناول الأول مشكلة التأليه في الهندوسية في ثلاثة مطالب، مبينا في المطلب الأول: صعوبات البحث فيها، وفي المطلب الثاني: أسباب الاختلاف حول مذاهبها، وفي المطلب الثالث: النزعات الأربع التي سلكها نسق التأليه الهندوسي: التجريد، والتجسيد، وتعدد الآلهة، ووحدة الوجود.

وتصدى المبحث الثاني لإشكالية التأليه لدى المفكرين الأحرار، فعرض لتيار الإلحاد المنكر للألوهية، وبين موقف بوذا وماهافيرا من الألوهية ونسقهما الخاص في التأليه، أما الثالث فكشف النقاب عن حقيقة التأليه في البوذية والجينية بعد بوذا وماهافيرا.



**زهرة الصيف «قصص من الأدب الياباني»/.مجموعة من القاصين اليابانيين، ترجمة: نجاح سفر.. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ١٧٠ص (إبداعات عالمية؛ ٣٣٥).**

تتكون هذه المجموعة من أربع قصص كتبت بعد الحرب العالمية الثانية، ولكل قصة

كاتب يملك أسلوباً وتقنية فنية مختلفين عن نظيرتيهما عند الآخر.

إن الهدف من هذه المجموعة القصصية هو تقديم حالات إنسانية تتقاتل فيها البشرية من أجل شيء مزعوم لا يستحق كل هذا العناء على مسرح الحرب، وهذه القصص تتجاوز الحالة النفسية بشخصياتها، على الرغم من أنها ـ بطريقة ما ـ جزء من سيرتهم الذاتية التي تخص عالم الأدب.

فقصة «الصيد» لـ «أوي» الغرض من حكايتها يكمن في تطوير العلاقة الإنسانية المستجدة بين أطفال القرية والطيار الزنجي الأمريكي الذي أمسكوا به، وسجنوه في المخزن، ويمكننا أن نلاحظ من خلالها ناتج خيال طفل في بداية مرحلته الدراسية مع عدو يراه كالاستعارة الغريبة للمرة الأولى. أما قصة «ساكوراجيما» فتتحدث عن ضابط صف بالبحرية يشارك مباشرة في الحرب، لكن بشكل سلبي ومعارض، فنحس بأنه متورط عاطفياً بالحرب، لكنه يتظاهر بالتحفظ والحياد، لقد استفاد «أوميزاكي» في كتابته للقصة من خدمته في قطاع البحرية وهو يحكيها بأسلوب مكثف ومحتوى ثر، وبخصوص «زهرة الصيف» فإن كاتبها، «هارا» عاش في هيروشيما وقت إلقاء القنبلة الذرية عليها، فهو يسرد لنا سيرته الذاتية المركزة بأسلوب قصصي متحفظ متقشف بخصوص الكلام أو التعليق، وكان هذا جزءاً من تراث الأدب الياباني الذي يركز في الجانب الشخصي للتجربة. وأخيراً نصل مع الكاتبة «فوميكو هاياشي» التي تحكي في «عظام» قصة أرملة لجأت إلى الشوارع وانحرفت عن الفضيلة؛ لأنها ضحية السلبية البالغة القسوة، إلا أنها تبزغ من ذاتها، من جديد لتسترد نوعاً من الثقة بنفسها.

**صالح، ثائر / لمحات من الأدب المجري ـ دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠٢م، ١٧١ص.**

تعرف القارئ العربي إلى أدب الكثير من الشعوب الأوربية، وغيرها عبر حركة الترجمة التي بدأت منذ فترات طويلة، لكن أدب بعض الشعوب ـ وبخاصة الأدب المجري ـ لا يزال بعيداً عن متناول المواطن العربي الذي عُرف بحبه للشعر والأدب بصورة عامة، إذ لم ينشر من الأدب المجري باللغة العربية سوى القليل في محاولات تعدّ على أصابع اليد الواحدة.




ولولا الخصوصية التي لازمت لغتهم التي لا يتحدث بها أكثر من ١٥ ـ ٢٠ مليون شخص اليوم، لرأينا بين أفواج الذين حصلوا على جائزة نوبل للآداب الكثير من الكتاب المجريين الذين هم ليسوا بأقل أهمية وعظمة من أدباء الشعوب الأخرى ممن حصلوا على هذا التقدير الرفيع.

يتضمن الكتاب مقدمة عن تاريخ الأدب المجري، وترجمة لـ ١٢ من أبرز الشعراء المجريين، ومختارات من إنتاجهم الشعري.

**المناصرة، عز الدين/ إشكاليات قصيدة النثر: نص مفتوح عابر للأنواع ـ عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ٥٣٢ص.**




كتب الدكتور محمد ناصر الخوالدة عن الكتاب قائلاً: «يرى الشاعر عز الدين المناصرة أن قصيدة النثر العربية ولدت عام ١٩٥٤م، من مرجعيتين: إحداهما عربية (النثر الشعري ـ كتابات الصوفية ـ الخاطرة الشعرية)، والأخرى أوروكية (قصيدة النثر الفرنسية ـ قصيدة النثر الأنجلو أمريكية ـ الشعر المنثور ـ ترجمة النصوص التوراتية والإنجيلية)، كما يرى أن الخطأ الشائع «قصيدة النثر» مصطلح مناسب، وأن قصيدة النثر نص مفتوح على أنواع سردية نثرية، وفيه درجات عالية من الشعرية أي أنه كتابة حرة، ومن ثم فهو: نص أدبي مستقل. ونحن نعتقد أن أطروحة المناصرة «الجنس الأدبي المستقل» قد بدأت تلقى تجاوباً من بعض

النقاد العرب منذ عام ١٩٩٧م، وبعيداً عن أساليب الجحود والإنكار، يمكن موازنة كتاب المناصرة بكتاب نازك الملائكة «قضايا الشعر المعاصر» في عام ١٩٦٢م، وكتاب أدونيس «زمن الشعر» عام ١٩٧٢م، من حيث الفاعلية فقط، لأن كتاب المناصرة يتفوق عليهما من عدة زوايا، لقد روج المناصرة لمشروعية قصيدة النثر بذكاء ودهاء، حتى وصفه أحد كتاب قصيدة النثر الشباب بأنه (كبيرنا الذي علمنا السحر).

قسم المؤلف كتابه ثلاثة فصول رئيسة: الأول، تحت عنوان «قصيدة النثر: إشكاليات التسمية والتجنيس والتأريخ»، والثاني بعنوان «تبريد اللغة الشعرية: قراءة النصوص (١٩٧٠ - ٢٠٠١م)»، والثالث بعنوان «إشكاليات قصيدة النثر (استفتاء ميداني)» والذي يضم آراء عدد من المثقفين العرب في قصيدة النثر.

**حمد الجاسر: علامة الجزيرة العربية/ مجموعة باحثين.- دمشق: مكتب الملحقية الثقافية السعودية بسورية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ٣٥٠ص.**

هذا الكتاب هو السجل العلمي لندوة «حمد الجاسر علامة الجزيرة العربية وأحد رواد النهضة العلمية في المملكة العربية السعودية» التي أقيمت في دمشق في سنة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، والتي شارك فيها نخبة من المثقفين العرب، جاءت بحوثهم تحت هذه العناوين: «حمد الجاسر عاشق التراث» للدكتور أحمد محمد الضبيب، و«رحلات الشيخ حمد الجاسر» للدكتور شاكر الفحام، و«العلامة الشيخ حمد الجاسر: النسابة الجغرافي اللغوي»، للدكتور ناصر الدين الأسد، و«كتاب مناسك وأماكن وطرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر» للدكتور نقولا زيادة، و«الشيخ حمد الجاسر - تسعون عاماً في خدمة العلم» للدكتور علي عقلة عرسان، و«حمد الجاسر العلامة الفذ» للدكتور محمد الهدلق، و«حمد الجاسر وخدمته تاريخ الجزيرة العربية» للدكتور عبدالعزيز صالح الهلابي، و«ذكريات عن حمد الجاسر وحلف الفضول» للدكتور جورج جبور، و«حمد الجاسر، أحد رواد النهضة العلمية في المملكة العربية السعودية» للأستاذ خالد محمد الخنين.

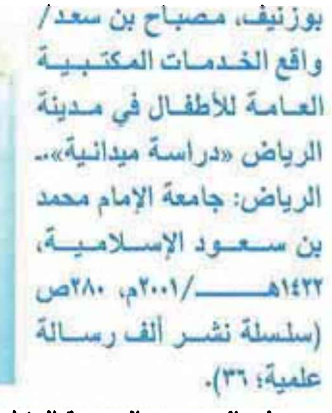
**همنغواي، إرنست/الوليمة المتنقلة «سيرة ذاتية»، ترجمة: علي القاسمي .- الرباط: روايات الزمن، ٢٠٠١م، ٢٠٣ص.**

يعد هذا الكتاب من كتب السيرة الذاتية، ولكنه دون بطريقة مبتكرة، وأسلوب روائي يختلف عن أساليب الكتب التي سبقته من هذا الصنف الأدبي، وهو يتحدث عن حياة الكاتب في مدينة باريس في أوائل العشرينيات من القرن الماضي (١٩٢١ - ١٩٢٦م)، وهي السنوات التي عرفت عند الفرنسيين بالحقبة الجميلة، ويقدم وصفاً لأحياء باريس ومعالمها وساحاتها، وشوارعها ومطاعمها ومقاهيها. ويتحدث عن الأدباء الذين التقى بهم هناك، وربطته معهم صداقة ومودة، خاصة أولئك الذين قدموا من بريطانيا وأمريكا واتخذوا باريس مربعاً لمزاولة أدبهم وفنهم، وفي مقدمة أولئك الأدباء الشاعر الأمريكي عزرا باوند، والشاعر الأمريكي البريطاني تي. أس. إليوت، والروائي البريطاني جيمس جويس، والكاتبة الأمريكية غيرترود شتاين، والروائي الأمريكي سكوت فتزجيرالد، وغيرهم.

صدر الكتاب في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٣م بعد وفاة كاتبه منتحراً عام ١٩٦١م، وللكاتب عدد آخر من المؤلفات، منها: رواية «وما تزال الشمس تشرق»، و«لمن تقرع الأجراس؟»، و«ثلوج كليمنجارو»، و«الشيخ والبحر» التي نال على إثرها جائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٤م.

وقد تميزت ترجمة هذا العمل بمجموعة من الخصائص

والميزات سواء من حيث الأسلوب، وما يرتبط به من نقاء العبارة وقوة اللغة وإبداعيتها، أو من زاوية امتلاك المترجم معرفة كبيرة بمختلف العوالم التي يتحدث عنها همنغواي في هذا النص.



الظفيري، مريم محمد صالح/ مصطلحات المذاهب الفقهية.. وأسرار الفقه المرموز في الأعلام والكتب والآراء والترجيحات.. بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ٤٥٦ص.

هذا الكتاب رسالة أعدت لنيل الماجستير، استطاعت الباحثة فيها أن تجمع ما تناثر في بطون الكتب القديمة، ومما كتب في كل مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة، فكان منهج الكتابة في الفصل الأول مختلفاً عن الفصول الأربعة الأخيرة، وذلك لأن المؤلفة اعتمدت في الفصل الأول الإيجاز وعدم الخوض في الاختلافات الجزئية في المذهب الواحد. فعند تعريف الاصطلاح ذكرت التعريف المختار، ولم تورد شرحه، لأنه في كتب الأصول غني عن الإعادة والتكرار - كما تقول الباحثة - أما إذا كان الاختلاف مؤثراً في تغيير مسمى الاصطلاح كاختلاف الجمهور والحنفية في الفرض والواجب، فإنه يتم الفصل بينهم.

أما في الفصول الأربعة الأخيرة فحرصت المؤلفة على التفصيل والبيان والتمثيل ما استطاعت، فتبدأ بتعريف اللفظ لغة ثم اصطلاحاً، وإذا كان التعريف الاصطلاحي يحتاج إلى توضيح وبيان قامت بالتوضيح، ثم التمثيل من كتب الفقه، وإذا كان في دلالة اللفظ اختلاف بين علماء المذهب أوردت جميع الآراء وناقشتها، مع ذكر الرأي الأرجح والأقرب للصواب حسب قواعد اللغة، وركزت في الأعلام البارزين في المذهب والذين ترد أسماؤهم كثيراً في كتب الفقه، ورتبت المؤلفة رموز الأعلام حسب تاريخ الوفيات، وكذلك الأمر بالنسبة إلى اصطلاحات الكتب، أما بالنسبة إلى اصطلاحات الآراء والمذاهب والترجيحات فحاولت المؤلفة استقصاءها، مع جمع معظم اصطلاحات المذاهب، وترك الألفاظ التي لا يتكرر ذكرها، إضافة إلى فهارس الأعلام والاصطلاحات والموضوعات.



بوزنيف، مصباح بن سعد/ واقع الخدمات المكتبية العامة للأطفال في مدينة الرياض «دراسة ميدانية».. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ٢٨٠ص (سلسلة نشر ألف رسالة علمية؛ ٣٦).

على الرغم من التنمية الشاملة التي تشهدها المملكة العربية السعودية في مختلف المجالات، إلا أن خدمات المكتبات العامة المقدمة للأطفال لا تزال تعاني نقصاً كبيراً، ولم تصل بعد إلى المستوى المنشود لها، توصل الباحث إلى هذا الحكم بعد تقص لواقع الظاهرة، فتبين له أن لا يوجد في مدينة الرياض إلا أربع مكتبات للأطفال، فقام الباحث بزيارتها، فوجدها تتفاوت في حجمها، وإمكاناتها، والخدمات التي تؤديها.

كما لاحظ الباحث من خلال متابعته لما نشر في أدب الموضوع غياب الدراسات التي تناولت الخدمة المكتبية العامة للأطفال في المملكة العربية السعودية أو في إحدى مدنها، سواء من حيث دراسة واقع هذه الخدمات، أو من حيث تحليل ما تقدمه من خدمات للأطفال، ودراسته وتقويمه، ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة، إذ تلقي معطياتها مزيداً من الضوء على وضع هذه المكتبات في مدينة الرياض حتى تصبح الصورة واضحة المعالم أمام المسؤولين عن هذا القطاع المهم، ولتضع أمام المخططين لتلك الخدمات تصوراً واضحاً لتطويرها.

كما تأتي أهمية هذه الدراسة من كونها دراسة ميدانية قائمة على استطلاع الواقع، ومقابلة مجتمع المستفيدين، والقائمين على خدمتهم، ومن ثم تحديد النتائج والتوصيات بناء على الرأي العام لدى مجتمع المستفيدين من الأطفال،

وكذلك مجتمع القائمين على الخدمات من الموظفين، وستفتح هذه الدراسة المجال أمام الباحثين لتقديم دراسات أعمق لبعض الجوانب التي أثرتها هذه الدراسة.




العوري، هالة/ أهل الكهف: قراءة في مخطوطات البحر الميت.. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٠م، ٤٠٧ص.

تم تدوين وثائق قمران، وفلسطين تحت الاحتلال الأجنبي الروماني، وجاء اكتشافها للمفارقة، بعد ألفي عام وفلسطين ترزح تحت الانتداب البريطاني، والاستيطان الصهيوني على أشده، وقد تلقفت المؤسسات الغربية مخطوطات البحر الميت هذه منذ أواخر الأربعينيات، وفرضت عليها حصاراً محكماً قرابة أربعة عقود.

في هذا الكتاب أول مرة باللغة العربية، يعثر القارئ على عرض عميق وشامل لسيرة هذه المخطوطات ومحتوياتها منذ واقعة الاكتشاف المثيرة الأولى والحصار الذي ضرب حولها، وصولاً إلى ما فجرته محتوياتها من خلافات حادة في الأوساط الدينية انطلاقًا من حقيقة «تهويد المسيحية» في بلاد الغرب.

علوان، محمد حسن/ سقف الكفاية (رواية).. بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٢م، ٤٠٠ص.

أنت..
سيدة ملونة
كدمية صينية
جلدها من العاج .. بلا لون!..
تصفر في داخلك الريح
وتسكنك العناكب
ولا صوت في داخلك إلا الصدى..
انت سيدة ملونة.. فابتعدي عن دربه
اتركيه..
لا تقربي منه.. لا تقبليه..
قد تتركين أصباغك عليه.. فيصير مهرجاً..
تضحكين عليه!..

هذا مقطع من رواية «سقف الكفاية» للشاب محمد بن حسن العلوان التي تعد أول تجربة روائية له، وامتاز أسلوبه بالمواءمة بين الشعر والسرد والتجريب السردي في الكتابة خصوصاً أن القاص كان في سن الثالثة والعشرين عاماً. وتحتاج هذه الرواية إلى مزيد من التدقيق والنقد حتى تتفتح معالم الطريق أمام هذا الروائي الواعد، ومن أجل تشجيع أمثاله من الشباب لاقتحام عالم الرواية السحري.




الشرقاوي، محمد عبدالله/ الكنز المرصود في فضائح التلمود.. القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠١م، ٤١٤ ص (دراسات الأديان؛ ١)

يرى المؤلف «أن اليهودية أو الإسرائيلية الراهنة هي اليهودية التلمودية، فالتلمود هو كتاب بني إسرائيل الأقدس، وهو صورة صادقة التعبير عن الشخصية الإسرائيلية التي أفرزته، فهو يجلي دفائن النفسية اليهودية، ويبرز مكنوناتها الغائرة، ابتدعه شيوخ إسرائيل تحت وطأة معاناة الشتات والاغتراب والتقطيع في الأرض، وتحت أثقال الأسر والقهر والتشرد، التي ملأت نفوسهم هواناً ومذلة، وفجرت فيها كل مخزونها من طاقات الحقد والحسد والكراهية والبغضاء، والرغبة في الانتقام والتجبر، الانتقام من الأمم كلها، والتجبر على الأميين أجمعين»، وقد وصفه أحد أبرز المتخصصين في الأدبيات العبرية والدراسات التلمودية قائلاً: (...بعض أقوال التلمود مغال، وبعضه كريه ، وبعضه الآخر كفر).

ولخطورة كتاب التلمود، ولخطورة ما تصنعه اليهودية التلمودية في فلسطين والمنطقة العربية والإسلامية والعالم أجمع، جاء هذا الكتاب الذي يتضمن خمسة أقسام رئيسة: درس المؤلف في القسم الأول نشأة التلمود وأسفاره، وأقسامه، وشروحه، وتاريخه، ومصدره، وقانونيته،

ومنزلته عند اليهود، وإشارات المصادر التراثية الإسلامية إليه، ونماذج من تعاليمه، وعقد موازنة بين أهم كتابين وضعا عن التلمود ومقتطفات مطولة منه وهما: «الكنز المرصود في قواعد التلمود»، و«فضح التلمود» للكاهن الروسي برانايتس، وعمل دراسة موازنة لخصائص النفسية الإسرائيلية وأخلاق اليهود، كما صورها التوراة والإنجيل والقرآن الكريم.

وفي القسم الثاني أورد المؤلف نص كتاب «الكنز المرصود» وقام بضبط النص والتدقيق فيه.

ويحوي القسم الثالث نصوصا تلمودية من كتاب الكاهن برانايتيس «فضح التلمود»، قام المؤلف بضبطها وعلق على بعض أفكارها.

والقسم الرابع يتضمن نص رسالة الكاهن «ناوفيطوس» التي تكشف عن طريقة استنزاف الدم البشري الجاري عند اليهود حسبما تقضي به تعاليم التلمود، وهذا هو السر التلمودي الذي يتكتمه اليهود أشد تكتم حتى على عامتهم، ومن هنا سميت هذه الرسالة «إظهار سر الدم المكتوم».

وختم الكتاب بالقسم الخامس الذي احتوى على النص الكامل (بعد ضبطه والتعليق عليه) لمحاضر التحقيق القضائية التي جرت في سورية عام ١٨٤٠م في قضية قتل اليهود الأب توما الكبوشي، وإبراهيم عمار، واعتراف القتلة من زعماء اليهود وحاخاماتهم بجريمتهم، وصدور الحكم بإعدامهم.

**الذييب، سليمان بن عبدالرحمن/ نقوش جبل أم جذايذ النبطية: دراسة تحليلية ـ الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ٣٣٣ص.**

هذه دراسة تحليلية لمئتين وثلاثين نقشاً نبطياً من جبل أم جذايذ في منطقة العلا قرب المدينة المنورة، وقد اشتملت على ثلاثة فصول: حوى الأول دراسة تاريخية للموطن الأصلي لمستخدمي القلم النبطي (الأنباط)، بينما تضمن الثاني تمهيداً لمضمونات هذه النصوص، وأما الثالث ففيه دراسة تحليلية موازنة لهذه المجموعة من النصوص النبطية، كما تضمنت رسومات للنقوش المدروسة مع الصور الفوتوغرافية لكل نص. وتم إلحاق سبعة فهارس لأسماء الأعلام، والآلهة، والقبائل، والأماكن، والشهور، والألفاظ، والمفردات التي وردت في هذه النصوص حسب المنهجية العلمية المتبعة مرتبة حسب الترتيب الأبجدي السامي الشمالي. إضافة إلى إدراج قائمة بالمصادر والمراجع.

**القدومي، عيسى/مصطلحات يهودية .. احذروها ـ نابلس (فلسطين): مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ٧٥ص.**




يحتوي هذا الكتاب على طائفة من المصطلحات والمسميات الدخيلة التي برع اليهود في نشرها وعولمتها في العالم أجمع لتصبح حقائق ومسلمات لا مجال لإنكارها، أو التشكيك فيها في ظل سياسة التهويد التي ينتهجها اليهود وأعوانهم لترسيخ الاحتلال اليهودي لأرض فلسطين.

ويستعرض الكتاب أكثر من ثلاثين مصطلحاً من هذه المصطلحات، ويذكر البديل الصواب لها، ويبين المغزى اليهودي من نشرها وعولمتها، كما يحوى عدداً من أسرار إشاعة تلك المسميات والمصطلحات التي تهدف إلى زعزعة ثوابت الأمة الإسلامية.

ومن أمثلة هذه المصطلحات:

المصطلح الصواب: المشرق الإسلامي.
المصطلح اليهودي: الشرق الأوسط.
المصطلح الصواب: الاستسلام.
المصطلح اليهودي: التطبيع.
المصطلح الصواب: أرض فلسطين
المصطلح اليهودي: أرض الميعاد.
المصطلح الصواب: المسجد الأقصى.
المصطلح اليهودي: هيكل سليمان.

**المدى (س١٠، ع ٣٦، ٢٠٠٢م)**



مجلة فصلية ثقافية تصدر عن دار المدى للثقافة والنشر في سورية.

احتوى هذا العدد من المجلة على عدد من المقالات والمشاركات الإبداعية بدأت بمقالة لممدوح عدوان بعنوان «المدى منشطاً ثقافياً»، كما ضم العدد تقريراً مطولاً عن «أسبوع المدى الثقافي الثالث، الذي استضافته دمشق في الفترة ما بين ٢٣ مارس/ آذار و ١ أبريل /نيسان لعام ٢٠٠٢م، واستمر عشرة أيام، وشارك فيه نخبة من المسؤولين والمثقفين العرب، وفي باب الدراسات كتب الدكتور صبيح الجابر مقالة بعنوان «الغربة وانهيار النهايات في حياة وشعر السياب»، واستكمل ميثم الجنابي مقالته بعنوان «محمد رسول الإرادة»، وتناول أمير أحمد موضوع «الحيرة الصوفية عند الشاعر السوداني الراحل التيجاني يوسف بشير».

وجاء حوار العدد مع الشاعر العراقي سعدي يوسف، أجراه عباس بيضون، وترجم محسن الرمل شهادة روائية للإسباني خابيير غارثيا سانجث، وكتب الدكتور علي ثويني عن «اللغة الأرامية وتأثيراتها الخارجية وبقاياها في اللهجات العربية المحلية»، وفي باب القصة نقرأ لكل من: محمد سعيد الصكار، ونضال جديد، وشكر خلخال، وقصة شيرين.ك. ترجمها عبدالله قرداغي، كما ترجم إبراهيم عبدالملك قصة «الجوابون» للروائي السويدي يان هنريك سفان. وفي باب الشعر كتب فؤاد كحل، وسمير عزام، وسعد سرحان، ومؤيد حنون، ونجيب عوض، ووداد بنموسى، كما ضم العدد بعض الأبواب الثابتة مثل: سينما، وكتب، وتقارير ورسائل، ونافذة أخيرة، ورافق المجلة العدد العاشر من فصلية الشعر «اللحظة الشعرية» شارك فيها كل من: كامل شياع، وإبراهيم عبدالملك، وصلاح نيازي، ومحمد سعيد الصكار، وسعيد فرحان، إضافة إلى باب يوميات اللحظة الشعرية.

**دمشق. ص.ب: ٨٢٧٢**

**هاتف (٦) ٢٣٢٢٢٧٥ - ناسوخ: ٢٣٢٢٢٨٩**

**مجلة الدراسات اللغوية (مج٣، ع٤، شوال - ذو الحجة ١٤٢٢هـ/ يناير - مارس ٢٠٠٢م).**





فصلية محكمة تعنى بدراسة النحو والصرف واللغويات والعروض، تصدر عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. تضمن هذا العدد من الدورية بحوثاً ودراسات متنوعة.

بدأت بحوث الدورية بتحقيق الدكتور حسن شاذلي فرهود رسالة «إتحاف الفاضل بالفعل المبني لغير الفاعل» لمحمد علي بن علان الصديقي المتوفي سنة ١٠٥٧هـ، وهي رسالة جمع فيها المؤلف بعض الأفعال المبنية للمجهول، وهي تتمة لكتاب «المنهل المأهول في الفعل المبني للمجهول» جمع القاضي خير الدين أبي الخير بن أبي السعود بن ظهيرة القرشي المخزومي المكي الشافعي.

وشرحت هدى جنهويتشي «تفاوت الصوائت العربية في القوة» موضحة أن الكسر عند العرب أقوى الصوائت تأثيراً، ومثله صنوه الياء، ثم الضم وصنوه الواو، ثم الفتح وصنوه الألف، وقد سادت هذه الفكرة في الخط العربي، وفي تحريك الساكن، وفي تصريف الكلمات العربية، وفي بعض الأساليب الإنشائية.

وفي باب (النقد والفهارس) أورد سليمان بن أحمد أبو ستة «ملاحظات على تحقيق كتاب العروض للربعي» الذي ظهر محققاً على يد الدكتور محمد أبو الفضل بدران عن نسخة وحيدة تحتفظ بها مكتبة جامعة توبنجن بألمانيا الاتحادية، وظهر في سلسلة النشرات الإسلامية المعروفة بنشرها أمهات الكتب في التراث العربي (جزء ٤٤، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٠م).

واختتم عبدالله بن عمر الحاج إبراهيم موضوعات هذا العدد بإيراد «الفهارس اللغوية لكتاب الغريب المصنف» لأبي عُبيد القاسم بن سلام الهروي المتوفى سنة (٢٢٤هـ)، القسم الثاني من حرف الراء إلى آخر الفهارس.

**العنوان: المملكة العربية السعودية**

**الرياض ص.ب ٥١٠٤٩ - الرمز البريدي ١١٥٤٣**

**ناسوخ: ٤٦٥٩٩٩٣**

## عالم الفكر
### (ع٤، مج٣٠، أبريل - يونيو ٢٠٠٢م)

مجلة فكرية محكمة تهتم بنشر الدراسات والبحوث المتسمة بالأمانة النظرية والإسهام النقدي في مجالات الفكر المختلفة وتصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت.

احتوى العدد على عدد من البحوث والدراسات الفكرية والنقدية، ففي باب «التحولات في الفكر الفلسفي المعاصر» جاء أول البحوث للدكتور غانم هنا بعنوان «نيتشه: فاصل بين حديث ومعاصر ... تجاوز هيغل»، وكتب الدكتور عبدالرحمن التليلي بحثًا بعنوان «فوكو: الحفريات منهج أم فتح في الفلسفة؟». وقدم الدكتور الزواوي بغوره بحثًا بعنوان «البنيوية: منهج أم محتوى؟»، وناقش الدكتور حميد بن عزيزة «تحولات التجربة الشيوعية: من البولشفية إلى الأوروشيوعية».

وتناول الدكتور ميشيل متياس «تصور اليقين عند فتجنشتين»، وكتب الدكتور محمد وقيدي بحثًا عن «مقدمات لاستئناف القول الفلسفي في الفكر العربي المعاصر»، وقدمت الدكتورة أماني البداح عرضًا لكتاب «العقل في القرن العشرين» لبرتران سان. سرنان.

وفي باب «آفاق نقدية» بحث بعنوان «تاريخ وفلسفة العلوم عند ميشيل سير» للدكتور يوسف تيبس ، وبحث بعنوان «الترجمة الأدبية بين قيود النص وحرية الإبداع» للدكتور أحمد حماد.

**العنوان: ص.ب ٢٣٩٩٦ - الصفاة - الرمز البريدي ١٣١٠٠**

## آفاق الثقافة والتراث
### (س١٠، ع٣٧، المحرم ١٤٢٣هـ، نيسان/ إبريل ٢٠٠٢م)

مجلة فصلية ثقافية تراثية تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث.

زخر هذا العدد من المجلة بعدد من البحوث والدراسات المتنوعة، بدأها سكرتير التحرير بافتتاحية بعنوان «استنساخ أم استنسال أم ماذا؟ وقفة مع المصطلح»، وفي باب المقالات




نقرأ الآتي: «حملة أبرهة الحبشي على مكة: أهدافها ونتائجها (دراسة نقدية)» بقلم الدكتور رياض هاشم النعيمي، و«حوار الحضارات: الحضارة الإسلامية نموذجًا» بقلم الأستاذ مصطفى محمد طه، و«جهود العرب في انتشار الإسلام والحضارة العربية في خراسان والمشرق» بقلم الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي، و«الدورة الحضارية للمجتمعات عند مالك بن نبي» بقلم الأستاذ موسى الحرش، و«أصالة القيم الثقافية في المدينة العربية والغزو الثقافي الأجنبي» بقلم الدكتور محمد صالح العجيلي، و«صورة الجوع في إبداعات شعرية عربية قبل الإسلام: تحليل ونقد» للدكتور بو جمعة جمي، و«المعرب والدخيل في كتاب العين: دراسة ومعجم» بقلم الدكتور عبدالعزيز ياسين عبدالله، و«كتاب المخطوطات العربية في المكتبة البريطانية ومكتبة جامعة كمبردج: عرض ومراجعة» بقلم الدكتور محمد عبدالجواد محمد علي، وفي باب المقالات العلمية كتب الأستاذ الأخضر إيدروج مقالة بعنوان «طريق النشر العلمي الإلكتروني: بناء المجتمع الرقمي»، وتناول الدكتور غياث حسن الأحمد موضوعًا بعنوان «أمراض الأذن عند الأطباء المسلمين القدامى».

وفي باب «فرائد المخطوطات» عرض الدكتور عبدالخالق بن المفضل أحمدون مخطوطة بعنوان «مطالع التمام ونصائح الأنام للقاضي أبي العباس أحمد الشمّاع الهنتاتي المتوفى سنة ٨٣٣هـ»، وقدم الدكتور حاتم صالح الضامن مخطوطة بعنوان «ذكر أعضاء الإنسان لبدرالدين الغزّي المتوفى سنة ٩٨٤هـ»، واختتم العدد بتحقيق لمخطوطة «الرسالة الأمينية في الفصد: تصنيف أمين الدولة أبي الحسن هبة الله بن صاعد بن إبراهيم المتوفى سنة ٥٦٠هـ» قدمه الدكتور عبدالقادر أحمد عبدالقادر.

**العنوان: ص.ب: ٥٥١٥٦ - دبي**
**هاتف: ٩٧١٤٢٦٢٤٩٩٩ - ناسوخ: ٩٧١٤٢٦٩٦٩٥٠**
**دولة الإمارات العربية المتحدة**

# الحواس والجمال


**عبدالقادر دامخي**

باتنة. الجزائر


اختلف الفلاسفة وعلماء الجمال في مراتب الحواس، وبخاصة في حاستي السمع والبصر؛ فمن رأى أن حاسة السمع أشرف استدل على أن محسوساتها كلها روحانية، وعن طريق السمع يمكن إدراك من هو غائب بالمكان والزمان. أما محسوسات البصر فكلها جسمانية، لأنه لا يمكنها إدراك إلا ما كان حاضراً في الوقت.

والسمع أدق تمييزاً من البصر إذ يمكنه تمييز النغمات المختلفة، والأصوات المتفرقة، ولا يحتاج إلى البصر في إدراك ذلك، فعن طريق السمع تعرف جودة الذوق وجودة الحس، وتتميز الأصوات السقيمة من الأصوات الصحيحة، ويفرّق بين أصوات الأصدقاء والأعداء، وأصوات الأجسام ذات الروح والأجسام التي لا روح فيها، وأصوات الناس على اختلافهم وأشكال كلامهم. أما البصر فإنه يمكن أن يخطئ في أكثر مدركاته، فربما رأى الصغير كبيراً والبعيد قريباً، والمتحرك ساكناً(١).

## حواس تتشابك

والتجارب الحديثة التي أجريت على المكفوفين أثبتت أنه، على الرغم من أنهم لم يكتسبوا أية صورة بصرية، فإنه بإمكانهم التعبير عن تلك الأحاسيس المتعلقة بحاسة البصر التي حرموا منها(٢). وقد أبرز الباحث بيير فيليه P.Villey أن باستطاعة الأعمى أن يتذوق إلى حد ما بعض الأشكال المكانية الجميلة، لأن حواسَّ أخرى غير البصر تتشابك لتؤدي بعض التعويض، خلال عملية الإدراك الجمالي(٣).

ويرى ابن حزم (ت:٤٥٦هـ) أن حاسة البصر هي أبلغ الحواس وأقدرها على الوقوف على الحقائق وإدراك المحسوسات وتمييز الصفات.

وفضل العين يكمن في أنه لا تُدرَك الألوان بسواها، وبها تُدرَك الكواكب البعيدة، وترى السماء على شدة ارتفاعها وبعدها. أما بقية الحواس مثل الذوق واللمس فلا يُدركان إلا بالمجاورة، والسمع والشم لا يُدركان إلا من قريب(٤).

ولا ينكر ابن حزم أثر السمع في عملية الإدراك الجمالي، لأن في سرد الحكايات، ونعت المحاسن، ووصف الأخبار ما يؤثر في النفس تأثيراً قوياً، ولكن هذا الإدراك لا يقوم على أساس صحيح، فالعبرة بالمعاينة التي تزيد من قوة ارتباطنا بالموضوع أو انفصالنا عنه انفصالا تاماً ينفي أثر الإدراك عن طريق السمع(٥).

ويرى (شوبنهاور Schopenhauer: ١٧٨٨م - ١٨٦٠م) أن الصوت تكرار لعالم الحواس بأسره، وأن فن الموسيقى الذي يقوم على الصوت هو طريقة أخرى للتعبير عن الإرادة أو الجوهر الباطن؛ فالصوت يملك قدرة فائقة على التنوع اللامتناهي، وإدراكنا لهذه الحقيقة يتطلب امتلاكنا لحاسة سمع مرهفة تصل إلى حقيقة أن عالم الصوت لا يقل عن عالم المادة في إثارة اهتمامنا وإيقاظ انفعالاتنا، ولا تقل دلالته في أداء المعنى عن دلالة المادة على الرغم من اعترافنا بقلة ثباته وصعوبة استخدامه، «ولذلك فالموسيقى التي تعتمد على المواد الصوتية إنما هي أقل الفنون إنسانية وتعليماً وإن كانت أكثرها صفاءً وتأثيراً»(٦).

## للمادة فتنتها

وهذا لا يدعونا إلى إنكار المادة الحسية والتقليل من دورها في الكشف عن الجمال بدعوى ثانوية هذا الدور؛ فالشكل لم يتأسس من فراغ، فلا بدّ للشكل أن يكون شكلاً لشيء ما، لذلك فإن اهتمامنا بشكل الأشياء وتجاهلنا لمادتها خلال بحثنا عن جماليتها يضيع علينا فرصة إغنائنا النتيجة الجمالية المُتوصَّل إليها، «فمهما كانت اللذة التي يبعثها الشكل فإن المادة تولد لذة أيضاً، وتزيد القيمة النهائية للتأثير بإضافة هذه اللذة»(٧).

صحيح أن الجمال الحسي ليس هو الوسيلة المثلى للتأثير، ولكنه هو الأساس الذي يقوم عليه البناء الجمالي، فللمادة أثر كبير في النفس، وعن طريقها ينتقل هذا الأثر إلى الشكل؛ فالمادة التي صنع منها صرح سليمان عليه السلام كان لها أثر جمالي في نفس بلقيس شغل حاسة الإبصار عندها عن إدراك ماهية هذه المادة: *قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا، قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ*. **النمل: ٤٤**.

فللمادة فتنتها الخاصة التي تسحر حواسنا وتحفزنا إذا ما صيغت في شكل جميل، فتسمو بنا، ويزيد انفعالنا نحوها شدّة، فنحن في حاجة إلى هذا المؤثر لكي تصل إدراكاتنا إلى أقصى درجة من القوة والحدة، ولا يأسرنا شيء لم يتحقق الجمال في كل نواحيه(٨).

والملاحظة التي تفرض نفسها هي أن الحديث عن الفن يدور تقريباً دائماً حول ما يدرك بحاستي البصر والسمع فقط. ويرى أفلاطون Pla-ton أن هاتين الحاستين ترتبطان ارتباطاً وثيقاً بالعمليات الذهنية، على عكس الحواس الأخرى؛ فالفلسفة الأفلاطونية تصف حواس اللمس والذوق والشم بأنها الحواس «الأدنى» وهذا اللفظ يدل على انحطاطها أخلاقياً.

وإذا بحثنا عن ضعف أهمية الحواس الدنيا فإننا أمام تفسيرين:

التفسير الأول: يرى أن الإبصار والسمع يُدركان الموضوعات عن بعد دون أن تحتك مباشرة بعضو الإحساس. أما الذوق واللمس والشم فإنها توجه الانتباه إلى الجسم، وبذلك لاتترك هذه الحواس مسافة مادية، ومن ثم فإن المسافة النفسية أو التنزه عن الغرض يضيعان. وهذا ما يجعل الحواس الدنيا مهيأة للنشاط العملي لا الجمالي.

لكن هذه النظرية ليست ذات صحة مطلقة، لأنه بالإمكان تذوق السمات الموضوعية للملمس والرائحة والمذاق، وإننا نعمد إلى فعل ذلك أحياناً كثيرة، فعند الأكل ليس همنا الأوحد هو إشباع الرغبة الجسمية، بل

إننا نهتم بمذاق الطعام وملمسه، وعند استعمالنا للعطر فإننا نقف عند تلك الرائحة وموازنتها بما ألفنا شمه من قبل(٩).

أما التفسير الثاني: فيرى أن الحواس العليا أكثر رهافة، وأشد حساسية من الحواس الدنيا، لأنها تمتلك القدرة على تمييز الاختلافات الكيفية تمييزاً أدق، كما أنها تستطيع عند امتزاج مجموعة منبهات سمعية أو بصرية أن تميز كل عنصر من هذه العناصر المكونة لهذا المزيج.

وإذا كانت الحواس الأخرى تملك هذه القدرة فبدرجة أقل بكثير، فإذا كان من الممكن أن تميز بسهولة بين طعم الخل وطعم الحلو، فإن ذلك يصعب علينا عندما نكون أمام طبق من السلطة يختلط فيه عدد كبير من الأذواق والروائح فهناك تدرجات ذوقية يفوتنا فيها كثير من التفاصيل مهما كانت أذواقنا شديدة الحساسية(١٠).

## الحاستان الأساسيتان

والشيء الذي يميز حاستي الإبصار والسمع من بقية الحواس هو ارتباطهما بنشاط الإنسان الروحي والفكري. أما الحواس الدنيا فتظل بعيدة عن الحياة الروحية والإحساس بالعالم. وهذا هو السبب الذي جعل كل الفنون تعتمد على الإدراك البصري والسمعي، أو على مادتيهما من الخيال، مثلما هو الشأن في الأدب. إن الأنف واللسان واليد لا يمكن أن تُدرك الفحوى الفكرية والمحتوى الانفعالي في الفن؛ فالعين والأذن هما القادرتان على التقاط ذلك واستيعابه وتقديمه للوعي(١١).

ومن المسلم به أن البصر والسمع هما الحاستان الأساسيتان اللتان تقوم عليهما عملية الإدراك الجمالي في الفنون المكانية كفن العمارة والنحت والتصوير، والفنون الزمانية كفن الموسيقى والشعر والرقص.

ولا يمكن أن نجزم باقتصار الفنون المكانية على حاسة البصر، ولا باقتصار الفنون الزمانية على حاسة السمع، لأن خصوصية السمع والبصر تتداخل في فنون المكان والزمان إلى حدّ أننا نكون حيال حاسة الإبصار التي تسمع وحاسة السمع التي تبصر؛ ألا يحدث في كثير من الأحيان، عند استماعنا إلى قطعة موسيقية، أن نتصور أحداث هذه القطعة وكأنها شريط سينمائي يمر أمام أعيننا؟ وبالمقابل ألا نستمع في كثير من الأحيان إلى موسيقية العمل التشكيلي، وكثيراً ما عبر أصحاب التعليقات الغنية على أعمال المصور (مانيه) E. Manet (١٨٣٢ - ١٨٨٣م) بأنها تحمل الأنغام الحية النضرة(١٢). وعندما حضر الروائي إميل زولا E. Zola (١٨٤٠م - ١٩٠٢م) الصالون الثاني الذي عرض فيه (مانيه) عام ١٨٦٥م، لوحته المشهورة «أولمبيا» قال إن أعمال (مانيه) التشكيلية لا تختلف في شيء مع نظرياته التي نادى بها في رواياته.

وعلى الرغم من أن حواس اللمس والذوق والشم قادرة على التطور، فإنها تظل عاجزة عن خدمة الأغراض العقلية لدى الإنسان، فهي تقدم أقل مقدار من الأفكار التي يمكن تحويلها إلى موضوعات، وبذلك تظل في مؤخرة الوعي. وعندما سميت هذه الحواس بالحواس غير الجمالية، وبأنها حواس دنيا، فإن ذلك يعود إلى طبيعة وظيفتها المتصلة بتجاربنا لا إلى كونها حيوانية أو وضعية في ذاتها؛ فمن نقائص حاستي الشم واللمس كونهما في ذاتهما غير مكانيتين؛ وهذا ما يجعلهما قاصرتين عن تمثل الطبيعة؛ لأن التصوير الدقيق للطبيعة لا يخرج عن حدود المكان، بالإضافة إلى عجزهما عن بلوغ درجة النظام التي تبلغها الأصوات؛ ولذلك فلا تبعثان على نشاط للإحساسات الذاتية مما يمكن موازنته بالموسيقى في إثارته للاهتمام(١٣).

ولا يمكن التسليم بأهمية دور العين والأذن تسليماً كاملاً في ارتباطهما وحدهما بنشاط الإنسان الروحي والفكري. فالدراسات الحديثة التي أجريت في علم وظائف الأعضاء والأعصاب وبناء الأنسجة المخية أثبتت أن الحواس تتشابك خلال عملية الإدراك، وتترابط ترابطاً وثيقاً مما يصعب فصل حاسة عن أخرى، فالأحاسيس التي نتلقاها عن طريق الإبصار مثلا سرعان ما تتشابك وتتداخل في الوقت نفسه مع الإحساسات الأخرى التي تقوم بها بقيّة الحواس، إلى حد أنه لا يمكن أن نجزم أن نظام الخطوط الذي ندركه عن طريق الإبصار يعود إلى حاسة البصر وحدها(١٤).

إن الجهاز العضوي بأكمله هو الذي يتفاعل مع البيئة في كل أفعاله، أما العين والأذن أو أية حاسة أخرى، فإنها لا تعدو أن تكون القناة التي تمر عبرها الاستجابة الكلية.

لذلك فالخبرة الجمالية هي مزيج من اشتراك الحواس وتعاونها، فالعين والأذن لا تستطيعان تقدير الجمال بصفة مباشرة، وإنما تعكسان حكم الحواس الأخرى.

والحواس على اختلافها لا تنطوي على صبغة جمالية في حالة الانفراد، بل تكتسب تلك الصبغة في حالة الترابط؛ لأنها موجودات متصلة متفاعلة(١٥).

وهذا ما عرف عند الفلاسفة المسلمين بالحس المشترك، وهو قوة تملك القدرة على الإبصار والسمع والشم واللمس والتذوق في الوقت نفسه. إنّ هذا الحس المشترك عند المتلقي الذي يوحد الحواس في قوة واحدة هو مقدمة للحس الباطن الذي يستطيع من خلاله المتلقي إدراك موضوعه الجمالي، وإن زاغ البصر والسمع عن ذلك، لأن الأمر قد تعلّق بالقلب والروح؛ فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر، والقلب أشد إدراكاً من العين، وجمال المعاني المُدْرَكة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، فتكون لا محالة لذة القلب، بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس، أتم وأبلغ(١٦).

## المراجع


١. رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، بيروت ١٩٥٧م، ٣/١٢٤.
٢. تعريف الفن، هربرت ريد، ترجمة إبراهيم إمام، القاهرة ١٩٦٢م، ص٤٨.
٣. فلسفة الجمال، عبدالفتاح الديدي، القاهرة ١٩٨٥م، ص٤٤.
٤. طوق الحمامة، ابن حزم الأندلسي، تحقيق: فاروق سعد، بيروت ١٩٧٥م، ص١٠٨.
٥. المصدر السابق ص٨٥.
٦. الإحساس بالجمال جورج سانتيانا، ترجمة: محمد مصطفى بدوي، القاهرة، ص٩٥.
٧. المصدر السابق ص ١٠٢.
٨. المصدر السابق ص ١٠٣.
٩. النقد الفني (دراسة جمالية وفلسفية) جيروم ستولنيتز، ترجمة: فؤاد زكريا، ط٢، القاهرة ١٩٨١م، ص٣٣٦.
١٠. المصدر السابق ص٣٣٧.
١١. علم الجمال، نايف بلوز. ط٢، دمشق ١٩٨٣م، ص٧٧.
١٢. فلسفة الجمال. عبدالفتاح الديدي ص٤٣.
١٣. الإحساس بالجمال جورج سانتيانا ص٩١.
١٤. الشعر بين الفنون الجميلة، نعيم اليافي ط١، دمشق ١٩٨٣م، ص٤٩.
١٥. الفن خبرة، جون ديوي، ترجمة: زكريا إبراهيم، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٢٠٢.
١٦. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، القاهرة ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م، ٤/٢٨٩.